

الأركان الأربعة

(الصلاة ، الزكاة ، الصوم ، الحج)

في ضوء الكتاب والسنة

مقارنة مع الديانات الأخرى



X
9
7
04

6455220

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

الطبعة الثانية

١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م

الطبعة الثالثة

١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ،

أما بعد ، فهذا كتاب تحدث فيه عن أركان الإسلام الأربعة : الصلاة والزكاة ، والصوم ، والحج ، عن وضعها السماوي ، وحقيقتها الشرعية ، وتشريعها في الإسلام ، ومكانتها في الدين ، وفي الحياة الفردية والاجتماعية ، وعن مقاصدها وأسرارها كما قررها الكتاب والسنة ، وفهمها المسلمون في القرون المشهود لها بالخير ، والتمسكون بلباب الدين ، والراسخون في العلم في مختلف العصور والأجيال ، في غير تكلف عجمي وتطعم فلسفي ، وتطرف شخصي ، وفي غير خضوع لأفكار أجنبية واتجاهات عصرية ، وفي غير إخضاع - لمعانيها وحكمها ونظمها ومناهجها - للفلسفات السياسية والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية السائدة في عصورهم وأمصارهم .

وقد درستُ - زمن تأليفه - القرآن الكريم من جديد ، ومصادر السنة ودواوينها الصحيحة ، وما كُتِب في موضوع هذه الأركان ، وشرحتها وتفسيرها ، وبيان مقاصدها وأسرارها ، وُعُنيتُ بصفة خاصة بكتابات الأئمة الذين شرح الله صدرهم لفهم مقاصد الإسلام وروحه ، والوصول إلى أعماقه ، في غير تفريط وإفراط ، وتكلف وإغراق ، ووفقوا لبيان مقاصد الشريعة الإسلامية وأسرار التنزيل وحكم التشريع ، كما أرادها الشرع ، وكما

فهما المسلمون الذين توجه إليهم الخطاب ، ونزل في لغتهم الكتاب ، وكانوا يجمعون بين الفهم العميق ، والعلم الغزير ، والعمل القوي ، والاتباع الدقيق (للرسول ﷺ) والمجاهدة الدائبة في مجال العلم والعمل ، فتمهدت لهم السبل ، ولانت لهم الصعاب ، وقد قال الله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين »^(١) . وقد تشبّعوا بروح هذه العبادات ، كما تطلّعتوا في علومها ، ومارسوها بصدق وإيمان ، كما دارسوها بدقة وإمعان ، فنطقت هذه الأركان على لسانهم ، وعبرت عن مكنوناتها ومضمراتها في شرحهم وبيانهم ، وكان أكثر استفادتي من كتاب (حجة الله البالغة) ، لشيخ مشايخنا شيخ الإسلام احمد بن عبدالرحيم المعروف بولي الله الدهلوي^(٢) ، وهو كتاب فريد في موضوعه ، وقد جاءت خلاصة ما كتبه في الأركان الأربعة وروحها في هذا الكتاب .

فبدأت بالكتاب والسنة وما ورد عن هذه الأركان ، وعن روحها وحقيقتها ، ومقاصدها وآدابها ، في القرآن والحديث ، وأردفت ذلك بما جاء في كتب هؤلاء الأئمة في تفسيرها وتفصيلها ، وتوجيهها وتعليمها ، فجاء تفصيلاً للمجمل ، وتبسيطاً للموجز ، ولم ينعني الحياء والشعور بالنقص عن عرض ما فتح الله به عليّ - وهو الفتح العليم - من فهم بعض مقاصد هذه الأركان الجليلة ، والكشف عن بعض جوانبها ومطاويعها وصلتها بالحياة وفضتها لكثير من المعضلات والمشكلات ، ولم أتوقف من نقل بعض أقوال العلماء المعاصرين ، وذلك كله في أسلوب علمي أدبي عصري ، فجاء الكتاب بحول الله يجمع بين القديم والجديد ، ويمثّل المكتبة الاسلامية الزاخرة في هذا الموضوع ، ويعرضها عرضاً جديداً للجيل الاسلامي الجديد ، فقد كادت صلته تنقطع عن كتب المتقدمين وأساليبهم ، وخير ما دبّجته أقلامهم وفاضت به خواطرم ، فكان ذلك خطراً على الجيل الجديد ، وتفریطاً في حق السلف ، وإساءة إلى

(١) سورة العنكبوت: ٦٩ (٢) (١١١٤ - ١١٧٤ هـ) راجع لترجمته نزهة الخواطر للسيد

عبد الحي الحسيني (المجلد السادس) .

المكتبة الاسلامية التي لا تُدانيها مكتبة دينية في أمة من الأمم ، وقد توارثت هذه الأمة فهم معاني العبادات وحقيقتها ومقاصدها كما توارثت أوضاعها وأشكالها ، وأحكامها وآدابها ، وتوارثت العمل بها من غير انقطاع أو فترة ، أو جهالة أو غفلة ، حتى وصل إلينا هذا الدين ، متواتراً متصلاً ، في المعاني والأشكال ، والمقاصد والهيئات ، فليس لأحد في هذا العصر أن يبتكر لركن من هذه الأركان ، مفهوماً لم تعرفه هذه الأمة في عمرها الطويل ، أو يُلجِسه لباساً « مستورداً » من الخارج أو مستعاراً من أجنبي .

وبدائي ، بعد ذلك أن أدرس هذه العبادات - وهي العبادات التي تلتزمي عليها جميع الديانات التي كانت لها أيُّ صلة بالسماء في عهد من العهود - في الديانات الأخرى ، وهي التي لا يزال يدين بها خلق كثير وشعوب كبيرة في العالم المعاصر ، وأن أقارن بين أوضاع هذه العبادات ومناهجها وفلسفتها وأحكامها في الدين الاسلامي ، وبين أوضاعها ومناهجها وفلسفتها وأحكامها في الدين الاسلامي ، والشريعة الاسلامية ، وأن أعتمد في ذلك على مصادر هذه الديانات الأصلية الموثوق بها عند أهلها ، كما اعتمدت في الحديث عن أركان الاسلام الأربعة وعرضها وتفسيرها على القرآن والحديث غالباً ، وعلى كتب أئمة الاسلام نادراً ، وأن يكون استعراضي لما كتب في هذا الموضوع في الديانات الأخرى ، ودراستي له دراسة أمينة عميقة ، أحاول فيها بقدر الإمكان أن أهتدي في هذا البحث والدراسة إلى اللُّبَاب ، والقول الفصل في هذا الباب ، عند فقهاء هذه الديانات وزعمائها .

وقد كانت هذه المهمة عسيرةً دقيقةً ، إذ الوضع الديني والفقه في هذه الديانات يختلف عن الوضع الديني والفقه عند المسلمين ، اختلافاً كبيراً ، والباحث يواجه غموضاً واضطراباً عظيماً ، وفراغاً علمياً هائلاً ، لا عهد له به في كتب الشريعة والفقه ، وتاريخ التشريع الإسلامي . وقد استطعت بحول الله أن أخرج في هذا الكتاب بدراسة مقارنة تسدّ - إلى حدٍّ ما - فراغاً في هذا الموضوع .

وقد كانت الحاجة إلى الدراسة المقارنة شديدة ، لأن المسلم لا يستطيع أن يقدر نعمة الاسلام ، وما أكرمه الله به عن طريق هذا الدين الكامل الخالد الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » ، ولا أن يستوفي حق الشكر والحمد إلا إذا قارن بين هذه العبادات في الاسلام والعبادات في الأديان الأخرى ، فضلاً عن العقائد والمبادئ والأسس التي يقوم عليها صرح الاسلام العقائدي والكلامي ، وقد أثر عن أمير المؤمنين عمر أنه قال : « يوشك أن ينقض الاسلام عروة عروة من نشأ في الاسلام لا يعرف الجمالية » . والموضوع خاضع للتوسع والترقي ، وزيادة الاتقان ودقة البحث ، لما يتجدد من معلومات ، ويصدر بين حين وآخر من موسوعات علمية ومؤلفات دينية ، بقلم علماء هذه الديانات ، والمؤلف مستعد للإفادة منها في الطبقات الجديدة .

وكان بما حفز المؤلف على هذا التأليف - رغم أمراضه التي يعانيتها ، والاشغال والمسؤوليات التي ترهقه - ما كان يشعر به من مدة طويلة من اضطراب الآراء والكتابات في تفسير هذه الأركان ، ومقاصدها وغاياتها ، وفوائدها ومصالحها في هذا العصر ، وإخضاعها في جراءة كبيرة ، وتوسع وسخاء للفلسفات المصرية ، والمذاهب الاقتصادية والسياسية ، ومصطلحاتها وتمبيراتها المحدودة ، حتى كادت هذه الأركان في عقول من آمن بهذا التفسير وخضع لهذا العرض ، تفقد حقيقتها وقوتها ، وتضيع مقاصدها التي شرعت لأجلها ، وكاد معنى الايمان والاحتساب يضيع من بين هذه التعبيرات المادية والتفسيرات المصرية ، وكاد التفكير المادي يطنى على روح العبادة والاخلاص ، فكان ذلك - بحيث يشعر أصحاب هذه الفكرة أو لا يشعرون - خطراً كبيراً على الأمة ، وطليلة تحريف كبير في فهم المعاني الدينية والمقاصد الشرعية .

وحدث أن مجلة « المسلمون » الغراء دعت المؤلف إلى كتابة مقال

عن الحج بمناسبة موسمها ، واتفق ذلك ثلاث مرات ، فكان المؤلف يكتب مقالاً كل عام ، عن حقيقة الحج وروحه ومقاصده ، تنشره المجلة العزيزة وتذيعه الإذاعة السعودية في أكثر الأحيان ، ويقرأه الشباب المسلم بعناية زائدة ، وتقدير كبير ؛ ونظر المؤلف في هذه المقالات الثلاث ، ف شعر بأنه أسلوب جديد للكشف عن مقاصد الحج الشرعية الحقيقية ، ومحاولة متواضعة للانتصار لهذا الركن المظلوم ، الذي كان إخضاعه للاتجاهات الجديدة والمعاني السياسية أكثر من كل ركن ، حتى أصبح في نظر كثير من المثقفين مؤتمراً سياسياً عالمياً ، يُعقد كل عام ، وليست له إلاّ هذه القيمة السياسية الاجتماعية ، فرأى أن يوسع هذا المقال وينشره كرسالة مفردة ، تعرض الحج في إطاره الإسلامي الأصيل الواسع ، وتثير معانيه العميقة ومقاصده البعيدة ، وروحه القوية ، الإبراهيمية الحنيفة .

وكذلك وفق المؤلف لكتابة مقالين عن رسالة الصيام ، ومقاصده بمناسبة حلول رمضان ، واقتراح مجلة « المسلمون » ، فبدأ للمؤلف أن يكمل هذين المقالين ويضم إليهما ركن الصلاة والزكاة ، وهكذا تكونت فكرة الكتاب ، واستوت على مشاعر المؤلف وأعصابه ، فشغلته عن كل عمل تألّفي ، أو تحقيق علمي ، وبقي يعيش في هذه الفكرة أكثر من عام ، يدرس النصوص ويراجع المصادر ، ويُملي المقالات - لمعجزه عن الكتابة والمطالعة بنفسه - ويساعده بعض إخوانه وزملائه في كتابة هذه الأمالي ، وفي تخريج الأحاديث وفي النظر في المواد الأجنبية ، والبحث عن المواد ، أخصّ بالذكر والشكر منهم العزيز نثار الحق الندوي ، والاستاذ تقي الدين الندوي ، والمفتي محمد ظهور الندوي ، والأستاذ شاهد علي ، مدرس اللغة الإنكليزية في دار العلوم ، والعزيز علي آدم الإفريقي^(١) ، والأخوين نذر الحفيظ وغيث الدين الندويين

(١) ومحمد سعيد .

جزاهم الله جميعاً عن المؤلف والقراء ، فجاه هذا الكتاب حصيلة مطالعة ،
ونتيجة تأملات ، ورائد بحث أوسع وأعمق ، والحمد لله الذي بعزته وجلاله
تم الصالحات .

أبو الحسن علي عبد الحمي الحسيني الندوي

دائرة الشيخ علم الله الحسيني

رائي بريلي (الهند)

٢ - ٢ - ١٣٨٧ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد :
فإن مؤلف الكتاب يشعر بإتجاه وغبطة ، ويلهج لسانه وجميع جوارحه
بالثناء على الله ، والحمد على توفيقه ، وهو يقدم للطبعة الثالثة لهذا الكتاب ، الذي
يعتبره من أحب الأعمال وأعظم القربات في مجال الكتابة والتأليف ، ويردد
قول الشاعر من أعماق قلبه :

فلو أن لي في كل منبت شعرة لساناً ، لما استوفيتُ واجب حمده
وقد كانت العناية بموضوع هذا الكتاب ، والتنويه بشأنه في الأوساط
العلمية والدينية ، فوق ما كان يتوقعه المؤلف ، وأكثر مما كان يستحقه
التأليف ، وظهرت ترجمته بالتركية في مدة قليلة ، وترجمت بالأردنية
والانجليزية ، ونفدت الطبعة العربية الأولى في بضعة أشهر ، والتجأ الناشر لكثرة
الطلب ، وضغط الطالبين إلى إعادة طبعه بالتصوير ، فلم يتمكن المؤلف من
تصويب الأخطاء ، التي وقعت في الطبعة الأولى ، وكانت مع الأسف كثيرة ،
وصدرت الطبعة الثانية طبق الأصل في كل شيء ، وتأخرت مراجعة الكتاب ،
وتصحيح الأخطاء لكثرة أشغال المؤلف وأسفاره ، حتى وفقه الله لذلك أخيراً ،
فانصرف كلياً إلى قراءة هذا الكتاب وتصحيحه ، وتنقيحه ، وتهذيبه ، حتى
أتمه في مدة قليلة .

وكان المؤلف يشمر بفراغ ، أو بنقص في المواد فيما يتصل بالصدقات في الديانات الهندية القديمة ، وعند اليهود والمسيحيين ، فدرس هذا الموضوع من جديد ، وألحق فصولاً جديدة في هذا الموضوع ، هي غاية ما وصل إليه علمه ودراسته ، واحتوت عليه مصادر هذه الديانات ، الموثوق بها ، علاوة على زيادات يسيرة ، وإيضاحات قليلة يجدها القارئ في هذه الطبعة ، فجاءت الطبعة الثالثة بحول الله أكبر قيمة ، وأغنى مادة ، وأكثر ضبطاً ودقة ، من الطبعتين الأوليين.

وها نحن أولاء ، نقدم هذا الكتاب في طبعته المنقحة المزينة ، وفي ثوبه القشيب ، للشباب الإسلامي المثقف ، ومديري المدارس ، ومنظمي حلقات الدراسة والمطالعة ، ولقادة الحركات الإسلامية ، ورجال التربية ، عسى أن يكون حلقة مفقودة ، كان المرثون والموجهون بحاجة ملحة إليها في التثقيب الديني الصحيح . وتكوين المزاج الإسلامي النبوي ، والتمسك بلباب الدين وروحه ، وإثارة روح الإيمان والاحتساب في العاملين ، وتفذية العقل والقلب في وقت واحد ، في الدراسات الإسلامية ، وهي غاية ما أمّله المؤلف من تأليف هذا الكتاب ، وتشوق إليه ، والله من وراء هذا القصد .

أبو الحسن علي الحسيني الندوي

لست عشرة خلون من رجب سنة تسع وثمانين وثلاث مائة وألف

زاوية الشيخ علم الله الحسيني رحمه الله

رائي بريلي - الهند

الصلاة

الصَّلَاةُ

« وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين (١) »

الحاجة إلى فهم الصلة التي تقوم بين العبد والرب :

لا يفهم الصلاة ، ولا يفهم الحاجة إليها ولا يتذوقها ، إلا من عرف تلك الصلة الغريبة الفريدة ، التي تقوم بين العبد وبين الرب ، إنها صلة غريبة فريدة ، لا نظير لها ولا مثال ، إنها لا تقاس على صلة بين طرفين وبين اثنين في هذا الوجود ، إنها لا تقاس على صلة بين صانع ومصنوع ، وبين حاكم ومحكوم ، وبين قوي وضعيف ، وبين فقير وغني ، وبين مستجد مكنت ، وبين جواد منعم ، فحسب ، إنها صلة أدق من جميع هذه الصلات ، وأعمق وأقوى وأشمل .

الصِّلَاتُ تَابِعَةٌ لِلصِّفَاتِ ، نَابِعَةٌ مِنْهَا :

ولا يفهم هذه الصلة الغريبة الفريدة بين العبد والرب ، إلا من عرف صفة العبد والرب ، والصلة دائماً تابعة للصفة ، نابعة منها ، إنك لا تستطيع أن تحدد صلة بين طرفين ، وعلاقة بين اثنين ، إلا إذا عرفت صفة كل واحد منهما ،

(١) سورة الروم - ٣١ .

وعرفت التفاوت أو التفاضل بينها ، وعرفت مقدار احتياج أحدهما إلى الآخر ، وفضل أحدهما على الآخر ، وجميع الصلوات التي تمارسها في الحياة ، والتي تشكل القانون ، وتكوّن المدنية ، وتصوغ المجتمع خاضعة للصفات التي نعرفها أو نتوهمها للأفراد والكائنات ، أو أعضاء الأسرة أو ذوي السلطان .

الصفات والأسماء ، ومكانتها في الدين والقرآن :

لذلك لهجت الصحف السأوية ، والأديان والشرائع بالصفات قبل أن تحدّد الصلوات ، وتدعو إلى العبادات ، وتسنّ الفرائض وتحثّ على الطاعات . ولذلك سبقت العقيدة في جميع الأديان العمل والعبادة وأحكامها وشرائعها ، ودعا جميع الرسل في مختلف الأدوار والأمصار الى العلم الصحيح والمعرفة الصحيحة ، ووصف الله الوصف الصحيح ، ودعوا إلى التقديس والتنزيه قبل أن يدعوا إلى شيء آخر ، وشغل هذا الموضوع أكبر فراغ في أوقاتهم وأكبر قسط من جهودهم وأكبر مكان في صحفهم ودعواتهم ، وجاهدوا في ذلك الجهاد الأكبر .

والقرآن الذي جاء مهيمناً على هذه الكتب كلها ، وكان الكتاب الأخير الخالد أكبر شاهد على ذلك . فهو الموضوع المكرّر المنوع الذي احتلّ المكان الرئيسي في هذا الكتاب المعجز ، وسمّى ما تجلّى فيه هذا الموضوع بأكبر قوة ووضوح على وجازته وقصره « وهي سورة الإخلاص » . ثلث القرآن (١) وذكرت من صفات الله الكريمة وأسمائه الحسنی ، وأفعاله وتصرفاته العجيبة ، وقوته وقدرته ، وصنعه وإبداعه ، ولطفه ورحمته ، وحبّه ورأفته ، وجوده وكرمه ، وعفوه وصفحه ، وإعطائه ومنعه ، وضرره ونفعه ، وعلمه ومعرفته ، وقربه ودنوّه ، وإحاطته ومعيته ، وقبوله واستجابته ، ما يجعله

(١) جاء في حديث رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه : ألا إنها (يعني سورة الإخلاص) تمدل ثلث القرآن . « باب فضل قل هو الله أحد » .

المثل الأعلى في الجمال والجلال ، والكمال والنوال : « وله المثل الأعلى في السموات والأرض ... وهو العزيز الحكيم ^(١) » ويجعله متفرداً في صفات الحُسن والإحسان : « ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ^(٢) » .

الانسان ، المخلوق الغامض المتناقض :

وكذلك وردت نصوص وإشارات في هذه الكتب - وشهد العلم والتجربة بصحتها - بوصف هذا الإنسان المخلوق ، وبيان ما فطر عليه ، وتركت به طبيعته من أضداد ومتناقضات ، فليس هنالك مخلوق - على كثرة المخلوقات والموجودات - أدق وأعمق منه صنماً ، وأكثر منه غرابة وعموضاً ، وأعظم منه تناقضاً وتضارباً ؛ فهو ضعيف يحب القوة والغلبة ، فقير يحب الغنى والخير ، خاضع لناموس الموت والنفاء ، محب للخلود والبقاء ، متعرض للأمراض والأخطار ، ولوع بالصحة والسلامة ، هلوع جزوع ، ولوع طموح ، كثير الحاجات دقيق الرغبات ، عميق الهواجس والخواطر ، بعيد الآمال والنظرات ، لا تروى غلته ولا تشبع جوعته ، ملول طرف ^(٣) . سؤوم ضجر يكره القديم التليد ، ويطلب المزيد الجديد ، ويزهد في اليسور الموجود ، ويرغب في المعدوم المفقود ، حاجاته ومطامعه أكثر من أنفاس ، وأطول من حياته ، وأوسع من أن يسعها هذا العالم المحدود .

وفي هذا التناقض الغريب ، والصراع العنيف ، وفي هذا الطموح البعيد ، والحرص والنهامة ، والطلب والإستزادة ، سرّ شرفه وكرامته ، واصطفائه وخلافته ، وبه استطاع أن يتسلّم الأمانة التي اعتذرت عنها السموات والأرض والجبال « فابن أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان » ^(٤) وبه استحقّ

(٢) سورة الشورى - ١١ .

(١) سورة الروم - ٢٧ .

(٣) كثير الملل من القديم ، محب لكل جديد طريف .

(٤) سورة الأحزاب - ٧٢ .

الخلاقة في هذه الأرض ، ووصل إلى أسمى مكان تحسده عليه الملائكة المقربون .

مخلوق أليف حنون :

وكذلك عُجبت طبيئته بالحب والحنان ، ورزق - عدا الحواس الخمس التي يستخدمها ويتمتع بها في حياته المادية - حاسة سادسة هي حاسة الحب والحنان قد تضعف وقد تقوى ، وقد تكمن وقد تبرز ، ولا يجرمها بتاتاَ إلا من فقد الإستعداد وحاد عن الفطرة ودخل في الجماد ، فهو مخلوق أليف حنون ، قوي العاطفة رقيق الشعور ، يندفع إلى الجمال أو الكمال اندفاعاً لا يوجد عند غيره من المخلوقات ، من حيوانات وجمادات ، ويعطيها من نفسه ومشاعره ، وحبه وعاطفته وتقانيه ما لا يعطيه غيره ، تشهد بذلك أخبار العشاق والتميمين الذين لم يخلُ منهم عصر أو مجتمع وأخبار العارفين المحبين في أمم الأنبياء ، ويشهد بذلك الشعر الغزلي والأدب العاطفي الوجداني ، الذي تزخر به مكتبة الآداب العالمية .

خاضع خاشع بالفريزة :

وكذلك حمل ، مع الفرائز التي يحملها ، غريزة التواضع والخضوع ، والتطامن والخشوع ، وقد تجلّت هذه الغريزة في كل دور من أدوار حياته ، وفي كل طبقة من طبقاته ، فكان في دوره البدائي - ولا تزال له بقية في كثير من المجتمعات - يخضع أمام الأحجار وبعض الأشجار والأنهار ، وكان يعبد النار ، ويعبد الشمس أو القمر أو الكواكب ، ويخضع أمام مظاهر الطبيعة أو الظواهر الكونية ، ويخضع للسدنة والكتهان ، والأخبار والرهبان ، والجن والأرواح ، ولكل ما تعسّر فهمه ودقّ علمه ، ولا يزال رغم ثقافته الواسعة ، وعقليته المترقية ، ودعاويه الطويلة المريضة ، ورغم عتوه واستكباره ، وثوراته التي لا تكاد تنتهي ، يخضع للحكام والسلطين ، وزعماء الأحزاب ورؤساء الحكومات ، والنظم والفلسفات التي هي من وضعه ، أو وضع بني

جنسه ، ويخضع كذلك في دور نبوغه وتحضره للمبدعين والعبقريين ، والشعراء والأدباء والفنّانين ، وكثير من المفكرين والمشرّعين ، وكبار الاغنياء الموسرين وأصحاب الحول والطول ، والأمر والنهي خضوعاً فيه كثير من الوله والهيام ، وكثير من التقديس والتأليه ، فهو انسان ولوع حنون ، خاضع خاشع ، متطامن متواضع بالغريزة والفطرة ،

لا بد من مثل أعلى :

فلا بد له من مثل أعلى للجمال أو الكمال ، أو القوة والعزة ، أو الغرابة والغموض ، أو السيطرة والنفوذ ، ليشغل هذه الغريزة ومقتضياتها ، ويرضي مطالبها ويحقق غاياتها ،

الصلة العادلة المعقولة ، التي يجب أن تكون دائماً بين « الانسان » وبين « الله » :

تأمل في صفات الرب التي سبقت ، من قوة وقدرة ، وعلم وخبر ، ورحمة ولطف ، وكرم وجود ، واستجابة وقبول ، وقرب لا مزيد عليه ، وبكل ما نطق به القرآن من صفات الله العليا ، وأسمائه الحسنی ، وبكل ما جاء به في ذلك من المعجب المطرب ، من النعوت والأوصاف ، والأخبار والآثار .

ثم تأمل في صفات هذا الإنسان المخلوق ، واستعرض كل ما اتصف به ، من ضعف وعجز ، وفقير وفاقة ، ثم انظر الى طموحه الذي لم يُعرف لأي مخلوق ، ونهامته - للماديات أو المعنويات - التي تفوق كل شره ونهامة عند أكبر حيوان ، وإلى حاجاته التي لا يشاركه مخلوق آخر في كثرتها وتنوعها ودقتها ، وإلى آماله ومطامعه التي لا تكاد تنتهي ، ثم انظر إلى غريزة الحب والحنان ، والخضوع والإنحاء المودعة في هذا الإنسان .

أما احتاج هذا الإنسان إلى أن يكون في خضوع دائم ، وفي ركوع أو

سجود لا انقطاع لها ، وفي مناجاة ودعاء لا نهاية لها ، أمام الرب الذي هو الإله الحق والجواد المطلق ، والذي أعطاه من كل ما سأل بلسان القال أو بلسان الحال ؟ : « وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها (١) » والذي يعلم الخواطر الدقيقة الدفينة ، والأمانى المؤودة المنسية أو الأحلام القديمة المطمورة ، التي نسيها الإنسان أو تخلّى عنها أو يش من تحقيقها ، والتي قد يغار عليها القلب فلا يشرك فيها العقل « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه (٢) » « يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (٣) » « وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى (٤) » والذي هو أقرب من كل قريب ، والذي هو دائماً سميع مجيب « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون (٥) » « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد (٦) » « ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون (٧) » والذي كان السائل الملحف ، والداعي المتشبت ، أحب إليه من أبي ممتنع ، وصامت مستغن : « وقال ربّكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (٨) » « أدعوا ربّكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين (٩) » ويقول رسول الله ﷺ : « إنه من لم يسأل الله يغضب عليه (١٠) »

الكون في خضوع دائم وعبادة مستمرة :

لقد ظلت الشمس مشرقة وهاجة منذ كان هذا الكون ، تنشر النور وتمنع الحياة والحرارة ، وظل القمر سراجاً منيراً ينير السيل ويحدد الشهور والسنين ، وقد انتصبت الجبال قائمة من آلاف السنين تبتلع رسالتها ، ووقفت الأشجار

-
- (١) سورة ابراهيم - ٢٤ . (٢) سورة الانفال - ٢٤ . (٣) سورة المؤمن - ١٩ .
(٤) سورة طه - ٧ . (٥) سورة البقرة - ١٨٦ . (٦) سورة ق - ١٦ .
(٧) سورة الواقعة - ٨٥ . (٨) سورة المؤمن - ٦٠ . (٩) سورة الأعراف - ٥٥ .
(١٠) رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه « كتاب الأدعية باب ما جاء في فضل الدعاء »

على قدم وساق ، وافرقة الثمار وارفرة الظلال تعبد الرب وتخدم الإنسان - سيد هذا الكون وخليفة الله في أرضه - وانطلق الهواء يحمل رسالة الحياة لهذا الإنسان ، وهبت الرياح لواقع تحمل أمانة الماء من جهة إلى جهة ، وسارت السحب تحمل الأمطار وتحيي الأرض بعد موتها ، وجرت الأنهار تروي ظمأ الإنسان وتسقي الزروع ، وتثير دفائن الأرض ، ومشت الحيوانات والدواب على أربع كأنها في ركوع دائم تنقل الإنسان من مكان إلى مكان ، وتحمل الأثقال ، وله فيها دفء ومنافع ، ومطاعم ومشارب ، وزحفت كثير من الحيوانات على صدرها وبطنها فيها مآرب للإنسان ،

فهذه المخلوقات التي لا عقل لها ولا قلب ، في عبادة دائمة ، في طاعة وخضوع لأمر الله تعالى ، فلا عصيان ولا ثورة ، ولا تمرد ولا جموح ، ولا ملل ولا سامة ، ولا إضراب ولا ائذاع عن العمل ، ولا راحة ولا عطلة ، فكأنها دائماً في السجود : « ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ، ومن بين الله فما له من مكرم ، ان الله يفعل ما يشاء (١) » « والله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون ، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون (٢) » « والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال (٣) » « الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان (٤) » « الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار (٥) »

(١) سورة الحج - ١٨ . (٢) سورة النحل - ٤٩ - ٥٠ . (٣) سورة الرعد - ١٥ .
(٤) سورة الرحمن - ٦ . (٥) سورة ابراهيم - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ .

فهذه المخلوقات على اختلاف أنواعها وعلى تنوع عباداتها في صلاة ، تتفق مع طبيعتها ووظيفتها ، وفي حمد وتسييح لا يفقههما إلا من فتح الله بصيرته ورفع عنه الحجاب : « تسبِّح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبِّح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسييحهم ، إنه كان حليماً غفوراً (١) »
« ألم تر أن الله يسبِّح له من في السموات والأرض والطير صافات ، كل قد علم صلاته وتسييحه ، والله عليم بما يفعلون (٢) »

مركز الإنسان في هذا العالم وما يقتضيه ، وسبب تمثيئه عن سائر الكون في العبادة :

لقد كان الإنسان بشرفه واختصاصه ، وعقله وقلبه ، أحق من جميع هذه المخلوقات التي سبق ذكرها ، بأن يكون في عبادة دائمة لا انقطاع لها ، من قيام وركوع وسجود ، ومن حمد وتسييح وذكر لا يفتر عنه لسانه ، وقد كانت الهبات التي اختص بها ، والعناية الإلهية التي كان موضعها ، والنعم التي تدفقت عليه ونزلت كالطرر الغزير ، تقتضي أن لا ينقطع عن هذه العبادة ، ولا ينصرف عن هذه « الصلاة » طرفة عين ، وأن يكون كالملائكة الذين وصفهم الله بقوله : « وله من في السموات والأرض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون (٣) »

ولكنه اختير ليكون خليفة الله في أرضه ، وهتياً لهذا المنصب ، فخلقت فيه الشهوات ، ووضعت فيه الحاجات ، وأودعت فيه المشاعر والأحاسيس ، والعواطف والرغبات ، وأودع فيه الحب والحنان والرقّة ، والتألم والإلتذاذ ، ووضع فيه الإستعداد للمعرفة ، واستخدام ما خلقه الله في هذه الأرض وبثه من دفائن وخزائن ، ونعم وخيرات ، وقوى وطاقات ، وكان تعليم الأسماء الذي

(١) سورة بني اسرائيل - ٤٤ . (٢) سورة النور - ٤١ . (٣) سورة الانبياء ١٩-٢٠ .

خصّ به من دون الملائكة رمزاً لهذا الإستعداد الفطري ، ومظهراً من مظاهر الخلافة الأرضية ، ومفتاحاً من مفاتيح الإتصال بهذا الكوكب الذي مُنح إمارته والتصرف فيه ، فقال تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلمّا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ^(١) » وقال : « هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً ^(٢) » وقال : « قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ^(٣) »

فكان اختياره لهذا المنصب الخطير ، وكانت خلقته التي طبقت هذه الغاية وخضعت لها ، وكان قيامه بواجبه كخليفة في الأرض . كتبت له الوصاية على خيراتها وطاقاتها تأبى وتنافي أن يكون في قيام دائم ، أو في ركوع دائم ، أو في سجود دائم ، أو في تسبيح لا ينقطع ، وفي ذكر لا يفتر ، شأن الأجرام الفلكية ، أو الجبال الجامدة ، أو النباتات الساكنة ، أو الحيوانات المعجزة ، فإذا حاول ذلك أو التزمه ، أقام الدليل على إخفاقه وخيبته ، كخليفة الله في الارض ، وصّدق ما قالته الملائكة وبرّر ترشيحهم أنفسهم لهذا المنصب الجليل ، على أساس التسبيح والتحميد والعبادة الدائمة ،

عبادة مطابقة لوضعه الخاص ومركزه الدقيق :

إذاً كان لا بد من عبادة تليق بفطرته وبمنصبه ، ومركزه في هذا الوجود ،

(١) سورة البقرة - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣ . (٢) سورة البقرة - ٢٩ . (٣) سورة

الاعراف - ٣٢ .

والمهمة التي ألقيت على عاتقه ، والواجبات التي يجب أن ينوء بها ، فكان لابد من عبادة لأنها مقتضى الفطرة ، ونتيجة الغريزة ، ونداء الضمير ، وواجب الشرف ، وحاجة الإنسانية ، وغذاء القلب ، وكان لابد أن تكون هذه العبادة مطابقة كل المطابقة لوضعه الخاص ، ومركزه الدقيق ، وموقفه الفريد ، وأن يكون لباساً قد فصل على قامته ، وعلى قدر حاجته ،

لباس فصل على قامته :

فكانت الصلاة المفروضة هي اللباس المفصل على قامته من غير طول وفضول ، ومن غير قصر وضيق : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير (١) » « إنا كل شيء خلقناه بقدر (٢) » .

حكمة التشريع في تخفيف عدد الصلوات المفروضة ، وفوائده النفسية :

واختارت لذلك الحكمة الإلهية والتشريع الرباني طريقة حكيمة تجمع بين المثل الأعلى وبين التدرج واليسير ، ففرضت الصلاة خمسين صلاة في المعراج ، ثم أنزلها الله إلى خمس صلوات (٣) ليعلم المسلم أن الأصل المفروض كان خمسين صلاة ، وأن ربه تبارك وتعالى قد رآه أهلاً لذلك ، وجدير أبه ، فيشير ذلك فيه الثقة بنفسه والإعتزاز بكرامته فلا يستقل هذه الصلوات الخمس ولا يستعظمها ،

(١) سورة الملك - ١٤ . (٢) سورة القمر - ٤٩ .

(٣) جاء في حديث طويل عن الإسراء ، رواه البخاري في صحيحه : « وفرض علي خمسين صلاة ، في كل يوم وليلة ، فنزلت إلى موسى عليه السلام ، فقال : ما فرض ربك على أمتك ؟ قلت : خمسين صلاة ! قال ارجع إلى ربك ، فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا يطيقون ذلك فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم ، قال : فرجعت إلى ربي ، فقلت يا رب خفف على امتي ، فحط عني خمسا » إلى أن قال ، فلم أزل بين ربي وبين موسى عليه السلام ، حتى قال يا محمد ، انهن خمس صلوات كل يوم وليلة ، ولكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة »

الجامع الصحيح « كتاب الاسراء »

ويرى أنه قد كان كفوؤاً لأضعافها ، وأضعاف أضعافها ، فإنها لو بقيت فريضة محكمة لقام بها ، ولكن ربّه لطف به ، فجعلها خمس صلوات تساوي خمسين صلاة ، ولا يزال هذا الأصل الأول مصدر التشجيع ، وباعثاً من بواعث الطموح وعلو الهمة ، والتسامي في العبادة ،

نظيره في القرآن :

ونظيره في القرآن أن المسلمين كان يُطلب منهم في أول الأمر ، أن يقفوا في وجه عدوّهم ، وهو أكثر منهم عشر مرات ، ثم كان التيسير والمساحة ، فطلب منهم أن يقاوموه ، ويقفوا في وجهه ، وهو ضعفهم ، فقال الله تعالى : « يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » ، الآن خفف الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ^(١) ، وكان الحكم الأول - ولا يزال - مصدر القوة والشجاعة ، ومصدر الثبات والإستقامة ، ومصدر المغامرة التي هي من أقوى عوامل الإنتصار ، وباعثاً من بواعث الطموح وعلو الهمة ، والتسامي في الجهاد ، ولهذا الحكمة الدقيقة - والله أعلم بأسرار كتابه - بقيت الآية المنسوخة تتلى في الكنتات لتضمّ شجاعة إلى شجاعة ، وتزيد حماسة إلى حماسة ، وذلك هو المثل الأعلى للمؤمنين الصادقين والمجاهدين المستميتين ،

وجبات روحية ، وحقن صحية ، عَيْن

أعدادها ، وأوقاتها العليم الحكيم :

وهذه الصلوات الخمس تؤدّي في أوقاتها المعينة التي حدّدها الله فقال : « إن

(١) سورة الانفال - ٦٥ - ٦٦ .

الصلوة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً^(١) » وأشار إلى أوقاتها في القرآن^(٢) ولها ركعات معدودة تؤدى بها هذه الصلوات الخمس دائماً ، وقد داوم عليها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله واصحابه وسلم مدة حياته ، حتى في الحروب ، وتواترت أخبارها تواتراً لا يُعرف لأي عمل أو عبادة في ملّة من الملل ، وفي دور من أدوار التاريخ ، وتوارثتها الأمة جيلاً بعد جيل ، وطبقة بعد طبقة من غير فترة يوم واحد ، حتى في أدق ساعاتها وأعظم منحها وأزمانها ، وهذه الصلوات الخمس بأوقاتها وركعاتها ، وجبات روحية وحقن صحّية ، شرعها الخلاق العظيم ، المبدع الحكيم ، الذي ليس طيبب النفوس فحسب ، بل هو خالقها العليم وصانعها الحكيم كذلك ، فلا بد من الإيمان والخضوع لحكمتها وتشريعها ، ولا بد من التمسك بها ، والعرض عليها بالنواجذ ، والإتيان بها في أوقاتها ، التي لا يعلم أسرارها وما يظهر فيها من تجليات وإشراقات ، وما ينتثر فيها من بركات ورحمات ، وما يوجب فيها التعبّد لله والسجود له مخالفة لعباد الشمس والكواكب ، ولعباد الأحجار والنار^(٣) ، وقد خضعت الاجيال البشرية ، والعقول السليمة ، لتوجيهات أطباء البشر ووصاياهم وتحديداتهم ، وهم من بني جلدتهم ، وفي مستوَاهم البشري ، لتجارب محدودة ، أو تخمينات مظنونة وما ظنك بالرب الحكيم ؟ « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى^(٤) » « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير^(٥) » ؟

(١) سورة النساء - ١٠٣ . (٢) يقول الله تعالى في سورة الإسراء : « أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل ، وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً » استنبط بعض المفسرين من كلمة « الدلوك » ثلاثة أوقات هي « الظهر » و « الفجر » و « المغرب » ومن « غسق الليل » « العشاء » و « قرآن الفجر » « صلاة الصبح » انظر التفصيل في سيرة النبي « لأستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي » المجلد الخامس ، وراجع في « لسان العرب » كلمة « الدلوك » ويقول الله تعالى : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، ومن آتاه الليل فاسبح أطراف النهار املك ترضى » سورة طه « وراجع في تفسيره الكتاب المذكور ، (٣) انظر البحث النفيس في ذلك في كتاب « حجة الله البالغة » الجزء الأول لحكيم الاسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم « ولي الله الدهلوي » م ١١٧٦ هـ تحت عنوان « باب أسرار الأوقات ص ٧٧ - ٧٩ . (٤) سورة طه - ٥٠ . (٥) سورة الملك - ١٤ .

الحكمة في تكرار الصلوات وتعاقبها :

وفي تكرّر هذه الصلوات وتعاقبها في يوم وليلة حكمة بالغة ، وتغذية صالحة كاملة للنفس ، ووقاية لها عن الغفلة عن الله ، واستحواذ المادية على القلب والروح ، يقول شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي في حكمة تكرار الصلوات ، وتعاقبها في كل يوم وليلة :

« وسياسة الأمة لا تتم إلاّ بأن يؤمر بتعهد النفس بعد برهة من الزمان ، حتى يكون انتظاره للصلاة واستعداده لها من قبل أن يفعلها ، وبقيّة لونها وصباغة نورها بعد أن يفعلها في حكم الصلاة ، فيتحقق استيعاب أكثر الأوقات ان لم يكن استيعاب كلها ، وقد جربنا أن النائم على عزيمة قيام الليل لا يتغلغل في النوم البيهيمي ، وان المتوزع خاطره على ارتفاق دنيوي ، وعلى محافظة وقت صلاة أو ورد أن لا يفوته ، لا يتجرد للبهيمية ، وهذا سر قوله ﷺ من تعار^(١) من الليل ، (الحديث) وقوله تعالى : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله^(٢) » .

الصلاة ، ومكانتها في الاسلام :

وكان لا بد من الخضوع لحكمة التشريع والإيمان بأن الصلاة فريضة الله على عباده ، وأنها عماد الدين ، والفارق بين الكفار والمسلمين^(٣) وشرط النجاة

(١) إشارة الى حديث رواه البخاري وأبو داود والترمذي وغيرهم عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم : ولفظ البخاري « من تعار من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير الحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال اللهم اغفر لي أو دعا استجيب له فإن توضأ قبلت صلاته » (كتاب التهجد) قال الحافظ ابن حجر قال في المحكم : « تعار الظلم معارة ، صاح ، والتعار ايضاً السهر والتمطي والتقلب على الفراش ليلاً مع الكلام » . (وقال ابن التين : ظاهر الحديث أن معنى « تعار » استيقظ ، وانما ذلك لمن تعود الذكر واستأنس به ، حتى صار حديث نفسه من فومه ويقظته ، فأكرم من اتصف بذلك بإجابة دعوته وقبول صلاته) .

(٢) حجة الله البالغة ج ١ ص ٧٨ « باب أسرار الأوقات » .

(٣) وقد ورد في القرآن « وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين » (سورة الروم ٣١) وجاء في سورة براءة : « فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم » (سورة التوبة - ٥) وجاء : « فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين » (سورة التوبة - ١١) وقد روى مسلم في صحيحه عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة » وفي رواية : « بين الرجل والشرك ترك الصلاة » وللترمذي : « بين الكفر والايان ترك الصلاة » وعن بريدة رفعه : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها ←

وحارسة الإيمان ، وقد ذكرها الله تعالى من الأشراف الأساسية للهداية والتقوى ، فقال : « الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (١) » وقال : « قد أفلح من تكسى وذكر اسم ربه فصلى (٢) » وقد استثنى المحافظين على الصلوات من أصحاب الأخلاق الذميمة ، وقال : « إلاّ المصلين الذين هم على صلواتهم دائمون (٣) » وقال ، وهو يذكر المؤمنين المفلحين : « والذين هم على صلواتهم يحافظون (٤) » وقال وهو يحكي أهل النار : « ماسلككم في سقر قالوا : لم نك من المصلين (٥) » وقال عن المنافقين : « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلاّ قليلاً (٦) »

وهي فريضة دائمة مطلقة على عبد وحر ، وغني وفقير ، وصحيح ومريض ، ومقيم ومسافر ، لاتسقط عمن بلغ الحلم في حال من الاحوال ، بخلاف الصيام ، والزكاة ، والحج ، الأركان الثلاثة التي وجبت بشروط وصفات ، وفي أوقات معينة محدودة ، حتى أمر بها في ساحة الحرب ، وميدان القتال ، وشرعت صلاة الخوف ، فقال تعالى : « وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ، إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً ، وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن

→ فقد كفر « وروى ابن ماجه عن أبي الدرداء ، قال : «أوصاني خليلي أن لا تشرك بالله شيئاً ، وان قطعت وحرق ، ولا تترك صلاة مكتوبة متممداً ، فمن تركها متممداً فقد برئت منه الذمة ، ولا تشرب الخمر ، فانها مفتاح كل شر »

وروى مالك في الموطأ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : كتب الى عماله : ان ام اموركم غندي الصلاة ، من حفظها أو حافظ عليها ، حفظ دينه ، ومن ضيعها ، فهو لما سواها أضيع ،

(١) سورة البقرة - ١ - ٢ - ٣ . (٢) سورة الأهل - ١٤ - ١٥ . (٣) سورة المعارج - ٢٢ - ٢٣ .

(٤) سورة المؤمنون - ٩ . (٥) سورة المدثر - ٤٢ - ٤٣ (٦) سورة النساء - ١٤٢ .

أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلاً واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر ، أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذرکم ، إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ، فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياماً وعوداً وعلى جنوبكم ، فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً^(١) » وقال : « حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى ، وقوموا لله قانتين ، فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا ، فإذا أمنتُم فاذكروا الله كما علمتُم ما لم تكونوا تعلمون^(٢) »

دوام التكليف بالصلوة ، والخطر في تركها :

ولا تسقط هذه الفريضة عن نبي مرسل ، فضلاً عن صالح أو عارف ، أو مجاهد ، وقد قال الله تعالى : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين^(٣) » ومن رأى أنها تسقط عنه لفضل معرفته ووصوله إلى درجة اليقين و [المشاهدة] أو لحسن بلائه في الإسلام ، أو لسوابقه ومآثره الكثيرة ، فقد أتلف نفسه وعرضها للخطر الأكبر .

مثل تارك الصلاة لفضل يعتمد عليه :

وكان الذي يترك الصلاة « اعتماداً على شيء آخر » ، كمن عمد من ركاب سفينة الفضلاء الحكماء ، إلى لوحة في السفينة ، ورأى أنها من فضول الصناعة وعملية التكوين ، وأنه يُستغنى عنها فخرقها ، أو عمد إلى بعض المسامير الرئيسية ، فرأى فيها الإسراف والمبالغة ، وجرّه حُب الفضول والدخول فيما

(١) سورة النساء - ١٠١ - ١٠٢ - ١٠٣ . (٢) سورة البقرة - ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٣) (سورة الحجر - ٩٩ .) أجمع العلماء المفسرون الذين يعتمدون على تفسيره بالوث ، ومسألة عدم سقوط التكليف عن العاقل البالغ مسألة معروفة في علم العقائد والكلام ،

لايعني ، فقلعها ، فجرّ على السفينة وعلى نفسه الشقاء ، وكان سبباً للكارثة العظيمة (١) ،

سر المحافظة على الصلوات ، وعقوبة من أنكر ذلك أو ثار عليه :

وفي الصلاة سر لسلامة الإيمان ، وسلامة الدين ، والإتصال بالله تعالى (١) والبقاء في حظيرة الإسلام ، والإنخراط في سلك المؤمنين ، لا يعلمه إلا الله تعالى ، وقد ضرب بعض العارفين لذلك مثلاً عظيماً ، فقال :

« كانت لأحد الأغنياء الحكماء حديقة غنّاء ، ولمّا حضرته الوفاة ، دعا ابنه وقال له : أوصيك بالمحافظة على هذه الحديقة ، وعلى ما فيها من أشجار وأزهار ، ونباتات وحشائش ، فلا تقص منها شيئاً استغناءً عنه أو زهداً فيه ، فإنها كلها تقوم على حِكْمٍ غامضة ، وفوائد مستورة ، ولمّا مات الرجل وآل الأمر إلى ولده ، رأى أن نباتاً قد ذوي وأصبح حشيشاً لا رائحة ولا غناء فيه ، ورأى أنه يشغل مكاناً من غير جدوى ، ويسبىء إلى الحديقة وجماها ومنظرها ، فاقتلع الجرثومة ، فما لبث أن دخلتها حية سوداء ، فلمست سيدها فمات من ساعته » وعلم الناس أن الجرثومة كانت وقاية عن الحيات أو لأفاعي والحشرات السامة ، فلا تدخل حديقة فيها هذه الجرثومة (٢) ،

كذلك من ترك الصلاة ، واستغنى عنها ، اعتماداً على وصوله إلى الغايات ، والنتائج التي يعتقد أن الصلاة شرعت لها ، وكانت قنطرة إليها ، أو اعتماداً على مأثرة من مأثره في خدمة الإسلام والمسلمين ، وكثرة عبادته في الماضي ، أو طول جهاده

(١) المثل مأخوذ من بعض رسائل العلامة المحقق العارف بالله الشيخ شرف الدين يحيى المنبري

الهندي ، (٧٨٦ م)

(٢) المثل مأخوذ من بعض رسائل العلامة المحقق العارف بالله الشيخ شرف الدين يحيى

المنبري .

وحسن بلائه ، أو شدة اشتغاله بعمل مثمر ، يعود على الإسلام والمسلمين ، بالفائدة والخير الكثير (١) ، فقد عرض نفسه للهلاك ، وأعماله للحبط ، وإيمانه للضياع ، وكان كالشاة المفارقة للقطيع والراعي ، التي يختطفها الذئب ويفترسها .

الصلاة للمؤمن العارف ، كالماء للمسك :

وكانت الصلاة استجابة لغريزة البشر النوعية ، غريزة الإفتقار والضعف والطلب ، وغريزة الإلتجاء والإعتصام ، والدعاء والمناجاة ، والإطراح على عتبة القوي الغني ، الجواد الكريم ، الرؤوف الرحيم ، الحافظ المانع ، المعطي الباذل ، العليم الخبير ، السميع المحيب ، واستجابة لغريزة الشكر والوفاء ، وغريزة الحب والحنان ، وغريزة الخضوع والتواضع ، والعبودية والتذلل ، فهو في ذلك كالمسك لا يعيش إلا في الماء ، وإذا أخرج من الماء لم يزل في حاجة إلى الماء ، وفي حنين وفي فرار والتجاء إليه ، وذلك معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « وجعل قرة عيني في الصلاة (٢) » وقوله لمؤذنه بلال : « يا بلال أقم الصلاة ، أرحنا بها (٣) »

معقل المسلم ومفرجه :

وكانت الصلاة أقرب إلى المؤمن وأكثر إيواءً ، وأسرع نجدة وإسعافاً ، وأسخى وأخنى وأعطف عليه من حجر الأم الرؤوم الحنون ، على الطفل الشريد ، اليتيم الضائع ، الضعيف العاجز ، كلما عوكس أو هدد ، وكلما أصابه الروح

(١) شأن كثير من الزعماء السياسيين . ورجال الحكم ، والعاملين في حقل الاجتماع والسياسة والتعليم والتربية في كثير من البلاد الاسلامية ، فانهم يستهينون بأمر الصلاة ، ويعتذرون بأنهم في شغل شاغل في خدمة الأمة أو الوطن ، وفي جهاد متصل لا يترك لهم وقتاً لأداء الصلوات المكررة ، المتكررة في اليوم والليلة .

(٢) رواه النسائي . (٣) رواه أبو داود عن رجل من خزاعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم « كتاب الأدب ، باب في صلاة العتمة » .

أو الفزع ، أو مَسَّهُ الجوع أو العطش ، أوى إلى أمه فرمى نفسه في أحضانها ، أو تشبث بأذيالها ، كذلك الصلاة معقل المسلم وملجؤه ، الذي يأوى إليه ، والعروة الوثقى التي يعتصم بها والحبل الممدود - بينه وبين ربّه - الذي يتعلق به ، وهو غذاء الروح وبلسم الجروح ودواء النفوس ، وإغاثة المهوف ، وأمان الحائف ، وقوة الضعيف ، وسلاح الأعزل ، ولذلك يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ^(١) » ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، فعن حذيفة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى ^(٢) ، وروى أبو الدرداء : كان النبي ﷺ إذا كان ليلة ربيع شديدة ، كان مفزعه إلى المسجد حتى تسكن الريح ، إذا حدث في السماء حدث من خسوف شمس أو قمر كان مفزعه إلى الصلاة حتى ينجلي ^(٣) ،

وكان هذا شأن الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، فقد أخرج أبو داود عن النضر قال : « كانت ظلمة على عهد أنس فأتيته ، فقلت يا أبا حمزة ، هل كان هذا يصيبكم على عهد رسول الله ﷺ ؟ فقال معاذ الله ! إن كانت الريح لتشتت فنبادر إلى المسجد مخافة القيامة » ،

وكان حينئذ إلى الصلاة ، وإيثارهم لها على كل ما حُتِب إلى النفس البشرية ، ومخاطرتهم بأنفسهم وحياتهم في سبيلها معروفة عند المشركين ، وقد روى مسلم عن جابر قال : غزونا مع رسول الله ﷺ قوماً من جهينة ، فقاتلوا قتالاً شديداً [إلى أن قال] وقالوا إنه ستأتيهم صلاة هي أحب إليهم من الأولاد .

كل من الجسم ، والمقل ، والقلب يمثل في الصلاة :

(١) سورة البقرة - ١٥٣ - (٢) رواه أبو داود (٣) رواه الطبراني في الكبير وفيه زياد بن صخر .

وذلك ، لأن الصلاة ليست حركات رياضية ، ونظاماً رتيباً خشيباً جامداً ، لاروح فيه ولا حياة ، ولا نظاماً عسكرياً ، لا إرادة فيه ولا خيار ، إنما هو عمل يشترك فيه الجسم ، والعقل والقلب ، ولكل منها نصيب غير منقوص ، وكلٌ فيها ممثّل تميلاً حكيماً عادلاً ، فللجسم قيام ، وركوع ، وسجود ، وانتصاب والمخناء ، وللسان تلاوة وتسبيح ، وللعقل تفكير وتدبّر ، وتفهم ووقفه ، وللقلب خشوع ورقة والتذاذ ، وقد أعطى الله تعالى في كتابه المحكم كلاً نصيبه فقال : « وقوموا لله قانتين ^(٢) » وقال : « يا أيها الذين آمنوا اركعوا وأسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ^(٣) » وكل ذلك من أعمال الجسد وقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ^(٤) » فنصّ على ان الصلاة لا بد أن تكون عن تعقّل وشعور ، وذلك من أعمال العقل ، وقال : « قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون ^(٥) » والخشوع من أعمال القلب ، وقال : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ^(٥) » والخوف والطمع من أعمال القلب .

الاقتصار على تمثيل واحد من الثلاثة جهل وضلال :

ذلك لأن الإنسان جسم وعقل وقلب ، فجاءت الصلاة المشروعة في الإسلام أكمل صلاة ، مثلت فيها الطبيعة البشرية بنواحيها الرئيسية وشعبها المميزة ، وقد ضلّ من المشرّعين والمتعبدين من اقتصر على الحركات الرياضية ، كما كان عند اليهود في الدور الأخير ، وضلّ من اقتصر على التدبّر والتفكير ، والمراقبة والتأمل ، كما فعل بعض الصوفية المنحرفين ، وكثير من الحكماء المتفلسفين ، وضلّ كذلك من اقتصر على الخشوع والرقّة ، والبكاء والدعاء ، أو السكر بالحبّة والحنين ، كما فعل بعض المتألهين ، أو الرهبان المتعبدين ، من جهة

(١) سورة البقرة - ٢٣٨ . (٢) سورة الحج - ٧٧ . (٣) سورة النساء - ٤٣ .
(٤) سورة المؤمنون - ١ - ٢ . (٥) سورة السجدة - ١٦ .

النصارى ، أو أدعياء المسلمين ،

وضع الصلاة الدقيق الحكيم ،
ونظامها التربوي المعجز :

وقد هيأت الحكمة الإلهية ، والتشريع الرباني « الصلاة » تهيئة دقيقة عميقة ، هي من المعجزات التشريعية ، لتحقق غاية العبودية ، والإخلاص لله تعالى ، وغاية الخضوع والتذلل ، والإستغناء والإبتهاال ، وإحياء الصلة بالله تعالى ، وتجديدها ، والإنقطاع عمّا سوى الله ، وإعلان الثورة على كل من نازع الله في ألوهيته ، أو ربوبيته ، أو عظمته وكبريائه ، أو حكمه وطاعته المطلقة ، ومن دعا إلى نفسه - بلسان المقال أو بلسان الحال - بالإخبات والخضوع ، أو بالعبادة والخشوع ، ومن زعم - ولو بلسان الحال - أنه يأمر وينهى ، ويُرجى ويخشى ، ولتنشئ في النفس قوة روحية ، وإيماناً عميقاً جديداً ، ونوراً يفيض به القلب ، يستطيع أن يقاوم به أقوى الفتن والمغريات ، وأقسى الحوادث والكوارث ، ويتغلب به على شرور النفس ومكايدها ، ومواضع ضعفها وسقطتها .

استقبال القبلة في الصلاة ،
حكيمته وتأثيره :

أمر المصلي باستقبال الكعبة في الصلاة ، وهو البيت العتيق الذي بُني لله وحده ، واختصّ بالعبادة لله حين كانت البيوت ، والمعابد ، والهياكل على ظهر الأرض لغيره ، تعبد فيها الأصنام والحجارة ، والأجرام الفلكية ، والآلهة الخيالية ^(١) ، فكان هو البيت الأول الوحيد ، الذي انفرد بعبادة الله ، والدعوة إليه ، وكان رمزاً أبدياً ، وشعاراً عالمياً للتوحيد ، « إن أول بيت وضع

(١) كإله « الحب » وإله « الجمال » وإله « الحرب » وغيرها من الآلهة والإلهات عند اليونان ، والهنود ، والآشوريين ، وقدماء المصريين .

للناس الذي ببكة مباركا وهدى للعالمين^(١) . بناه أبو الأنبياء ، وإمام التوحيد ، ومؤسس هذه الملة الأول ، إبراهيم الخليل ، وابنه الجليل اسماعيل ، « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم^(٢) » وكان أساسه على نقيض ما كان عليه الناس يومئذٍ من عبادة غير الله ، وإطاعة الطاغوت ، وإعلان الحرب على كل ذلك ، « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ، رب إتهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبغني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم^(٣) » ، فكان اختصاصه بالتوجه إليه ، واستقباله في أعظم العبادات وأعمتها ، إعلاءاً لشعار التوحيد ، وإعلاناً بموافقة إبراهيم في عقيدته ودعوته ، وشارته وقبلته ، والإنتاء إليه ، « ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماءكم المسلمين^(٤) » . يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي :

« لما كانت الكعبة من شعائر الله ، وجب تعظيمها ، وكان من أعظم التعظيم أن تستقبل في أحسن حالاتهم ، وكان الإستقبال إلى جهة خاصة هنالك بعض شعائر الله منبهاً للمصلي على صفات الإخبات والخضوع ، مذكراً له حياة قيام العبيد بين أيدي سادتهم ، جعل استقبال القبلة شرطاً في الصلاة^(٥) » .

وقد انتج هذا التشريع الحكيم وحدة الإتجاه العالمية التي ليس لها نظير ، والتي لها الأثر الكبير العميق في وحدة الملة ، وفي وحدة القلوب ، وفي وحدة التفكير ، والأثر الكبير العميق في اجتماع الخواطر ، وتركز الهمة ، وانصراف

(١) سورة آل عمران - ٩٦ .

(٢) سورة البقرة - ١٢٧ - ١٢٨ .

(٣) سورة إبراهيم - ٣٥ - ٣٦ .

(٤) سورة الحج - ٧٨ .

(٥) حجة الله البالغة ج ١ - ص ٣٦ .

التوجه إلى جهة واحدة ، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم السهوي ، « وكان التوجه في الصلاة إلى ما هو مختص بالله بطلب رضى الله بالتقرب منه ، أجمع للخاطر ، وأحسّ على صفة الخشوع ، وأقرب لحضور القلب ، لأنه يشبه مواجهة الملك في مناجاته (١) » ويقول : « إن توجيه القلب لما كان خفياً نصب توجيه الوجه إلى الكعبة التي هي من شعائر الله ، مقامه كالوضوء وستر العورة ، وهجر الرجز ، فإنه لما كان التعظيم أمراً خفياً ، نصبت الهيئات التي يؤاخذ الإنسان بها نفسه عند الملوك وأشباههم ، ويعتدونها تعظيماً (٢) . »

جدال كلمة التكبير ، ومعانيها وآفاقها :

وشرع افتتاح الصلاة بالتكبير ، وبالكلمة المأثورة المتواترة المشروعة ، لإفتتاحها ، وهي قول « الله أكبر » ، الكلمة البليغة الواضحة ، المفهومة في كل زمان ومكان ، ولكل مجتمع وبيئة وفرد ، القوية المدوية المجلجلة ، التي يخشع أمامها الجبارة ، ويهوي لها كل صنم ، ويضطرب بها كل طاغية وطاغوت ، - لو قالها المصلي بفهم ووعي ، وإيمان وعقيدة ، ولو فهمها الأعداء والمتزعمون ، والمتسلطون على حقيقتها - ، إن القدر المشترك بين الأصنام التي تُعبد ، والأشخاص التي تؤلّه ، والأشياء التي تقدّس ، والقوى التي يخضع لها ، والرؤساء والزعماء الذين يطاعون طاعة عمياء مطلقة ، هو العظمة والكبرياء ، والتفوق والترفع ، والإستعلاء والإستيلاء ، فجاءت هذه الكلمة الموجزة المعجزة التي أمر بها في قوله : « وربك فكبر (٣) » ؛ تنفي هذه الدعاوى والدعوات ، والمزاعم والإعلانات ، والأوهام والخرافات ، والمظاهر والسخافات ، ويثور بها المصلي ثورة حاسمة عارمة ، شاملة كاملة ، فهو بذلك « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها (٤) » . ولا وكرأ من أوكار الفساد ،

(١) حجة الله البالغة - الجزء الثاني ص ٢ .

(٢) حجة الله البالغة - ج ١ - ص ٧٣ .

(٣) سورة المدثر - ٣ .

(٤) سورة الكهف - ٤٩ .

ولا خلية من خلايا الطغيان ، إلا أتى عليها ، إنها أبلغ كلمة تفتتح بها صلاة المسلم الموحد .

طبيعة هذه الشهادة والعقيدة ،
وأمثلة رائعة لها من التاريخ :

وإذا آمن الإنسان بهذه الكلمة ، التي يفتتح بها صلاته ، فيعتقد ويشهد بعظمة الله وكبريائه ، ويقول بلسان صدق وجدّ : « الله أكبر » وهيمنت عليه هذه العقيدة والشهادة ، وتغلغلت في أحشائه ، تضاءلت أمامه كل عظمة وكبرياء ، يتظاهر بها الملوك والرؤساء ، أو العظماء الكبراء - كما يسميهم الناس - ، وزالت مهابتهم من القلب ، حتى تراءوا له حيوانات حقيرة ، أو صوراً ودمى هزيلة ، واستخفوا بظواهر دولتهم وسطوتهم إستخفاف العماليق بسخافات الأقرام ، واستخفاف الشيوخ الكبار ، بمهازل الأطفال الصغار .

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم خير مثال لذلك ، وقد روى المؤرخون الشيء الكثير مما يدل على استخفافهم بظواهر القوة والعظمة ، ومشاهد الزينة والزخرفة ، منها ما رواه المؤرخ ابن كثير عن ربعي بن عامر ، قال : « أرسل سعد قبل القادسية ربعي بن عامر رسولا إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم ، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنارق المذهبة ، والزرابي الحرير ، وأظهر اليواقيت والآليء الثمينة ، والزينة العظيمة ، وعليه تاجه ، وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل ربعي بثياب صفيقة ، وسيف وترس ، وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه ، وبيضة على رأسه ، فقالوا له : ضع سلاحك ، فقال : إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتوني ، فإن تركتموني هكذا ، وإلا رجعت ، فقال رستم : « إئذنا له ، فأقبل يتوكتأ على رمح فوق النارق ، فخرق عامتها (١) » .

(١) البداية والنهاية ، ج ٧ - ص ٩٠ .

ولم تزل هذه العقيدة العميقة تصنع العجائب في جميع أحوال التاريخ الإسلامي ، وتشقى في أصحابها القوة الخارقة للعادة ، فيواجهون الملوك والأمراء بما لا يواجه به كثير من الناس الفقراء والضعفاء ، وتتبخّر أمامهم أبهة الملك وحشمة الملوك ، فكأنها لا شيء ، ومن روائع قصص هذا الإيمان العميق ، والشجاعة الخلقية ، ما رواه الباجي أحد أصحاب شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ^(١) ، يقول : « طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان ^(٢) في يوم عيد إلى القلعة ، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه وجلس المملكة ، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة ، وقد خرج على قومه في زينته على عادة سلاطين الديار المصرية ، وأخذت الأمراء تقبّل الأرض بين يدي السلطان ، فالتفت الشيخ إلى السلطان ، وناداه بأيوب ! ما حجتك عند الله إذا قال لك ، ألم أبوئىء لك ملك مصر ، ثم تُبيح الخمر ؟ فقال : هل جرى هذا ؟ فقال ، نعم ! الخانة الفلانية يباع فيها الخمر وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة ، يناديه كذلك بأعلى صوته ، والمساكر واقفون ، فقال ، يا سيدي ! هذا أنا ما عملته ، هذا من زمان أبي ، فقال ! أنت من الذين يقولون : إنا وجدنا آباءنا على أمة ! فرسم السلطان بإبطال تلك الخانة ، وسألت الشيخ لما جاء من عند السلطان ، وقد شاع هذا الخبر : يا سيدي ! كيف الحال ؟ فقال ، يا بني ، رأيت في تلك العظمة ، فأردت أن أهينه ، لثلاث تكبر عليه نفسه فتؤذيه ، فقلت ، يا سيدي ! أما خفته ؟ فقال ! والله يا بني استحضرت هيبة الله ، فصار السلطان قدّامي كالقط ^(٣) .

ولم يزل تاريخ الدعوة والعزيمة ، وتاريخ الإيمان والعقيدة ، يعيد نفسه في كل عصر ومصر ، فقد روى المؤلف الهندي « الشيخ محمد بن مبارك

(١) « توفي سنة ٦٦٠ هـ » .

(٢) هو الملك الصالح نجم الدين ايوب ، توفي ٦٤٧ هـ .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ج ٥ - ص ٨٢ .

الكرماني» (١) قصة مماثلة ، يقول :

« طلب السلطان محمد تغلق (٢) الشيخ قطب الدين المنور (٣) إلى دهلي ، يعاتبه أو يعاقبه ، على عدم حضوره لتحية الملك ، وقد مرّ بجواره ، فلما حضر « البلاط » ودخل الديوان ، رأى الأمراء والوزراء والحكام ، ورجال البلاط واقفين سباطين ، متخشعين مسلحين ، في هيئة تنخلع منها القلوب ، وكان معه ولده نهر الدين ، وكان حديث السنّ لم يزر « بلاط » الملك في حياته ، ففرغ لهذا المنظر الغريب ، وامتلاً رعباً ، فناداه الشيخ قطب الدين بصوت عال قائلاً : يا ولدي ، العظمة لله ! يقول نور الدين : اني استشعرت في نفسي قوة غريبة بعد هذا النداء ، وزالت الهيبة من نفسي وذابت ، وبدا الجميع عندي ، كأنهم قطيع من ضأن أو معز (٤) .

أذكار الافتتاح وأدعيته :

ثم تأمل في جميع الأذكار والأدعية ، التي كان رسول الله ﷺ يفتح بها صلاته ، كلها إخلاص وتوحيد ، وتقديس وتمجيد ، أو إخبار وإنابة ، وتلثف واستغاثة ، وحسبك أن تنظر فيما ثبت في الأحاديث الصحيحة من قوله ﷺ : « سبحانك اللهم ومحمدك وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ولا إله غيرك (٥) » أو قوله :

(١) (توفي سنة ٨٧٧٠ هـ) .

(٢) الملك الجبار الذي اشتهر في تاريخ الهند بسطوته ، وعسفه ، وسفك الدماء (توفي

٧٥٢ هـ) .

(٣) من شيوخ الهند الكبار (توفي ٧٥٧ هـ) .

(٤) سير الاولياء ، من ٣٥٣ الى ٣٥٥ .

(٥) رواه اهل السنن عن ابي سعيد الخدري ، وروي عن عائشة أم المؤمنين ، وصح عن عمر بن الخطاب انه كان يستفتح به في مقام النبي صلى الله عليه وسلم ويجهر به ويمله الناس ، قال العلامة ابن القيم : وغيره من الاستفتاحات عامتها انما هي في قيام الليل في النافلة ، وهذا كان عمر يفعله ويمله الناس في الغرض ، (زاد المعاد - ج ١ ص ٥٣) .

« اللهم باعد بيني وبين خطاياي ، كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد » أو قوله : « الله أكبر كبيراً ، الحمد لله كثيراً ؛ سبحان الله بكرة وأصيلاً ، اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفسه (١) » .

ثم يتعوذ من الشيطان الرجيم ، ويسمى إهتماماً بهذه الصلاة التي يدخل فيها ، وحرصاً على أن لا يكون للشيطان نصيب فيها ، وإجلالاً وتعظيماً للقرآن الذي يقرأه ، وعملاً بقوله تعالى : « وإذا قرأت القرآن فاستمع بالله من الشيطان الرجيم » .

سورة الفاتحة ، جمالها وجامعيتها ، وتأثيرها في الحياة :

ثم تأمل في سورة الفاتحة ، التي هي الدرة الفريدة في المعجزات السماوية ، وقطعة رائعة من القطع القرآنية البيانية ، لو اجتمع أذكاء العالم وأدباء الأمم ، وعلماء النفس وقادة الإصلاح ، وزعماء الروحانية ، على أن يضعوا صيغة يتفق عليها أفراد البشر على اختلاف طبقاتهم ، وعلى تنوع حاجاتهم ، وعلى تشتت خواطرم ، يتقدمون بها أمام ربهم ، ويتعبّدون بها في صلواتهم ، تعبّر عن ضمائرهم ومشاعرهم ، وتفي بمحاجاتهم وأغراضهم ، ولما جاؤوا بأحسن منها أو مثلاً « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً (٢) » . وقد قال الله تعالى : « ولقد آتيناك سبعاً من

(١) وقرأ الأذكار والصيغ الأخرى في كتاب (زاد المعاد للعلامة الحافظ ابن قيم الجوزية وغيره من كتب السنة) .

(٢) سورة بني إسرائيل - ٨٨ .

المثاني والقرآن العظيم « (١) .

وقد افتتحت بالحمد ، وهي الكلمة الجامعة بين الشكر والثناء ، ومن الكلمات البليغة المعجزة ، التي لا تمكن ترجمتها في لسان آخر ، والحمد خير ما يبتدأ به عبد عرف نعم الله التي لا تحصى ، وعرف قدره ، وهو خير ما يُفتاح به في هذا الموقف الشريف ، وفي هذا المقام المحمود .

ثم يقرّر المصلي أن الربّ الذي يحمده ، ويقوم ليستعين به ويعبده ، هو ليس ربّ قبيلة أو شعب ، أو أسرة أو فصيلة ، أو بلد ووطن ، إنما هو رب العالمين ، العقيدة الغريبة الثائرة ، التي تثور على جميع التقسيمات المصطنعة المزوّرة ، التي جنت على الإنسانية أكبر جناية ، وهكذا يُعلن المسلم وحدتين ، وهما الدعامتان اللتان يقوم عليهما الأمن والسلام ، وعليهما قام الإسلام ، في كل زمان ومكان ، وهما وحدة الربوبية ، والوحدة البشرية ووحدة نسل بني آدم من غير فرق بين بلد ووطن ، أولون ودم ، فالإنسان أخو الإنسان من جهتين ، والإنسان أخو الإنسان مرتين ، مرة « وهي الأساس » ، لأن الرب واحد ، ومرة ثانية ، لأن الأب واحد ، « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منها رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً (٢) » « يا أيها الناس إنّنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنّ الله عليم خبير (٣) » . وفي شرحه وتطبيقه ، يقول رسول الله ﷺ في حجة الوداع :

« إن الله قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقى ، أو فاجر شقي ، الناس بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى » (٤) .

(١) سورة الحجر - ٨٧ .

(٢) سورة النساء - ١ .

(٣) سورة الحجرات - ١٣ .

(٤) رواه الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم يذكر المصلي من صفات الرب الكريمة ، الكثيرة ، التي عرفها وآمن بها ، صفة الرحمة التي هي من أليق الصفات ، - وكلها لائقة كريمة - بهذا الموقف الذي يقفه المسلم عابداً خاشعاً ، داعياً مبتهلاً ، محتاجاً فقيراً ، تائباً آيباً ، والمقام مقام الرجاء لا اليأس ، ومقام التفاؤل لا التشاؤم ، ثم يذكر ويتذكر يوم الدين يوم الجزاء ، والعقاب ، الذي يتجلى فيه ملك الله وملكوته ، في أروع مظهر ، لا ينازعه فيه ملك زائف ، أو حكم عارض ، ولئن الملك اليوم لله الواحد القهار (١) . فيجدد في نفسه الإيمان بالآخرة ، وإستحضارها الذي هو مصدر الخوف والمراقبة ، ومصدر الرقابة على النفس والضمير ، وما أحوج المسلم ، وهو الذي يستقبل الحياة المليئة بالإغراءات ، ويخوض فيها إلى هذا الإستحضار !

ثم يُعلن في كل تأكيد عرفته لغة العرب التي نزل فيها القرآن ، واختيرت لتكون لغة الصلاة العالمية - الرسمية - وفي أبلغ أسلوب من الأساليب البيانية العربية ، أنه لا يعبد إلا الله ، ولا يستعين إلا به (٢) ، وما الحياة إلا عبادة واستعانة ، وبها يتصل الإنسان بالإنسان ، والضعيف بالقوي ، والفقير بالغني ، والمحكوم بالحاكم ، والعابد بالمعبود ، فإذا جردنا ، وأفردنا الله تعالى ، فكنت السلاسل والأغلال وحطمت الأوثان والأصنام ، وبطل الشرك وزالت الفتنة ، وكان الدين كله لله ، أعظم إعلان يعلنه مسلم ، وأكبر تعهد يتعمده ، فلينظر ما يقول ؟ وليكن على نفسه حسيباً رقيباً . فكل ما يواجهه في الحياة خارج الصلاة . إما يدعو لخضوع واستكانة ، وإما يدعو لسؤال واستعانة ، وقد كفر بها جميعاً ، وثار على كل من تزعمها ، أو تظاهر بها .

ثم يدعو للهداية للصرائط المستقيم ، التي هي أعظم حاجاته ، وأعز مطالبه ، وهي التي بُعثت لها الأنبياء ، وأنزلت لها الصحف ، وقامت عليها سوق الجنة ، هي التي لا قيمة لشيء إذا فقدت ، ولا نقص في الحياة والسعادة

(١) سورة المؤمن - ١٦ .

(٢) انظر فائدة التقديم لضمير المنصوب المنفصل وما يفيد من الحصر والتأكيد . وما فيه من النكات التحوية والبلاغية في كتب التفسير ، والنحو ، والبلاغة .

إذا وجدت ، وهي التي فطرت النفوس البشرية على حبها وطلبها ، والبحث عنها ، والجهاد في سبيلها ، ولكن الهداية لا تقوم في الخلاء ، ولا تفهم إلا بأهلها ، ولا تتمثل إلا في أصحابها ، وأولئك هم الذين أنعم الله عليهم - من النبيين ، والصدّيقين ، والشهداء ، والصالحين - . وقد حث القرآن - وجميع الصحف السابقة - على حبهم والانتساب إليهم والإنضواء إلى رأيهم ، والإقتداء بهديهم ، « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده (١) » ويتبع ذلك التبرؤ من الذين جانبوا الهداية ، وكفروا بالنعمة ، واتبعوا الهوى ، وسلكوا طريق الردى ، أولئك الذين أسرفوا في العناد ، وبالغوا في الإفراط ، فحلّ عليهم غضب الله ، أو بالغوا في التحريف ، وتورّطوا في التفريط ، فوقعوا في الضلال : « إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين (٢) » .

تلاوة ما تيسر من القرآن :

وشرعت تلاوة ما تيسر من القرآن : « فاقروا ما تيسر من القرآن (٣) » لتؤكد هذه المعاني وتغرسها في النفس ، أو تشرحها ، وتسقيها ، وتغذيها ، أن الصلاة عبادة وتعليم .

الخضوع الطبيعي ، المتدرج :

ويتدرج المصلي في الخضوع والإنحاء ، فيفتح الصلاة بالقيام ، فيثني

(١) سورة الانعام - ٩٠ .

(٢) لا يتذوق كلمة « المغضوب عليهم » ولا يؤمن بصحتها وانطباقها على اليهود إلا من درس تاريخهم وعرف سيرتهم ، والدور الهدام الذي لعبوه في تاريخ الانسانية والمدنية ، وما يحملونه من حقد دفين للاجيال البشرية عامة ، ومن حب الاستعلاء بالاستئثار .

(٣) وكذلك لا يفهم الإنسان سر اختصاص النصارى بالضلال ووصفهم « بالضالين » إلا إذا قرأ تاريخ المسيحية ، وما تعرضت له من المسخ والتحريف ، والغموض والالتباس ، منذ نشأتها وفي عهدها الباكر ، والدور الذي لعبه « بولس » في تطوير هذه الديانة وتلوينها بلون خاص ، والدور الذي لعبته الكنيسة في تكوين العقيدة النصرانية وتفسيرها ، وخضوع العالم المسيحي لجميع هذه العوامل والمؤثرات . راجع - على سبيل المثال - كتاب « إظهار الحق » للعلامة رحمة الله الكبرانوي الهندي (١٢٣٣-١٣٠٨ هـ) .

(٤) سورة الفاتحة ٥-٦-٧ . (٥) سورة المزمل ٢٠ .

بالركوع . ويثلث بالسجود ، وهو شأن الخاضع الطبيعي ، ولا يخبر ساجداً من ركوع ، بل يقف وقفة قصيرة خفيفة ، ثم ينحني للسجود ، ليكون أبلغ في الخشوع وأوقع في النفس ، وأدلّ على الذلّ (١) . وكذلك يتدرّج في التعظيم والتمجيد . فيقول في ركوعه : « سبحان ربي العظيم » ، ويقول في سجوده : « سبحان ربي الأعلى » ، فإذا بلغ الغاية في الخضوع والتذلل ، ونصب أشرف أعضائه على أدلّ شيء في الوجود ، الأرض التي هي موطىء الأقدام ، ومضرب المثل في الذلّة والهوان ، هتف بأعظم كلمة يُعلن بها عظمة الله وعلوّه ، فيقول « سبحان ربي الأعلى » وهنا تتفق روعة الهيئة والمكان ، مع روعة البيان والإعلان ، ويفصل بين السجدين يجلسة خفيفة ، لتكون السجدة مستأنفة مجدّدة ، ولتنتبه النفس من غفوتها ، وتشعر بلذة جديدة .

السجدة الخاشعة الحنون ،

التي يضطرب لها الكون :

وإذا سجد ، فك سلاسل التقليد ، السلاسل التي فرضها عليه المجتمع والأعراف ، والعادات والآداب ، فخرّ ساجداً لله تعالى يمرّغ وجهه ، ويعفّر جبينه ، وأعطى القلب زمامه ، وأرسل النفس على سجيّتها ، فلا حجر على الخشوع ، ولا ملامة على الدموع ، وقد غلى مرّجل الصدر ، وفاضت كأس القلب ، ولذلك يقول الصحابة رضي الله تعالى عنهم : « ولجوفه أزين كأزين المرّجل من البكاء (٢) » . وحكى عمرو بن العاص صلاة رسول الله ﷺ في الكسوف فقال : « ثم نفخ في آخر سجوده ، فقال أف أف ، ثم قال ربّ ألم تعدني أن لا تعذبهم وأنا فيهم ، ألم تعدني أن لا تعذبهم وهم يستغفرون (٣) »

(١) يقول شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي، وهو يذكر حكمة القومة بين الركوع والسجود، « بها يحصل الفرق بين الانحاء الذي هو مقدمة السجود ، وبين الركوع الذي هو تعظيم برأسه » (حجة الله البالغة ج ١ ص ٧٦) .

(٢) رواه ابو داود والترمذي عن عبد الله بن الشخير .

(٣) رواه ابو داود والنسائي .

وفي رواية (حين ينفخ يبيكي) .

والسجود أقرب هيئات المصلي وأحبها إلى الله ، وقد ورد في الحديث الصحيح : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء (١) » فின்றز المصلي هذه الفرصة الثمينة ، وينثر كنانة القلب ، ويفرغ جعبة الدماء والعبودية ، فيقول بلسان المقال أو بلسان الحال : (٢) « أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهاال المذنب الدليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، ودعاء من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عبرته ، وذلّت لك جسمه ، ورغم لك أنفه (٣) » .

وهذه هي السجدة التي ترتعش لها الجبال الراسيات ، وتهتزّ بها الأرض ، ويرتعد لها الجبابرة الطغاة ، ولها في تاريخ الأمة ومغامراتها ، ومحنها شؤون ، وأخبار غريبة .

الصلاة على النبي ، محلها في الصلاة ، وحكمتها :

وهكذا يستمر المصلي في صلاته ، يكرّر القيام والركوع ، والسجود ، وأجزاء الصلاة الأخرى ، حتى يقعد القعدة الأخيرة ، ويتشهدّ ويسلم على النبي ﷺ ، فيقول : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » ، ثم يسأل الله أن يصلي ويبارك عليه وعلى آله ، كما صلّى وبارك على ابراهيم وآله ، فيقول : « اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صلّيت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد » .

لقد كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وسائط بين الحق والخلق في

(١) رواه مسلم .

(٢) يرى الفقهاء الحنفية رحمهم الله أن الادعية المأثورة ، أو ما يريد المصلي من دعاء محله التطوع والنوافل ، بخلاف ما يراه السادة الشافعية ، والهدثون الكرام .

(٣) من الدعاء المأثور في عرفة في « كنز العمال » مروياً عن ابن عباس رضي الله عنه .

الهداية ، وبهم تتحقق معرفة الذات والصفات ، وبهم يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويُوفّقون للكلم الطيب ، والعمل الصالح ، لذلك لم يقف أهل الجنة عند قولهم : « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله (١) » بل ضمّوا إليه قولهم : « لقد جاءت رسل ربنا بالحق (٢) » فقد كانوا هم السبب الطبيعي في وصول الهداية إليهم ، والتوفيق لكل ما يخلّصهم من الجهل والضلال في الدنيا ، والشقاء والعذاب في الآخرة ، فاستحقّوا بذلك شكر الأمم التي جاهدوا في دعوتها وتعليمها الجهاد الأكبر ، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من الهداية والمعرفة ، والإنابة والعبادة ، وما كانت هذه الصلاة التي يقومون بها أمام ربهم ، إلاّ نتيجة الرسالة التي حملوها ، والجهاد الطويل الشاق الذي قاموا به ، فاقترضت طبيعة الشكر والإعتراف بالجميل ، أن لا ينصرفوا من صلاتهم حتى يستوفوا هذا الحق .

ثم كان لمحمد القدح المملّتي ، والمقام الحمود في الدعوة إلى الله ، وتبليغ رسالته ، والجهاد في سبيلها ، فقد بدأ دعوته وجهاده ، وليس على ظهر الأرض ، إلاّ أفراد قلائل مُشتتون موزّعون ، يعبدون الله وحده ، وليس في جزيرة العرب ، التي بُعث فيها مؤمن بالله يعبد الله مخلصاً له الدين ، ويطأطأ له الرأس ، وينصب له الجبين ، وقد كان في جوف الكعبة ثلاث مائة وستون صنماً : « وما كان صلاتهم عند البيت إلاّ مكاءً وتصديّة (٣) » فلم يفارق هذه الدنيا ، ولم يلق ربّه حتى قرّت عينه ، إذ رأى غرسه يُشمر ويؤتي أكله ، فانتشر الإسلام في الجزيرة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وبُنيت المساجد ، وارتفع صوت الأذان في كل مكان ، ورأى المسلمين سراعاً إلى مسجده ، وقد منعه المرض الشديد عن الإمامة ، فما قتر ذلك نشاطهم ، ولا نقص من عددهم ،

(١) سورة الاعراف - ٤٣ .

(٢) سورة الاعراف - ٤٣ .

(٣) سورة الانفال - ٣٥ .

أفلم تكن هذه الصلاة التي وفق لها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، إلا حسنة من حسناته ، وثمره من ثمرات دعوته وجهاده ، أفلا يجدر بالمسلم إذا أدى حق الله في حمله ، والثناء عليه ، أن يختم ذلك بالدعاء للنبي ﷺ بالرحمة والبركة ؟ ! .

ثم إن في ذلك وقاية وحرزاً عن الشرك ، فمن سأل الله الصلاة والرحمة على النبي ﷺ ، ورأى أن ذلك يفيدته ويسره ، كان في مأمن من أن يعتقد أن في العالم من يستغني عن رحمة الله ، ويستغني عن مثوبته وكرامته ، ويشارك الله في ذاته أو صفاته (١) ، فقد كان رسول الله ﷺ رحمة للعالمين ، وسيد الأولين والآخرين ، وقد دعا الله للصلاة عليه ، فقال : « إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً (٢) » وحث النبي ﷺ بنفسه على الصلاة عليه ، وسأل أمته ذلك ، كما جاء في أحاديث صحيحة مستفيضة تكاد تبلغ حد التواتر (٣) .

ثقة المسلم بنفسه وتحديد جماعته وحزبه :

وقد كان للمصلي الذي أدى حق الله في الحمد والثناء عليه ، وحق الرسول في الدعاء له والصلاة عليه ، حظاً من السلام الذي يحتاج إليه ويحرص عليه ، والذي كان شعاراً للإسلام ، وتحمية للمسلمين ، فيقول المصلي : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » وبذلك يتعين مكانه وحزبه ، فهو مع عباد الله الصالحين في كل مكان وزمان ، يشاركهم ويلتقي معهم على دين الله الإسلام ، وفي الإخاء والسلام ، وذلك ينشئ فيه الأمل والثقة ، ويحارب فيه اليأس ، وما يسميه علماء النفس اليوم « بمركبّ النقص » إذ يقرب بينه وبين زملائه المصلين ، وبين

(١) الفكرة مستفادة من كتاب (معارف الحديث) للشيخ محمد منظور والنعماني (المجلد الثالث).

(٢) سورة الأحزاب - ٥٦ .

(٣) اقرأ الأحاديث الواردة في الصلاة والسلام ، ومعانيها وحكمها ، ولطائفها في كتاب « جلاء الأفيام في الصلاة والسلام على خير الأنام » ، للعلامة ابن قيم الجوزية .

فضلاء الأمة وعباد الله الصالحين ، « أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم
المفلحون » (١)

ثم يدعو المصلي لنفسه ، ويتعوذ من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ، ومن
فتنة الحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال (٢) ، فكل ذلك جدير بأن
يتعوذ منهم المسلم ويلتجئ إلى الله من شره وفتنته ، وقد جاء في الحديث :
أن رسول الله ﷺ قال : « إنه لم يكن نبي بعد نوح إلا قد أُنذر الدجال
قومه ، وإنسي أنذركموه » (٣) .

نهاية الصلاة ، وحسن خاتمتها :

وبعد ذلك كله ، وبعد ما بذل جهده في إحسان هذه الصلاة ، وأداء
حقوقها ، يعترف بالتقصير ، كأنه يقول بلسان الحال ، « ما عبدناك حق
عبادتك » ويقول في لفظ النبي ﷺ الذي أوصى به خليفه أبابكر الصديق
رضي الله عنه ، وكان أفضل الأمة بعد نبيها ، وكانت صلواته أكمل الصلوات
بعد صلاة الرسول [صلى الله عليه وسلم] : « اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً
ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور

(١) سورة المجادلة - ٢٢ .

(٢) روى مسلم عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم هذا الدعاء ،
كما يعلمهم السورة من القرآن ، يقول : قولوا ، « اللهم اني أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك
من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة الحيا والممات » وروى
عن ابي هريرة «رض» عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« اذا فرغ احدكم من التشهد الآخر فليتعوذ بالله من اربع ، من عذاب جهنم ، ومن عذاب
القبر ، ومن فتنة الحيا والممات ، ومن شر المسيح الدجال » .

(٣) رواه الترمذي وابو داود : عن ابي عبيدة بن الجراح ، اقرأ في موضوع الدجال وفتنته ،
تفسير سورة الكهف في كتابنا « تأملات في القرآن » .

الرحيم^(١)» فيكون الإعراف بالتقصير آخر الكلام ، ويكون الندم مسك الختام ، وهو أفضل ما تحتم به صحيفة أعمال .

ولا ينصرف من الصلاة ولا يقوم منها مسرعاً ، كأنه أنشط من عقال ، أو خرج من سجن ، بل يختم ذلك بخاتمة جميلة كريمة ، مباركة طيبة ، فإلتفت عن يمينه وعن شماله ، ويسلم على المصلين وجماعة المسلمين ، وعلى الملائكة الشاهدين ، فيقول : « السلام عليكم ورحمة الله^(٢) » كأنه كان قد انتقل إلى عالم آخر ، وانقطعت صلته عن كل ما يحيط به من موجود مشهود ، ثم عاد إلى مكانه الأول ، ومركزه في الحياة ، فأقبل على من حوله وسلم عليهم ، شأن العائد من سفر ، أو الحاضر من غيبته^(٣) ، وقد جاء في الحديث الصحيح : « مفتاح الصلاة الطهور ، وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم^(٤) » .

تناقض الصلاة « الحقيقية » مع عبادة غير الله ، وعبودية الانسان ، والحياة الجاهلية :

ومثل هذه الصلاة الخاشعة المخلصة ، التي يحافظ عليها المسلم بروحها وحقيقتها ، وآدابها وأوقاتها ، لا تتفق ولا تنسجم مع عبادة غير الله ، - ومن مظاهرها ، الشرك ، والوثنية ، والخرافة ، - وعبودية غير الله ، - ومن

(١) روي البخاري في صحيحه عن ابي بكر الصديق « رض » قال : قلت يا رسول الله ! هلني دعاءً ادعوه في صلاتي ، قال ، قل : « اللهم اني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب الا انت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني انك انت الغفور الرحيم » .

(٢) يقول شيخ الاسلام ولي الله الدهلوي : « وجعل التشهد ركناً ، لأنه لولا هذه الامور لكان الفراغ من الصلاة مثل فراغ المعرض او النادم » (حجة الله البالغة ج ٢ - ص ٥) .
(٣) من كلام الامام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله (م ١٢٩٧ هـ) في رسالته البديعة (قبلة نما) يعني دليل القبلة .

(٤) رواه ابو داود والترمذي والدارمي وابن ماجه ، عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم . انظر الفصل الدقيق العميق في بيان المصالح المقتضية لتعيين الفرائض والآداب ، ونحو ذلك في الصلاة ، لحكيم الاسلام الشيخ احمد بن عبد الرحيم ولي الله الدهلوي في كتابه (حجة الله البالغة ج ١ ص ٧٥ - ٧٦) .

مظاهرها رهبة الملوك والأمراء ، وأصحاب القوة والثروة ، والأمر والنهي - واعتقاد النفع والضرر فيهم ، والتزلف إليهم بكل وسيلة ، وتلقفهم ، ومسايرتهم في جورهم وعدوانهم ، والمناداة على العقيدة والضمير ^(١) ، كما شاهدنا في عصر الملوكية الأول ، وكما نشاهد كل يوم في عصر الحرية ، « والديمقراطية » الحاضر.

فجميع أركان الصلاة ، وجميع ما يقوله المصلي فيها ، ويقطعه على نفسه ويعلمه ينافي ذلك أشد المناقاة ، ويعارضه أشد المعارضة ، وهو يعارض الكلمة التي يفتح بها صلاته ، وهو قوله « الله أكبر » ويعارض قوله « الحمد لله رب العالمين » فلا رب غيره ولا حمد لغيره ، وهو يعارض قوله « إياك نعبد وإياك نستعين » فلا عبادة لغيره ولا استعانة بغيره ، وهو ينافي الركوع والسجود ، « فلا ركوع جسدياً ومعنوياً » « ولا سجود ظاهراً وباطناً » إلا الله تعالى ، لذلك كان الذين تحققت فيهم هذه الصلاة ، من أشجع الناس أمام الملوك والأمراء ، وأجرئهم على الجهر بكلمة الحق ، وأزهدهم في حطام الدنيا ، وأبعدهم عن التعاون على الإثم والعدوان ^(٢) .

(١) يعني بجمعها بلزاد العلني كما يقول المصريون .

(٢) ومن أمثلته الرائعة المستطرفة التي ليس عصرها بعيداً ، أن شيخاً ممن صحب السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦ هـ) أمام دعوة التوحيد والجهاد ، ومؤسس الحكومة الشرعية في القرن الماضي في الهند ، قصد مرة طبيباً مسلماً في بلده ، وكان الشيخ ، قد علت سنه وأنهكه المرض ، وكان المصلح بعيداً ، فما وصل إلى الطبيب إلا وقد بلغ الجهد ، وأعياء المشي على الأقدام ، وبقي ينتظر خروج الطبيب برهة طويلة ، فلما خرج الطبيب بعد انتظار شاق ، أقبل على عبادة مبتدعة ، فيها تعظيم لغير الله ، فما كاد يقع نظر الشيخ عليه ، إلا أمر تلميذه بالانصراف ، وخرج من ساعته ، فلما كان في الطريق ، قال له ، ما رأيت كاليسوم ! أجهدت نفسك في الوصول إلى الطبيب ، وأطلت الانتظار . فلما خرج ، بادرت إلى الانصراف ولم تقض حاجتك منه ، فقال له ، ويحك ألم تره ، يعصي الله ويشرك به ؟ فقال . ما لنا ولعمله ، عليه ضلالتة وسخافته ، ولنا صناعته وبراعته ، فقال ، عجباً لأمرك ! إذا سكت على ذلك ، واستمنت به ، فكيف أقوم في الليلة أمام ربي ، وبأي لسان أقول في قنوت الرمز . « ونخلع ونترك من يفجرك » .

تأثير الصلاة في الأخلاق والميول :

وللصلاة تأثير في صرف النفس عن الأخلاق الرذيلة ، والفحشاء والمنكر ، والتمتع بالمتعة الرخيصة ، ليس لشيء آخر بعد كلمة التوحيد ، ولذلك يقول الله تعالى : « أتل ما أوحى إليك من الكتاب ، وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون (١) » وذلك لأنها تصرف صاحبها من جهة إلى جهة ، ومن ذوق إلى ذوق ، ومن طلب إلى طلب ، ومن تفكير إلى تفكير ، ومن سفساف الأمور إلى معاليها ، وتحبب إليه الإيمان ، وتزيينه في قلبه ، وتكره إليه الكفر والفسوق والعصيان ، هذا ، إذا كانت الصلاة حقيقية تتدفق بالحياة ، وتفيض بالحرارة والقوة ، ولذلك لما فوجيء قوم شعيب بالدعوة إلى التوحيد ، والفضيلة والتقوى ، والإنكار على ما كانوا فيه من ظلم وبخس وتطيف ، أقبلوا على حياة شعيب يلتمسون فيها مصدر هذا الانقلاب وهذا الإختلاف ، فقد وُلد ونشأ فيهم كبن قبيلة وابن بلد ، والذي يردون إليه طبيعة هذا الخصام والنزاع ، فلم يجدوا في حياته شيئاً أوضح من الصلاة التي كانوا يشاهدونها ، ويتعجبون لحُسْنها وطولها ، فقالوا : « يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد (٢) »

التشريعات الحكيمة ، لتفخيم شأن الصلاة ، وخلق الجو المناسب لها :

وقد هياً الله بتشريعه الحكيم لها جواً من الإجلال والتعظيم ، ومن الخشوع والركة ، ومن الجد والرزانة ، ومن الوقار والسكينة ، ومن التعاون والإجتماع ، ما لا يوجد له نظير لعبادة أو نسك في دين آخر ، وفي ملة أخرى .

(١) سورة العنكبوت - ٤٥ .

(٢) سورة هود - ٨٧ .

الأذان نداء للصلاة ، ودعوة للإسلام :

فشرع للدعوة إلى الصلاة والجمع عليها نداءً ، لم تتجلّ فيه مقاصد الصلاة ، ومعانيها فحسب ، بل تجلّت فيها كذلك مقاصد الإسلام وشعار التوحيد ، وروح الدين ، بوضوح وبلاغة وإيجاز ، وجمال ونعمة ، أصبح بها هذا النداء الذي يرفع به المؤذن صوته من مكان عالٍ خمس مرات في كل يوم ، دعوة مركّزة إلى الإسلام ، تعريفاً بمقاصده وتعليلاته ، قد يؤثر في نفوس كثير من غير المسلمين ، فيشرح الله صدورهم للإسلام ، وليس لهذا النداء - الذي يجمع بين الجمال والبساطة - نظير في أساليب الدعوة والإعلام بالعبادات في الديانات الأخرى^(١) إنه هو النداء الديني الوحيد الذي ابتعد عن كل مظهر خارجي ، وعن استعانة بالآلات والإغراءات وجاء فيه لباب الدين ، وخلصته ،

إنه يضم الإعلان بعظمة الله وكبريائه ، وأنه أكبر من كل كبير ، ويضمّ الشهادتين ، شهادة « أن لا إله إلا الله » وشهادة « أن محمداً رسول الله » ثم الدعوة إلى الصلاة وحضورها في جماعة في المسجد ، ثم الإخبار بأنها وسيلة

(١) وقد وردت أخبار وأحاديث صحيحة في بدء الأذان ، وكيف شرع ، وكيف عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أساليب الدعوة الأخرى ، التي استخدمها غير المسلمين ، وآثر هذه الطريقة التي كانت تلقيناً من الله ، وإلهاماً منه ، منها ما رواه أبو داود عن أبي عمير بن أنس عن عمومة له من الأنصار ، قالوا : « اهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة كيف يسمع الناس لها ، فقيل ، أنصب راية عند حضور الصلاة ، فإذا رأوها ، آذن بعضهم بعضاً ، فلم يعجبه ذلك ، فذكر له القنع ، وهو شبور اليهود ، فلم يعجبه ، فقال هذا من أمر اليهود ، فذكر له الناقوس ، فقال هو من أمر النصارى ، فأنصرف عبدالله بن زيد الأنصاري ، وهو مهمّ لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرى الأذان في منامه ، ففدا على النبي صلى الله عليه وسلم فقال ، اني بين قائم ويقظان ، إذ اتاني آت ، فأراني الأذان ، وكان عمر قد رآه قبل ذلك ، فكتمه عشرين يوماً ، ثم أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له ، ما منعك أن تخبرنا ؟ فقال سبقني عبد الله بن زيد ، فاستحييت ، فقال صلى الله عليه وسلم قم يا بلال ، فانظر ما يأمرك به عبدالله بن زيد ، فافعل ، فأذن بلال »

الفلاح في الدنيا والآخرة، وأن لا فلاح بدونها ، فأصبح بذلك كله كلمة جامعة ، ودعوة كاملة ، ونداء أبلغاً ، يخاطب القلب والعقل ، ويلفت المسلم وغير المسلم ، ويندشط الكسلان ، وينبه الغافل ، يقول حكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي :

« واقتضت الحكمة الالهية أن لا يكون الأذان صرف إعلام وتنبية ، بل يضم مع ذلك أن يكون من شعائر الدين بحيث يكون النداء به على رؤوس الحامل والنبية ، تنويهاً بالدين ، ويكون قبوله من القوم آية انقيادهم لدين الله ، فوجب أن يكون مركباً من ذكر الله ، ومن الشهادتين والدعوة إلى الصلاة ليكون مصرحاً بما أريد به (١) »

التطهر وما يورثه من إهتمام :

وشرع للصلاة التطهر والوضوء : فقال . « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ، وإن كنتم جنسباً ، فاطهروا ، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه . ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون (٢) »

وذلك لأن التطهر والوضوء ، وخصوصاً إذا كان بإيمان واحتساب (٣) ،

(١) حجة الله البالغة ج ١ - ص ١٥٢ .

(٢) سورة المائدة - ٦ .

(٣) معناه أن يكون مؤمناً بما رعد الله عليه ، وأخبر به رسوله من الاجر والثواب ، ويكون طامعاً في ذلك راغباً فيه ، مقدرأ له كل التقدير ، وله تأثير كبير عميق في قبول الاعمال ووزنها عند الله ، وقد جاء في حديث ، رواه الترمذي عن أبي هريرة (رض) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا قوض العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرجت من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، أو نحو هذا ، وإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطشتها يده مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب ، وفي صحيح مسلم والموطأ زيادة : « فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء »

يورث الإهتمام ويوقظ النفس، ويهيئها لإستقبال الصلاة وما فيها من نور وسكينة .

وقد سنّ رسول الله ﷺ كتكميل فوائد الوضوء والطهارة ، والإستعداد للصلاة التي هي مناجاة مع الله ، السواك ، وحثّ عليه حثاً شديداً حتى قال : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة (١) »

المساجد : فضلها ، ومركزها في حياة المسلمين :

ثم بُنيت لها المساجد التي لا يوجد لها نظير في معابد الأمم والملل ، في السذاجة والبساطة (٢) ، والنظافة والسكينة ، وفي الجوّ الخاشع الروحاني الذي يسودها ، وفي شعائر التوحيد التي تتجلى فيها : « في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار (٣) » « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » (٤) « وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين (٥) » « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد (٦) »

وكانت هذه المساجد - ويجب أن تظل هكذا - مركز حياة المسلمين

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، واللفظ لمسلم ،
(٢) الاصل في المساجد أن تكون بعيدة عن الزخرفة ، والاسراف في الاموال ، وتقليد الاعاجم ، وأهل الملل الاخرى في معابدهم ، وقد روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أمرت بتشبيد المساجد ، قال ابن عباس لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى » (رواه أبو داود) « وعنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قسماً : « أراكم ستشرفون مساجدكم بعدني كما شرفت اليهود كنائسهم وكما شرفت النصارى بيوتهم » (رواه ابن ماجه) وأخرج رزين عن أبي سعيد ، قال : « كان سقف المسجد من جريد النخل ، فأمر عمر في خلافته ببناء المسجد ، وقال أكن الناس من المطر ، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس . »
(٣) سورة الزور - ٣٦ - ٣٧ . (٤) سورة الجن - ١٨ . (٥) سورة الاعراف - ٢٩ .
(٦) سورة الاعراف - ٣١ . اعتمدنا في الاستشهاد بهذه الآيات على تفسير كلمة « المساجد » و« المسجد » بكان الصلاة والبيت الذي بني لها وهو التفسير المشهور (راجع تفسير ابن كثير) وقد فسرها بعض المفسرين من السلف والخلف بأعضاء السجود أو بالصلاة (راجع تفسير ابن كثير كذلك)

وتعلمهم ودراساتهم ، ومصدر الإصلاح والتوجيه ، تعالج فيها قضايا المسلمين الإجتماعية والدينية ، ويتلقون فيها أحكاماً في حياتهم وممتهاتهم ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذا حدث حدثٌ أو نزل بالمسلمين أمر ، وكانوا في حاجة إلى توجيه جديد ، أو تعليم مزيد ، أمر أن ينادى في الناس ، « الصلاة جامعة ^(١) » وظلت المساجد هكذا ، فكانت القطب الذي كانت تدور حوله رحى الحياة ، وتنفجر منها عيون العلم والهداية ، وينبثق منها نور الإصلاح والإرشاد ، وتنتطق منها موجة الكفاح والجهاد ، ولا تزال منها بقيّة يحسد عليها المسيحيون ، والوثنيون ، المسلمين في بلادهم ، وينظرون إليها تارة بعين التلطف والحسرة ، وطوراً بعين الإشفاق والوجل ، ولا بدّ لنشأة المسلمين الجديدة أن تعود هذه المساجد والجوامع إلى مركزها الأول ، في حياة المسلمين وقيادتهم .

الآداب المشروعة لتقوية الجو الايماني الروحاني :

وشرع من الآداب والتوجيهات النبوية الحكيمة ما كان كفيلاً بالخشوع والسكينة ، والإقبال على الله تعالى ، فقد روى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا كان أحدكم في الصلاة ، فإنه يناجي ربه ، فلا يبزقن بين يديه ولا عن يمينه ، ولكن عن شماله وتحت قدمه ^(٢) ، وأمر المصلي بطاعة الإمام وتقليده ، واتباعه ، وكان في ذلك تجريد عن الفوضى والإفتتات ، وعن اتباع الهوى ، والإنسياق مع الرغبات ، فلا تقدّم عن الإمام ولا تخلف عنه ، ولا يسمح له بالبقاء في حياة واحدة ، مهما وجد فيها لذة ، ومهما حدثته نفسه بالبقاء فيها ، والزيادة منها ، فروح الصلاة إنما هو طاعة الله وامثال ما أمر به ومحكاة الرسول وتقليده في عبادته : « صلّوا كما رأيتموني أصلي ^(٣) » واتباع الإمام في حركاته

(١) « أنظر باب العلامات بين يدي الساعة » و « أبواب صلاة الخسوف » في الصحاح .

(٢) رواه عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ، « أخرجه البخاري ومسلم .»

(٣) رواه البخاري « في باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة .»

وسكناته ، وفي انتقالاته وتقلباته : « إنما جعل الإمام ليؤتم به (١) »

والمساجد تتجلى فيها عظمة الله ، فلا عظمة لمخلوق ، ولا إختصاص لعظيم أو كبير ، وهو مكان مُشاع يتساوى فيه الحرّ والعبد ، والحاكم والمحكوم ، والغني والفقير فهو « كمنى مناخ من سبق (٢) » والإسلام لا يعرف تلك الإمتيازات التي لم تكن إلاّ من يدع الملوك والأمراء بعد عصر الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، ولا تقدّم ولا امتياز في المساجد إلاّ على أساس العلم ، والحظ من القرآن والفقه والتقوى ، وقد قال رسول الله ﷺ : « ليلني منكم أولو الأحلام والنهي ثم الذين يلونهم . ثلاثاً (٣) »

الجماعة ، أهميتها وفضلها :

وشرعت الصلاة المفروضة بالجماعة ، وهي طبيعة الصلاة المشروعة في الإسلام ، ووضعها الصحيح ، « واركعوا مع الراكعين (٤) » ولذلك داوم عليها الرسول ﷺ وأصحابه مداومة شديدة ، حتّى كأنها جزء من الصلاة ، ولم يتركها حتى في مرضه الذي مات فيه ، وقد جاء في صحيح البخاري ، (عن عائشة رضي الله عنها) : « ثقل النبي ﷺ ، فقال ، أصلىّ الناس ؟ قلنا ، لا ، هم ينتظرونك ، يا رسول الله ، قال ، ضعوا لي ماءً في الخضب ، ففعلنا فاغتسل ، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال ، أصلىّ الناس ؟ قلنا ، لا ، هم ينتظرونك قال : ضعوا لي ماءً في الخضب ، ففعلنا ، فاغتسل ، ثم ذهب لينوء ، فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال ، أصلىّ الناس ؟ قلنا ، لا ، هم ينتظرونك ، قال ، ضعوا لي ماءً في الخضب ، فاغتسل ، ثم ذهب لينوء ، فأغمي عليه ، ثم أفاق ،

(١) رواه مسلم عن أنس بن مالك ، (باب ائتمام المأموم بالإمام) .

(٢) أخرجه الترمذي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها مرفوعاً .

(٣) رواه مسام (في كتاب الصلاة ، « باب تسوية الصفوف » ورواه ابو دواد والنسائي) .

(٤) سورة البقرة - ٤٣ .

فقال ، أصلى الناس ؟ قلنا ، لا ، هم ينتظرونك ، والناس عكوف في المسجد ينتظرونه ﷺ لصلاة العشاء الآخرة ، قالت ، فأرسل ﷺ إلى أبي بكر ، أن يصلي بالناس ^(١) [إلى آخره] .

وكان الصحابة رضي الله تعالى عنهم من أشد الناس التزاماً لهذه الجماعة ، يقول عبد الله بن مسعود : « ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف ^(٢) » وفي رواية عنه « رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق ، قد علم نفاقه ، أو مريض ^(٣) » وقد كان رسول الله ﷺ شديد الإنكار على من كان يتغيب عن الجماعة ، ولا يشهد الصلاة مع المسلمين ، وقد جاء في الصحاح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، « ان رسول الله ﷺ فقد ناساً في بعض الصلوات ، فقال : « لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس ، ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها ، فأمر بهم فيحرقون عليهم بحزم الحطب بيوتهم ^(٤) »

بعض حكم الجماعة ، ومصالحها وبعض آدابها :

وفي الجماعة حكم دقيقة ومصالح عظيمة للمسلمين ، منها : ما هي اجتماعية وخلقية كالوحدة والإجتاع ، والتعاون والتعارف ، وقد بحث عنها علماء الإسلام ، وحملة الأقلام ، وأفاضوا فيها ، ومنها : ما هي أدق ، ولم يفتن لها كثير من الباحثين ، والكتّاب العصريين ^(٥) ،

منها : أن لاجتماع المسلمين راغبين في الله ، راجين ، راهبين ، مسلمين وجوهم إليه ، خاصة عجيبة في نزول البركات ، وتدلي الرحمة ، وهذا هو

(١) حديث متفق عليه .

(٢) رواه مسلم وابو داود والنسائي .

(٣) رواه مسلم في صحيحه .

(٤) رواه مسلم في «باب فضل الصلاة بجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها» ، والحديث في الصحاح .

(٥) اقرأ البحث الدقيق العميق في «اسرار الجماعة ومصالحها» وشرح ما ورد فيها من

الاحاديث ، والاخبار في الجزء الثاني ، من كتاب (حجة الله البالغة) ص ١٩ - ٢١ (الحكيم الاسلام الشيخ احمد بن عبد الرحيم ولي الله الدهلوي) .

السر في دعاء الإستسقاء وجماعته ، وفي جمع الحج (١) « ومنها ، » التشجيع على العبادة والمحافظة على الصلوات ، والتنافس في إحسانها ، وإتقانها ، والإكثار منها ، وإصلاح ما قد يطرأ عليها من فساد أو من خلل للإنفراد أو الجهل ، وتعلم ما فات من أحكامها وآدابها ، وأذكارها وقراءتها ، والتأسي بالعلماء الفقهاء ، والعباد المخلصين . ومنها : أن إخلاص بعض المخلصين ، وإخباته وخشوعه ، يؤثر في الجماعة كلها ، ويوقظ النفوس الخاملة ، ويحرك الهمم الفاترة ، وقد يكون سبباً في قبول عبادة الجميع ، والغض عمّا فيها من ضعف أو خلل أو تقصير ، وذلك شيء لا يخالف المعقول أو المنقول ، فأهل الإخلاص والخشوع ، قوم لا يشقى بهم جليسهم .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شديد الإهتمام بتسوية الصفوف ، شديد الإنكار على الإخلال بها ، والتفريط فيها ، إذ لا تتحقق فوائد الجماعة ولا تكتمل إلا بالمحافظة عليها ، وقيام المسلمين فيها ، كالبنیان المرصوص ، ولأن الصلاة والجماعة تربية للحياة كلها ، فمن لم يحسن القيام بها لم يحسن شيئاً من عمل الدنيا والآخرة ، وقد روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ ، قال : « سوّوا صفوفكم ، فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة (٢) » وعن النعمان بن بشير ، قال : « كان رسول الله ﷺ ليسوي صفوفنا حتى كأنما يسوي بها القداح ، حتى رأى أنّا قد عقلنا عنه ، ثم خرج يوماً ، فقام ، حتى كاد أن يكبر ، فرأى رجلاً بادياً صدره من الصف ، فقال : [عباد الله لتُسُون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم (٣)] .

الجمعة ، مكانتها وخصائصها :

وشرعت صلاة يوم الجمعة ، واتخذت لها آداب ، وزيادات وتحريضات ،

(١) مقتبس من كتاب (حجة الله البالغة) بتعديل يسير .

(٢) رواه البخاري ومسلم . (٣) رواه مسلم .

وخصائص ، تزيد في جلالها وفخامة شأنها ، وثورث الإهتمام بها ، وتساعد على الإنتفاع بها ، في العبادة والتقرب إلى الله وجمع شمل المسلمين ، والتعاون على البرِّ والتقوى ، وقد جاء في القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة (١) ، من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » (٢) وقد ورد في الحديث : « من ترك ثلاث جمع تهاوناً بها طبع الله على قلبه (٣) » وجاء : « لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات ، او ليختمن الله على قلوبهم ، ثم ليكونن من الغافلين (٤) » وقال : « لقد هممت أن أمر رجلاً ليصلي بالناس ثم أحرقت على رجال يتخلفون عن الجمعة ، بيوتهم (٥) »

وشرع فيه الإغتسال واستعمال السواك والتطيب ، والنظافة الزائدة ، وشرعت الخطبة ، ولم تكن خطبة النبي ﷺ تقليدية ، لا حياة فيها ولا روح ، ولا رسالة فيها ولا توجيه ، بل كانت متصلة بالحياة وبالواقع كل الإتصال ، يقول جابر رضي الله تعالى عنه : « كان النبي ﷺ إذا خطب ، احمرَّت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش ، يقول ، صبّحكم ومساءكم (٦) » قال العلامة ابن القيم في زاد المعاد : « وكان يعلم أصحابه في خطبته ، قواعد الإسلام وشرائعه ، وكان يأمرهم وينهاهم في خطبته اذا عرض له أمر أو نهي (٧) » ويقول منتقداً للخطباء المتأخرين : « ثم طال العهد ، وخفي نور النبوة ، وصارت الشرائع والأوامر رسوماً ، تقام في غير مراعاة حقائقها ومقاصدها ، فاعطوها صورها ، وزينوها بما زينوها به فجعلوا الرسوم والأوضاع سنناً لا ينبغي

(١) هو الاذان الذي يتقدم الخطبة ، اذ كان هو الاذان الوحيد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي خلافة ابي بكر وعمر ، فلما كان عهد عثمان ، وكثر الناس وانتشروا ، زاد الاذان الاول ، وارتضاء الصحابة والمسلمون رجزى العمل به في الاعصار والامصار ، اقرأ تفسير الآية ، في كتب التفسير وراجع (زاد المعاد) .

(٢) سورة الجمعة - ٩ . (٣) لأصحاب السنن . (٤) رواه مسلم والنسائي .

(٥) رواه مسلم في صحيحه . (٦) رواه مسلم والنسائي . (٧) زاد المعاد - ج ١ ص ١١٥ .

الاخلال بها وأخلّثوا بالمقاصد ، التي لا ينبغي الاخلال بها ، فرصعوا الخطب بالتسجيع والفقر ، وعلم البديع ، فنقص ، بل عدم حظ القلوب منها ، وفات المقصود بها (١) »

ورغم ان خطبه كانت واقعية دافقة بالحياة والنور ، والتأثير ، لم تكن طويلة مملّة ، شأن خطباء الجوامع اليوم ، ومحاضراتهم الطويلة ، التي يتبارون فيها ، ويتناولون فيها المباحث المحليّة المؤقتة ، التي تقبل المناقشة والجدل الكبير ، وتثير إنكار كثير من المستمعين ، وامتعاضهم ، وتفقد الخطب والجوامع ، قدسها وجلالها ، ونزاهتها ، بل كانت كسائر كلامه قوياً فصلاً ، لا فضول فيه ولا تقصير ، يقول جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه : « كانت صلاة النبي ﷺ قصداً ، وخطبته قصداً ، يقرأ بآيات من القرآن ويذكر الناس (٢) » وفي رواية : « كان ﷺ لا يطيل الموعظة يوم الجمعة ، إنما هنّ كلمات يسيرات (٣) »

وأمر الناس بالإنصات إلى الخطبة لتحصل الفائدة المقصودة في جو هادئ خاشع ، تغشاه السكينة والوقار ، ولأن الموقف موقف العبادة ، لا موقف الخطابة فحسب ، فأمر بالإنصات إلى الخطيب ، وشدّد في ذلك حتى نهى عن منع الجليس عن الكلام ، لأن الناس إذا تولّوا ذلك ، حدث تشويش وضوضاء ، فورد في حديث : « من قال يوم الجمعة لصاحبه : أنصت ، فقد لغا (٤) »

وطبيعة الجمعة ، ومقتضى المصالح التي قصدت ، أن تكون في مسجد واحد في المدينة ، أو في أقل عدد ممكن من المساجد (٥) ، إذا اتسعت المدينة وانتشرت أطرافها ، واستبحر عمرانها لدفع الحرج ، ليجتمع المسلمون في مكان

(١) زاد المعاد - ج ١ ص ١١٥ .

(٢) رواه مسلم وأصحاب السنن . (٣) رواه مسلم وأصحاب السنن .

(٤) رواه أبو داود عن علي بن أبي طالب مرفوعاً .

(٥) قال العلامة بحر العلوم عبد العلي الكهنوي في كتابه (رسائل الأركان) : « ولأجل ،

أن الجمعة جامعة للجماعات ، قال الإمام أبو يوسف لا يجوز تعدد الجمع في مصر واحد ، وهو -

مرة واحدة في كل أسبوع ، فيكون ذلك أدعى للإئتلاف والإتحاد وأبعد عن التحريف والفساد ، وقد تهاون المسلمون في ذلك تهاوناً عظيماً ، يكاد يفقد الجمعة جلالها وروعها وتأثيرها وقوتها .

الجمعة ميزان الاسبوع :

والرجل المشغول المسؤول المرهق بتكاليف الحياة ، وحقوق الأسرة ، يحتاج إلى يوم تتحرك فيه همته ، ويتفرغ فيه باله للعبادة والقربات ، وإجلاء صدأ القلب وتصقيه ، فيسري نوره في سائر الأيام ، وتعيش في كنف هذا اليوم ، وفي ظله ، وكان ذلك يوم الجمعة في الأسبوع ، وليلة القدر في رمضان ، ورمضان في سائر الشهور (١) ، وقد أحسن العلامة ابن القيم في قوله ، وهو يشير إلى هذه النكته :

« إنه [أي يوم الجمعة] اليوم الذي يستحب ان يتفرغ فيه للعبادة ، وله على سائر الأيام منزلة بأنواع العبادات واجبة ومستحبة ، فالله سبحانه جعل لأهل كل ملة يوماً يتفرغون فيه للعبادة ، ويتخلّون فيه عن أشغال الدنيا ، فيوم الجمعة يوم عبادة ، وهو في الأيام كشهر رمضان في الشهور ، وساعة الإجابة فيه كليلة

→ رواية عن الإمام أبي حنيفة ، وبه قال الشافعي ، فإنه لو جاز التعدد ، لما كان واحد منها جامعاً للجماعات ، قال الإمام محمد ، ورواه عن الإمام أبي حنيفة ، وهذه الرواية هي المختارة وعليه الفتوى ، أنه يجوز تعدد الجمعة مطلقاً اثنين أو أكثر .

(١) وقد أصبحت الجمعة في بعض نواحي الهند ، وخصوصاً في القرى ، ولعلها كذلك في كثير من بلاد الإسلام ، هي الرابطة الوحيدة بين الفلاحين وأهل المن ، وبين الإسلام ، يتكلمون فيه ، ويتهاونون للصلاة ويمرقون شعائر الإسلام وشرائعه ، ويتجدد فيهم الشعور بإسلامهم ، والإعتزاز به ، فيعتصمون به عن أن يكونوا فريسة الردة ، ودعوات الإنسلاخ عن الإسلام ، أو دعوات الجاهلية كالوثنية وغيرها ، فلولا الجمعة واجتماعها ومقدماتها ، لذاب عدد كبير من المسلمين ، في المجتمعات الجاهلية ، التي يعيشون فيها ، وافترستهم الدعوات التي تكتسح بيئتهم ، ونسوا أنهم مسلمون ، لذلك توسع بعض علماء الحنفية المتأخرين في صلاة الجمعة في القرى في هذه البلاد ، ولا يضايقون فيها مضايقة فقهية شديدة نظراً إلى هذه المصالح .

القدر في رمضان ، ولهذا من صح له يوم جمعه وتسلم ، سلمت له سائر جمته ، ومن صح له رمضان وسلم ، سلمت له سائر سنته ، ومن صحت له حجته وسلمت له ، صح له سائر عمره ، فيوم الجمعة ميزان الاسبوع ، ورمضان ميزان العام ، والحج ميزان العمر ، وبالله التوفيق (١) .

صلاة العيدين ، وامتيازهما الإسلامي :

أعتبرت الأعياد في الشعوب والأمم ، وفي الملل والنحل ، أيام حريية وانطلاق ، ومواسم لذة ومتعة ، واتسمت « من غير استثناء تقريباً » عند أهلها بخلع العذار وطرح الحشمة والوقار ، والإسراف في اللهو والتسلية ، حتى أصبحت مناقضة للعبادات ومفهومها ، بعيدة عن كل جدٍ ورزاقية ، وخشوع وعبادة .

ولكن بالعكس من ذلك ، صبغ العيدان « عيد الفطر وعيد الأضحى » اللذان شرعا في الإسلام استجابة للفريزة الإنسانية ، وتسليماً للأمر الواقع (٢) ، بالصبغة الدينية الروحية ، فشرعت صلاة العيد بتكبيرات زائدة وخطبة بعدها ، وسُن الإكثار من التكبير قبل الصلاة وفي الطريق ، وصدقة الفطر قبل صلاة عيد الفطر ، والأضحى بعد صلاة عيد الأضحى .

وكان الأصل أن تقوم في مكان واحد في البرية ليجتمع المسلمون مرتين في السنة ، شأنهم كل أسبوع في الجمعة ، ولكن تهاون المسلمون في ذلك ، وأصبحت صلاة العيد تقام في كل مسجد كبير وصغير ، وضعف تأثير هذه الصلاة ، ومقاصدها ، كما ضعف تأثير الجمعة ومقاصدها ، يقول العلامة ابن القيم :

(١) زاد المعاد ج ١ ص ١٠٦ .

(٢) عن أنس ابن مالك ، قال : قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، ولهم يومان يلعبون فيها ، فقال : ما هذان اليومان ؟ قالوا : كنا نلعب فيها في الجاهلية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قد أبدلكم الله بهما خيراً منها : يوم الأضحى ويوم الفطر » (رواه أبو داود) .

« كان ﷺ يصلي العيدين في المصلى الذي على باب المدينة الشرقي ، وهو المصلى الذي يوضع فيه محمل الحاج ، ولم يصل العيد بمسجده إلا مرة واحدة ، أصابهم مطر ، فصلّى بهم العيد في المسجد - إن ثبت الحديث وهو في سنن أبي داود وابن ماجه - وهديه كان فعلها في المصلى دائماً (١) »

ويقول شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي وهو يذكر حكمة تشريع العيدين ، وما شرع لها من إهتمام :

« إن كل ملة لا بد لها من عرضة يجتمع فيها أهلها لتظهر شوكتهم وتعلم كثرتهم ، ولذلك استحب خروج الجميع حتى الصبيان والنساء ، وذوات الخدور ، والحيض ، ويعتزلن المصلى ويشهدن دعوة المسلمين ، ولذلك كان النبي ﷺ يخالف في الطريق ذهاباً ، وإياباً ، ليطلع أهل كلتا الطريقين على شوكة المسلمين (٢) »

فضل الجمعة والجماعة ، في عصمة الدين ، عن التحريف ، وحفظ المسلمين من البدع ، والفوضى في العبادة :

وقد كان للجمعة والجماعة ومحافظة المسلمين عليها في الأمصار والأقطار فضل كبير ، في سلامة هذا الدين ، وسلامة الشريعة الإسلامية ، والأوضاع الدينية ، وبقائها على ما تركها عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأصحابه ، وبعدها عن تحريف المحرّفين وعبث العابثين ، فلو كان المسلمون - أعاذهم الله عن ذلك - تركوا الجمعة والجماعة ، وانفردوا بعباداتهم وصلواتهم في بيوتهم ، وقاموا بها منفردين منعزلين ، موزعين مشتتين ، لحُرقت هذه الصلوات ومُسخت مسخاً كبيراً ، وأفقدتها أصلتها ووضعها الأول ، وتنوّع المسلمون فيها ، وصاروا فيها فرقاً وأقساماً ، كما كانوا في كثير من مظاهر حياتهم المدنية ،

(١) زاد المعاد ج ١ - ص ١١٩ .

(٢) حجة الله البالغة ج ٢ - ص ٢٣ .

وآدابهم الاجتماعية ، وكانت للصلاة أنماط ونماذج ، محلية وفردية ، كما كانت لليهود والنصارى ، وكما هو معلوم وشائع في ديانات الهند وطوائفها الدينية ، فقد كانت هذه الجماعة عاملاً كبيراً من عوامل وحدة المسلمين في العبادات ، وإحكام الدين من التحريف (١) .

ولهذه الحكيم والمصالح ، ولما فيها من إهتمام وانتباه ، ولما لا يحيط به علمنا ، كانت صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد أضعافاً مضاعفة ، فقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلته في بيته وسوقه خمسة وعشرين ضعفاً ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة ، وحطت عنه خطيئة ، فإذا صلى لم تنزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة (٢) » وروى ابن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ ، قال : صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة (٣) .

« الصلاة » في الديانات الأخرى :

وقبل أن نتقدم في الحديث عن أنواع « الصلاة الإسلامية » الأخرى ، وسماها وملاحها ، وأثرها في النفس والحياة يحسن بنا أن نلقي نظرة فاحصة على « الصلاة » في الديانات التي سبقت الإسلام ، وظلت تعاصره إلى يومنا هذا ، ونتعرف بفكرتها ومفهومها ، وحقيقتها ، عند هذه الديانات وأصحابها ، ووضعها وهيئتها ، وأحكامها وآدابها بقدر الإمكان ، فقد يكون الوصول إلى حقيقتها ولبابها ، في زحمة من الأقوال والآراء ، والنفايس ، وكثرة من القياس والتخمين ، وتقديم صورة كاملة ، واضحة القسما والملاح لها - كما استطعنا أن

(١) الفكرة مقبسة من كتاب حجة الله البالغة ، للإمام ولي الله الدهلوي .

(٢) للسنة إلا النسائي واللفظ للبخاري .

(٣) رواه مالك ، والبخاري ، والترمذي ، والنسائي .

نعمل ذلك بسهولة في صفة الصلاة الإسلامية وتصويرها ، تصويراً صادقاً دقيقاً -
أمراً عسيراً جداً ، أو ضرباً من المستحيل ، ولا بدّ من ذلك للدراسة المقارنة ،
والحكم العالمي الصحيح ، ولتقدير قيمة الإسلام ، وما جاء به من آداب
وأحكام ، وكيف بقي هذا الدين بعيداً - على مرّ العصور والأحقاب ، وعلى
تنوّع من الشعوب والأمم التي دانت به - عن كل تحريف وتصرف ، محافظاً
على وضعه النقيّ الأصل .

الصلاة عند اليهود :

إن تاريخ تشريع الصلاة وأحكامها ، وهيئتها ووضعها ، يكتنفه الشيء
الكثير من الغموض ، في تاريخ اليهود وديانتهم ، يصعب معه عرض صورة
واضحة واحدة للصلاة ، في جميع العصور والأجيال ، وقد تطوّرت فكرتها
وتشريعاتها تطوّراً عظيماً ، على مرّ الأيام والأحداث - بخلاف الصلاة في
الإسلام - وتناولها الإصلاح والتجديد ، وهي لا تزال خاضعة بطبيعة الحال ،
لعوامل التجديد والتطوير ، فيصعب على الباحث ، أن يهتدي إلى وضعها الأصلي
القديم الموّحد ، الذي كان عليه أنبياء اليهود وأحبارهم ، وفقهاؤهم ، في أقدم
العهود ، وهنا نقدم خلاصة بحث لعالم يهودي كبير ، هو استاذ لمادة الديانة
اليهودية وشريعتها ، في كلية عبرية كبيرة ، في الولايات المتحدة الأمريكية ،
يقول الأستاذ Samuel S. Cohon (١) :

« رغم أنه لم يرد في التوراة أمر صريح بالصلاة ، لأن وضع العبادات
التقليديّ في العهد القديم ، كان محصوراً في الذبائح والقرابين (٢) ، مع ذلك قد

(1) Samuel S. Cohon, Professor of Jewish Theology At The Hebrew Union
College, Cincinnati, Ohio,

(٢) ولكن القرآن الذي جاء مهيئاً على الكتب السابقة ، قد ذكر ما يدل على وجود
« الصلاة » في بني اسرائيل ، ومحافظة الأنبياء والصالحين من الأمة عليها ، فقد جاء في سورة
الأنبياء (٧٣) عن إبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب : « وجعلناهم أمّة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل

اعتبروا الدعاء والصلاة وسيلة للتقرب إلى الله ، إن أنبياء اليهود أحياناً نعوأ على نظام القرابين الطقسي ، وعاشوا حياة الإلتجاء والإنابة ، وإن النبي « إرميا » كان يلتجئ أحياناً إلى التوبة والإستغفار ، والتذلل لله ، فراراً من أشغال الحياة الشاقّة ومتاعبها ، وقد أوصى اليهود المنفتحين في « بابل » بأن يؤطّنوا نفوسهم على استحضر الله تعالى ، والقرب منه ، عن طريق الدعاء والعبادة ، وقد استمرّ على ذلك مؤلفو سفر المزامير ، وإنّ تديّنهم وورعهم ، هو الذي كوّن الصلاة اليهودية الفردية والجماعية ، وصاغها صياغة خاصة .

لقد استنبط أبحار اليهود الذين نجثوا عن أساس الصلاة في التوراة ، مفهوم الصلاة من آية وردت في سفر التثنية تقول :

« وتحبّه وتعبد الربّ إلهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك » « ١٠-١٢ » .
وتدلّ الكلمات العبرية التي وردت في معنى الدعاء والعبادة ، على ما كانت عليه الصلاة عند اليهود ، وماذا تعني ، وإن أشهر هذه المصطلحات (Tephillah) وقد ترجمها « جولد تسهر » بالإبتهاال الى الله كحاكم ، والإستسلام له .

لقد أصبحت الصلاة ثلاث مرات (عند الفجر ، وفي الظهيرة ، وعند غروب الشمس) في اليوم ، والتي كانت من شعار المتدينين الأتقياء في عهد الهيكل ، نظاماً مشروعاً للصلاة الفردية والإجتماعية في عهد الأبحار ، قد اعتبرت أوقات هذه الصلوات الثلاث ، وأساليبها ، وأساليب يوم السبت ، وصلاة الهلال

الخيرات ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » وجاء في سورة مريم : (٣١) قول عيسى عن نفسه : « وجعلني مباركاً أينما كنت ، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً » وجاء في سورة آل عمران (٤٣) « يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين » ويظهر أن اليهود قد أضعوا الصلاة وتهاونوا فيها من العهد القديم المبكر ، فقد جاء في سورة مريم (٥٧-٥٨-٥٩) : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ، ومن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدنا واجتبينا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ، فخلف من بعدهم خلف أضعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غياً » .

الجديد ، وصلاة الأيام المقدّسة المضافة ، وصلاة يوم الكفارة الخاصّة ، تعدل الذبائح والقرابين العمومية في عهد الهيكل .

إن نظام العبادة التقليديّ عند اليهود ، يأمر بفصل الإناث عن الذكور ، في الصلاة ، ويقوم على تغطية الرأس وإحنائه^(١) ، وعلى القيام في صلوات خاصة ، ويتأخر المصلي ثلاث خطوات إلى الوراء ، عند تلاوة « عميداه » ، وفاتحة سفر الحزقيل .

أما في صلاة الصبح في أيام الأسبوع ، فينبغي للمصلي أن يرتدي ملءة خاصة ، ويربط التعويذات « فلقطير » بالذراع الأيسر والرأس ، ولا بد من ذلك لكل من يتجاوز الثالثة عشرة من السنّ من الذكور ، أما في يوم الكفارة ، فيستعملون الطيلسان الأبيض « الذي يستعملونه في الكفن بعد الموت » ، ولا تفرق الشريعة اليهودية بين الأئمة وعامة المصلّين في الصلاة ، وتقول إنهم متساوون أمام الله .

إنّ الطبقة المتجدّدة في اليهود ، عُثيت بالموسيقى في العبادة عناية خاصة ، وقد اختارت لكل صلاة ألحاناً خاصة ، ونغمات مخصوصة ، حتى تكون هذه العبادة أوقع في النفس ، وأعمق تأثيراً . إنّ اليهودية المجدّدة التي ألحّت على الذوق والجمال قد قلّلت قيمة حركات الجسم المنبعثة ، وألغت نظام صفوف الذكور والإناث ، المنفصل بعضها عن بعض ، وألغت تغطية الرؤوس ، واستعمال الأردية ، ولما كانت الجماعة المتجدّدة ، اقتصرت على صلاة يوم السبت والأيام المقدّسة ، فأصبح تقليد ربط التعاويذ لا حاجة إليه ، وأصبح القيام والسكوت ، وإحناء الرؤوس في بعض الأحيان محدوداً شاذاً في مناسبات خاصة .

(١) يظهر أن الصلاة عند اليهود لم يكن فيها سجود ، وقد اكتفى القرآن في ذكر صلواتهم بالركوع فقط : فقال : « ولركعي مع الراكعين » . سورة آل عمران (٤٣) .

إن ضم الغناء والموسيقى إلى الصلاة اليهودية ، قد جنى على أهمّ أجزاء الصلاة ومقاصدها جنائية كبيرة ، وقد تجرّد اليهود المتجدّدون ، واليهود المحافظون بطريق سواء عن روح العبادة ، وهو الخشوع ، والإقبال إلى الله بالقلب والقلب في عباداتهم ، بسبب التلحينات التي وضعها البارعون في فنّ الموسيقى والغناء من غير اليهود ، والتي طفت على الهياكل اليهودية ، ومناهج عباداتها بشكل فظيع^(١) .

ويزيد ما جاء في «دائرة المعارف اليهودية» في مقال : « الصلاة عند اليهود » ما قدّمناه وضوحاً وتفصيلاً في بعض الجوانب ، نلتقط منه بعض التفاصيل :

« وبناءً على ما أمر إسرائيل بالإستعداد للقاء ربه ، كان اليهود يقومون باستعدادات خاصة قبل الصلاة ، فقد كان الصالحون القدامى منهم يبذلون فيها ساعة كاملة ، وكما كان من اللازم ، أن يغسلوا الجسد قبل الصلاة بحیطة بالغة ، ويرتدوا ملابس ملائمة للصلاة إمتثالاً لأمر النبي عزرا .

«دعاء الصلاة» يُقرأ قائماً متوجهاً إلى الأرض المقدّسة ، ولذلك دُعي باسم «عميداه» .

ولا ينبغي للمصلّي أن يصعد على صفة ، بل يجب عليه أن يصلي في مكان هابط ، ولتكن الاقدام متصلة بعضها ببعض ، ومستقيمة ، كما تفعل الملائكة ، ويلزم على المصلّي أن يمدّ يديه ، ويرفعهما إلى « الحاكم المقدّس » وأن يكون خافض الطرف ، متملق القلب بالأعلى ، يركع خلال التمجيد والتمجيد ، ويقوم باسم الله .

ويتأخّر المصلّي بعد «عميداه» ثلاث خطوات ، ثم يميل يمينا ويساراً ، ويشبه عمله هذا بعادة الإستئذان من الملوك في الزمن القديم .

Judaism, A, way of Life Pages: 298, 316-to -318- and-358- to - 360, (1)

الصلاة بالجماعة ، إنما تؤدي مع عشرة أفراد بالغين على أقل تقدير ، وتادية الصلاة في مكان عام ، محمودة للغاية ، وهي واجبة على الرجال والنساء ، ومنوعة للبنات والفتيات .

إن تأليف أدعية الصلاة والتحميد والتمجيد يُنسب إلى ١٢٠ رجلاً صالحاً في عهد ثمانين نبياً ، ولا يُدرى أن أدعية الصلاة ابتدأت بتعليم الناس إياها شفويّاً ، أم سجّلت في الكتب ، وقُيِّدت بالكتابة ، ويبدو أن الناس كانوا يحفظونها إلى مدة طويلة ، ويرددونها شفويّاً ، ولعل الامر ظل هكذا ، الى عهد Geonic .

تكفي صلاة واحدة في طول النهار ، كما يقول الإمام المجهّد Johannah ولكن أئمة اليهود الآخرين يسمحون بثلاث صلوات في طول النهار ، وأربع في أيام الصوم .

أما الإمام «صموئيل» فيقول : « إن صلوات النهار الثلاث تتصل بتغييرات النهار الثلاثة ، عند طلوع الشمس ، وفي الظهيرة ، وعند غروبها^(١) »

الصلاة عند المسيحيين الكاثوليك الرومان :

قد كان أول تأليف للصلاة المسيحية في القرن الرابع ، في مجمع نيقا^(٢) ، ولا يزال المجلس الفاتيكاني يُحدث فيه تعديلات ، ويُصدرها إلى العالم المسيحي الكاثوليكي ، وكذلك نظام الكنائس الرئيسي يستطيع أن يُحدث فيه تغييرات ،

Jewish Encyclopaedia (1)

(٢) يرجع كاتب مقال « الصلاة عند المسيحيين » في «دائرة معارف الأديان والأخلاق» أن السيد المسيح كان يشارك اليهود في صلواتهم ويحضر عبادة الهيكل ، وكذلك كان يفعل أئمة المسيحية القدامى ، وكانت العبادة المسيحية ، تقوم على تلك العبادة التي نشأ عليها الجيل المسيحي الأول ، وأن الكنيسة المسيحية لم تقطع صلتها باليهودية ، وإنما اليهودية ، هي التي فصلت الكنيسة المسيحية .

وإلى القارىء نموذج الصلاة الطقسية التقليدية ، في الكنيسة الكاثوليكية (١)

يدخل القسّ (الإمام) في الكنيسة ، فيقوم له الحاضرون تعظيماً ، ويقول (ناوياً للصلاة) باسم الأب، والإبن، وروح القدس، أصليّ إلى مذبح الكنيسة، وهنا يدور الحوار بين الإمام والجماعة في تقديس الله والثناء عليه .

ثم يتقدم الإمام باعترافه بالذنوب والخطايا ، ويقول « إنني أشهد الله القدير، وأشهد مريم المباركة العذراء ، دائماً ، والملك الكريم ميكايل ، ويوحنا المعمّد ، ورسل الله المباركين بطرس ، وبولس ، وجميع القديسين ، وجميع الاولياء المسيحيين ، وأشهدكم أيها الإخوان ! وأعترف بأنني اقترفت ذنوباً فكرية، ولسانية، وعملية ، لا تعدّ ولا تحصى ، أنا صاحبها ، وأنا المسئول عنها وحدي ، لذلك أسأل مريم العذراء المباركة ، وميكايل المبارك ، الملك الكريم، ويوحنا المعمّد المبارك ، ورسل الله المباركين بطرس وبولس ، وجميع القديسين ، والاولياء ، وأسألكم أيها الإخوان ! أن تدعوا الله مالك الملك لي .

وتدعو الجماعة له ، ويقول الإمام « آمين » ثم تردّد الجماعة نفس عبارة الاعتراف ، وطلب الدعاء ، ويحييها الإمام بالدعاء ، وتقول الجماعة « آمين » ثم يدور حوار بين الإمام والجماعة في الدعاء ، وطلب الرحمة ، والامن والمغفرة للجميع .

ثم يرتقي الإمام المذبح، ويتلو دعاءً لاتينياً يسأل الله فيه ، أن يمحو الخطايا ويغفر الذنوب ، ويتوسّل بالسيد المسيح وبالقديسين والاولياء الذين تضمّن الكنيسة آثارهم ، ثم يقول الإمام ، يا الله إرحمنا، ويقول الإمام يا عيسى المسيح

(١) في ضوء آخر نشرة اصدرها المجلس الفاتيكانى عند كتابة هذه السطور ، عنوانها :
(The Sacrifice of The Mass) سلسلة (St, Paul publications)

إرحمنا ، وتقول الجماعة ، يا عيسى المسيح إرحمنا ، يقال ذلك مرتين ، ويعود الإمام ، فيسأل الله الرحمة ، وتعود الجماعة ، فتسأل الله الرحمة .

أما الحمد والثناء (Gloria) الذي يُتلى في الكنيسة في أوقات العبادة ، فيشتمل على كلمات الحمد والثناء ، وتكررّ فيه كلمات الأب ، والإبن الوحيد ويتكرر فيه وصف المسيح بخروف الله ، وبأنه يمحو خطايا العباد ، وبأنه يجلس على اليمين من الله ويتكررّ فيه طلب الرحمة منه وأنه يملك كل شيء ويعلو على كل شيء .

وتُتلى قطعة من الكتاب المقدس ، يعينها القيس ، وتقوم الجماعة عند تلاوتها تعظيماً ، .

وتتميّز الصلاة الأسبوعية في يوم الأحد في الكنيسة الكاثوليكية بخطبة يتقدم بها الإمام في موضوع يقتضيه الحال ، وتدعو إليه الضرورة ، وتجديد لكلمة الإيمان ، وقد جاء في هذه الكلمة وصف المسيح ، بأنه ابن الله الوحيد ، وأنه خلق من الله ، وأنه سابق لجميع الأزمان ، وأنه رب الأرباب ، ونور النور ، وبأنه إله الحق ، وبأنه يشارك الأب في وجوده ، والذي وُجدت به جميع الأشياء ، وبأنه نزل لنجاتنا من السباء ، « وهنالك يخرّ الحاضرون على رُكبهم ، ويحثون » والذي ظهر في الشكل الإنساني بواسطة روح القدس ومريم العذراء ، وتشتمل هذه الكلمة على صفات المسيح الالهية ، وعلى عقيدة الصلب والفداء ، ووحدة الكنيسة المقدسة الملمية ، وأنها مركز الهداية ، والمعمودية ، وحشر الاجساد ، والحياة بعد المات .

ويعقب الصلاة العشاء الربّاني ، والأصل فيه أن القاصدين إلى الكنيسة في الزمن القديم ، كانوا يحملون معهم الرغيف ، والخمر ، « عصير العنب » ويقدمونها إلى المذبح ، فكان القيس يأخذ شيئاً من الخمر ، ويلطّخ بها الخبز ، وكانوا يعتقدون أن هذه الخمر والرغيف يتحولان دم المسيح ولحمه ، فالذي يتناولهما ،

يُعتبر أنه يحمل لحم المسيح ودمه ، والعشاء الرباني تذكار للعشاء الاخير الذي تناوله المسيح في حياته ، أما الآن فيقوم مقام الخمر والخبز نقود يقدمها القاصدون للكنيسة إلى القيس ، أما القسوس ، وأئمة الصلاة في الكنائس ، فلا بد لهم من هذا العشاء التقليدي في شكله الظاهر ، ويوزع الخبز على الحاضرين .

ويُختم ذلك كله بدعاءٍ وجيزٍ ، وهناك تنتهي الصلاة ، وتنتشر الجماعة .

الصلاة عند البروتستانت :

تشارك الصلاة في الكنائس البروتستانية « بقسميها النظامي « Methodist » والإنجليكاني « Anglican » الصلاة الكاثوليكية في أجزاء الإعراف والتوبة والإستغفار ، وتجديد الإيمان ، وتوثيق العقائد الأساسية ، والحمد والشناء ، والدعاء ، وتلاوة الإنجيل ، إلا أن أساليبها وصيغها تابعة لمناهج كنائسها المقررة ، وتتميز بأشياء .

إنها لا تستعمل اللغة اللاتينية مطلقاً ، وثانياً أنها صاغت الأدعية كلها في أناشيد وترنيمات تُغنى بألحان مرسومة مقررة (١) ، وتتميز بصمت يسود عند ذكر الله ، وتمتاز كذلك بحذف عبارات صريحة سافرة ممعنة في تأليه المسيح ، وتسويته بالله تعالى ، والتأمل والسكوت عند بعض الأدعية ، وهنا نموذج للدعاء الجماعي التقليدي :

« أيها الأب السامي ، أنت خلقتنا بحبك ، وأبقيتنا بحبك ، وإن حبك سيكملنا ، إننا نترف بكل عجز أننا لم نحبك بكل قلوبنا ونفوسنا ،

The Methodist Hymnal.

(١) راجع على سبيل المثال :

The Methodist Publishing House U.S.A.

وأنت لم يجب بعضنا بعضاً ، كما أحبنا عيسى المسيح ، إن أرواحنا لا تزال فيها حياة ، ولكن أنانيتنا وأثرتنا أبعدتنا عنك ، إننا حررنا نفوسنا بروحك المقدسة ، وتغافلنا عن نصرتك وتأييدك ، اغفر لنا ما مضى لنا ، وأصلحنا فيما نحن فيه ، وأرشدنا بروحك فيما يستقبلنا ، حتى تتجلى عظمة خلقك في نفوسنا ، وفي نفوس الخلق بواسطة عيسى المسيح الذي هو مولانا وملكنا .

أما الصلاة في الكنيسة الإنجليكانية ، فتتقدم العبادة أجراس تدقّ إيداناً بالصلاة ، وتتلّى قطعة من الإنجيل ، وكلمة الإيمان كنشيد يفتى به .
وفي مناسبات خاصة يُحتفل بتقليد العشاء الرباني ، ويمتد التابعون لهذه الكنيسة أنتم بإحياء هذه الذكرى يزكّون نفوسهم ، ويقوون أرواحهم^(١).
« الصلاة » في الديانة الهندكية :

أما (الصلاة) - أو العبادة بتعبير أصحّ - في الديانة الهندكية ، فسمتها البارزة الإضطراب الهائل في أساليبها ومناهجها ، وتقاليدها ، وأحكامها ، باختلاف الأقاليم والولايات ، والأزمنة والعصور ، والمذاهب والطوائف ، فيجد الباحث في ذلك نفسه في غابة كثيفة تكثر فيها الوهاد والنجاد ، وتلك سمّة العقائد والمبادئ والمناهج الدينية ، والتقاليد الشائعة في الهند ، لذلك وجد كثير من المشرّعين وعلماء الدين صعوبة عظيمة في تعريف «الهندوكي» دينياً وتحديدته المنطقي الضابط .

فالعبادة المفروضة في الديانة الهندكية مضطربة اضطراباً عظيماً ، شديدة المرونة والسعة ، متشعبة الأساليب والمناهج ، غامضة الحدود والشروط ، مبهمّة في الأوضاع والأشكال ، تنقصها الوحدة الشكلية ، والجامعة الإعتقادية ، لذلك

(١) إقرأ للتفصيل : The Book of Common Prayer, The Church of India pakiston, Burma and Ceylon, 1963,

قلّما يجد الباحث صورة واضحة كاملة لها في كتاب، أو بحث لكاتب هندوكي من أساطين الفلسفة، والشريعة، ولعلّ الصورة التي عرضها عالم هندوكي كبير، وآثرنا نقلها تمثل أكبر منطقة في الهند، وأعم أشكال العبادة، فيها .

يقول الأستاذ (T.M.P. Mahadevan) رئيس قسم الفلسفة في جامعة «مدراس» في كتابه «مجل الديانة الهندوكية» (Outlines of Hinduism)^(١) وهو يتحدث عن نظام العبادة الطقسي في الديانة الهندوكية :

« إن تماثيل «وشنو» وتجسداته، وأصنام «شيو» و«شكتي» هي الأصنام المقبولة عند العامة، التي تُعبد في الهياكل والبيوت، ولكن تماثيل «كرشن» في الشمال وتماثيل (kartikaya) في الجنوب، التي لا تُعبد ولا تحصى، هي الأصنام الشعبية التي يؤثرها الدهاء من الهنادك، إن العامة من الهنادك يؤمنون هذه الهياكل على اختلاف طبقاتهم ونحلهم، ويشاهدون فيها الإله الواحد، ويعبدونه .

إن الهندوكي يتلقى إلهه في بيته كضيف كريم، ويؤم الهيكل، وهو يحمل معه الفواكه والأزهار، ليقدمها إلى «ملك الملوك» رمزاً لحبه وإجلاله، ونظام العبادة هو في الحقيقة محاكاة للتقاليد التي يقوم بها إنسان لضيفه الكريم، أو ملكه العظيم، فيرحّب بإلهه، ويعيّن له مكاناً للجلوس، ويفسل قدميه، ويقدم إليه الصندل، والرز، كرمزٍ للولاء والتقدير، ويقلد التمثال عقداً من خيوط، ويلطّخ جبينه بمعجن الصندل، ويقدم له الرياحين، ويبخر العود، ويوقد له الشرج، ويديرها حوله، ويضع أمامه الطعام، ثم يقدم له التنبول^(٢)،

(١) كتاب متوسط في ٢٩٩ صفحة، نشرته مؤسسة (The Tana, limited, Bombay, India)

عام ١٩٥٦م، قدم له الأستاذ الكبير رادا كرشن، رئيس الجمهورية الهندية الأسبق، واتنى عليه .

(٢) ترافقها بعض المواد الحجرية التي تطيب الفم، وتقدم إلى الضيوف .

ويحرق الكافور ، ويقدم إليه الذهب كهدية ، ويسمى زهر الذهب ، وفي الأخير يودع الإله أو الآلهة .

يعامل الإله في الهياكل ، كما يعامل الملوك ، فيوظفونه بالموسيقى والأغاني ، وبعد الإغتسال التقليدي يركس الباس الملوكي ، ويحلى بالحلل والرياحين ، وتدار حوله الأضواء المتفتنة ، ويقدم له الطعام في أوقات معينة ، ويجلس الملك المجلس الملكي كل يوم ، ويشرف عباده بمشاهدته ، ويسمع شكاويهم ، ويشملهم بعطفه ، ونعمته ، ويخرج في جولة في موكب ملوكي ، في الأعياد والمواسم .

وتمثل هذه المسرحية الربانية الغامضة في جميع الهياكل في الهند ، لإغراء أولئك الذين لا يتخلصون من سبل الحياة المملّة التي لا تؤدي إلا إلى مناطق الظلام الحالك . (١)

وهنا وصف آخر ، وتصوير لعبادة الهندية ، بقلم مؤلف أوربي ، يطابق الوصف الأول ، ويزيده وضوحاً وتفصيلاً ، يقول Louisœnon في كتابه «Hinduism» :

« رغم أن العصور القديمة ، لم تكن تعرف عبادة التماثيل ، ولكن مع تقدم صناعة نحت الأصنام والتماثيل ، انتشرت عادة عبادة التماثيل ، لقد أصبح مع الزمن نحت تماثيل الإله أو الآلهة ، ونصبه في مقام مقدّس ، والنظر إليه ككائن حي ، وتدهينه بالزيوت تقاليد هامة .

إنّ مبدأ النشاط الديني الرئيسي هو العبادة ، وطريقته الشائعة في الأوساط الدينية أن «العابد» يركب بالإله كضيف كريم ، فيغسله ويكسوه اللباس ، ويزينه ويطيّبه ، ثم يقدم له الطعام ، وينشر حوله الزهور والرياحين ، ويحمل

المصباح المشتعل أو الشمعة ، ويطوف حوله مغنيًا مزمرًا ، وقد يخرج به في موكب فاخر يلفت الأنظار . ويشير الإعجاب ، وهنا تلتقي الأساطير الدينية القديمة مع الأساطير الشعبية ، وهذه التقاليد تؤدي في شكل جماعي شعبي في المعابد ، لا يتخلسى فيه الفرد عن واجبه الشخصي .

إن بعض الناس ، ولعلّ الكثرة الكاثرة من العامة ينظرون إلى التمثال كإله بنفسه ، وذلك ما يطلق عليه لفظ عبادة الأصنام ، وعند بعض الناس ، ليس التمثال إلاّ رمزاً لقيّم خاصة ، وليست عبادة الأصنام وتقديسها إلاّ « تجسيماً » لهذه القيم المعنوية .

إنّ العابد خصوصاً إذا كان متصلّباً في ديّانته ، ليستعدّ استعداداً عظيماً قبل أن يشرع في العبادة ، فيغتسل ويتنظّف ، ويحدّد الغذاء « بصوم » ، أو كفّ عن تناول الطعام ، ويحافظ على وضع خاص للجسم ، والأصابع ، ويحبس النفس ويتمثّل تسلط الإله على نفسه ، وتلكه لها ، ويردّد الكلمات المقدّسة « منتر » في هدوء وسكوت ، والكلمة المقدّسة « منتر » قد لا تعدو كلمة واحدة ، وقد تتألف بمائة صوت أو أكثر ، فإذا طالت هذه الكلمات ، وردّها القائل ، فلا أهمية إذاً للفظ والصوت ، فيصبحان شكلاً مجرداً ، ففي العبارات التقليدية قد تتجرّد الألفاظ والأصوات عن المعاني ، وقد تشمل بعض الكلمات المردّدة « منتر » على اسم بسيط « الله مثلاً رام رام » فتساعد هذه العبادة على تركيز الفكر على نقطة واحدة ، ويعتقدون أنّ الفرد يجد فيها الأمان ، ويفي بندوره ، ويكفّر بها عن سيئاته .

ومن أوضاع العبادة الشخصية الأخرى تلاوة الكتب المقدّسة ، وأكثر من ذلك المراقبة بطريقة خاصة ، وُصفت وشرحت في يوكا « yoga » ، ومن الممكن أن تورث المراقبة كيفية من الذهول ، والتجرّد من الأنانية ، وتتناقش بها الروح بالحقيقة اللانهائية ، التي لا فناء لها ، وذلك ما تعتبره جميع الديانات الهندية المقصد الحقيقي ، والغاية الرئيسية .

وإلى حدٍ ما ليست العبادة المفروضة ، إلا ما يؤدّيها الفرد في منزله ،
ويقوم بها ثلاث مرات في اليوم ، في الصباح ، وفي الغداة ، وفي المساء ، ويقدم
كثير من الناس ندوراً للآلهة ، والآباء ، والأسلاف^(١) .

ويلاحظ المتتبع لمناهج العبادة وتقاليدها في أقاليم الهند وبيئاتها المختلفة وحدتين
تجمعان بين هذه المناهج قديماً وحديثاً ، وشرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً .

أولهما العناية الزائدة بالفناء والموسيقى ، فقلما تتجرّد العبادة في المعابد
والمنازل عن التنفسي والغزف ، والتصفيق^(٢) بطريقة خاصة ، وقد دخلت
الأغاني والموسيقى في صلب الديانة البرهمنية ، وأصبحت ركناً أساسياً من أركانها ،
والتجأ إليها كثير من علماءهم ، وفلاسفتهم ، وكهنتهم ، لإثارة الرقة والعاطفة ،
والشوق في قلوب العباد من الذكور والإناث ، واشتركت في ذلك جميع الديانات
التي اعتمدت على التجارب الإنسانية ، وعبثت بها يد التعريف ، ودخل فيها
الشرك ، وقد قال الله تعالى عن أهل الجاهلية العربية ، : « وما كان صلاتهم عند
البيت إلا مكاءً وتصديّة^(٣) » وإن كانت هذه الأغاني المطربة ، والمآزف الرنانة ،
والتصفيقات المثيرة ، أفادت من ناحية الرقة والحنان ، كما يحكيه بعض الناس ،
فقد أضرت كثيراً من ناحية الخشوع ، والسكينة والهدوء ، الذي تتطلبه العبادة
لله تعالى .

والوحدة الثانية التي تجمع بين هذه المناهج المختلفة في المكان والزمان ، هي

Louis Renon : Hinduism : Page : 14, 15, 16 (1)

(٢) وقد كان ذلك جزءاً لازماً ، وركناً في عبادة الزعيم «غاندي» التي كان يقوم بها كل يوم
مساءً ، وكانت له طريقة خاصة ، يعلمها بعض خاصته للضيوف الجدد .

(٣) مكاء أي صغيراً ، وتصديّة ، أي تصفيقاً ، روي أنهم كانوا يطوفون عراة ، الرجال
والنساء مشبكين بين أصابعهم ، يصفرون فيها ويصفقون ، «مقتبس من روح الماني العلامة
الأوسي» وروي عن كبار الصحابة والتابعين نحو هذا «راجع تفسير ابن كثير الجزء الثاني، ص ٣٠٧»

التمسك بعبادة الأصنام ، وإلحاح الفلسفة الهندية ، ودياناتها المختلفة على قيمتها وفوائدها ، وآثارها في النفس ، ويعجب الباحث إذا رأى مثل مصلح الديانة البرهمية ، ومجدّدها العظيم شنكر أشاريا Sankar Acharya من رجال القرن السادس المسيحي ، وهو الذي نفى الديانة البوذية من الهند ، وأعاد الديانة البرهمية القديمة إلى مركزها واعتبارها ، يدافع عن عبادة الأصنام والتماثيل ، ويعتبرها مرحلة طبيعية لازمة في تقدم الفكر الديني ، يقول الأستاذ الهندوكي الكبير ، V.S. Ghaté ، رئيس قسم الدراسات الهندوكية في جامعة بومباي ، في مقاله ، في «دائرة معارف الأديان والأخلاق» :

« إن شنكر أشاريا لم يعارض فكرة عبادة الأصنام ، ولم يهاجمها ، إنه يعتبر التمثال رمزاً ومظهراً ، وإنه ذمّ النظام الطقسي «Ritualism» وفلسفة العمل جزاءه ، ولكنه دافع عن الآلهة المقبولة عند العامة ، إنه يقول :

« إن الوثنية حاجة من حاجاتنا الفطرية في مرحلة خاصة من مراحل التطور ، حين تنال الروح الدينية نضجها واكتمالها ، وتبلغ سنّ الرشد يستغني الإنسان عن «الوثنية» فيجب هنالك رفض العلامات والرموز⁽¹⁾ .

وقد جنت هذه الوثنية - مها نظر إليها الفلاسفة وعلماء الديانات الوثنية ، كرمز ومرحلة عابرة - على عقيدة التوحيد ، والإبتهاال إلى الله ، والإخبات له ، وأصبح عبّاد الأصنام مقتصرين على عبادة هذه الأصنام عاضّين عليها بالنواجذ يعيشون عليها ويموتون ، لا يعرفون غيرها ، ولا يلتجئون إليه في حاجاتهم وكثرتهم ، والذي يعبّر هذه المرحلة وينتهي إلى الحقيقة النهائية ، والغاية في هذه العبادات ، كما تخيّل هؤلاء الفلاسفة ، ويخلص لله تعالى العبادة والدعاء ،

« Encyclopaedia of Religion and Ethics » 4th-Edition. 1958-Vol XI, (1)
Article - Sankaracharya»

أعزّ من الكبريت الأحمر ، والعنقاء المُغرِب في هذه الأمم والبلاد ، قد لا يتجاوز عددهم رؤوس الأنامل في أمة كبيرة ، تملأ البلاد ، لذلك كان ما حكاه الله تعالى عن إبراهيم من قول وشكوى ، حقاً ومنطبقاً كل الإنطباق على عبّاد الأوثان والأصنام والآفاق ، « ربّ إنهنّ أضللن كثيراً من الناس » إن هذه الأوثان لم تُضَلّ في الحقيقة ، ولم تكن لها دعوة دينية ، ولكنها استحوذت على عقول عبّادها ، وسيطرت عليها ، وألهتهم عن عبادة الواحد القهار ، فتشاغلوا بها عنه ، وحرّموا سعادة عبادة الله ولذتها ، فكان ذلك هو الضلال المبين .

السنن الرواتب ، وصلاة الوتر :

ونعود إلى الصلاة في الإسلام فنقول قد سنّ رسول الله ﷺ ركعات معدودة يصلى بعضها قبل بعض المكتوبات ، وبعضها بعد بعض المكتوبات ، ويواظب عليها في الحضر ، وكانت كخنادق تحفر لحراسة حصن ، أو كسور يقام حول مدينة ، فلا يمسه سوء ولا يصل إليها عدوّ حتى يعبر هذه الخنادق ، أو يقتحم هذا السور ، فمن حافظ عليها ، كان أجدر بأن يحافظ على الصلوات المكتوبة ، وكان أحرص عليها ، وألزم لها ، ثم إنها تكمل ما وقع في الصلوات المفروضة من نقص ، وتجبر ما طرأ عليها من كسر^(١) .

وقد جاء في الحديث ، عن ابن عمر قال : « صليت مع رسول الله ﷺ ركعتين قبل الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب في بيته ، وركعتين بعد العشاء في بيته ، قال ، وحدثني حفصة ، أن رسول الله ﷺ كان يصلي

(١) روى الترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ، فإن صلحت ، فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت ، فقد خاب وخسر ، فإن انتقص من فريضته شيئاً قال الربّ تعالى انظروا ، هل لعبدي من تطوع ؟ فيكمل به ما انتقص من الفريضة ، ثم يكون سائر أعماله على ذلك .

ركعتين خفيفتين حين يطلع الفجر^(١) وفي رواية ، « من صلى في يوم وليلة اثنتي عشرة ركعة ، بُني له بيت في الجنة ، أربعاً قبل الظهر وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل صلاة الفجر^(٢) وعن عائشة رضي الله عنها رفعتنه : « من ثابر على اثنتي عشرة ركعة من السنة ، بنى الله له بيتاً في الجنة ، أربع ركعات قبل الظهر وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل الفجر^(٣) .

وأخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كان يصلي في بيته قبل الظهر أربعاً ، ثم يخرج فيصلي بالناس ، ثم يدخل فيصلي ركعتين ، وكان يصلي بالناس المغرب ، ثم يدخل ، فيصلي ركعتين ، ثم يصلي بالناس العشاء ، ويدخل بيته ، فيصلي ركعتين ، وكان إذا طلع الفجر صلى ركعتين^(٤) .

وكان يُوتر بعد صلاة العشاء ، أو بعد قيام الليل ، ولا يتركه في سفر ولا حضر ، وقد صح عنه أنه قال : « الوتر حق فمن لم يوتر ، فليس منّا ، الوتر حق فمن لم يوتر ، فليس منّا ، الوتر حق فمن لم يوتر ، فليس منّا^(٥) » وفي رواية عنه أنه قال : « إن الله أمدّكم بصلاة هي خير لكم من حمر النعم ، الوتر ، جعله الله فيما بين صلاة العشاء إلى أن يطلع الفجر^(٦) .

وأهم هذه السنن الراجعة ، هي ركعتان بعد طلوع الفجر ، قالت عائشة رضي الله عنها : « لم يكن النبي ﷺ على شيء من النوافل ، أشدّ تعاهداً منه على ركعتي الفجر^(٧) » ،

وروى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال ، قال النبي ﷺ :

-
- (١) متفق عليه . (٢) رواه الترمذي عن أم حبيبة . (٣) للترمذي والنسائي . (٤) لمسلم وأبي داود (باختصار) . (٥) رواه أبو داود عن بريدة رضي الله عنه . (٦) رواه الترمذي وأبو داود عن خارجة بن حذافة رضي الله عنه . (٧) للسته إلا ما لكأ .

« لا تدعوها ولو طردتكم الخيل » (١) .

تنوع الصلوات ، وتنوع اغراض المسلم منها :

وليست الصلاة مقصورة على فريضة تؤدى في وقتها ، ويتخلّى بها المسلم عما أوجبه الله عليه من فرض ، فذلك فرض لا يقبل الله عنه صرفاً ولا عدلاً ، ولكنها جنة المسلم وسلاحه ، والمفتاح الدائم الذي يفتح به كل قفل ، ويكشف به كل ما غمّ عليه ، وأهمته ، أو شغل خاطره ، ففي الخوف صلاة ، وللإستسقاء صلاة ، وللكسوف صلاة ، وللإستخارة صلاة ، وللحاجة صلاة ، وللتأهب للموت والشهادة صلاة (٢) .

سيرة السلف في هذه الصلاة ،

ونظرتهم اليها :

وعلى المسلم أن يألف هذه الصلاة ، ويرى فيها الأنيس المؤنس ، والمغيث المنجد ، ويتعوّد كلما التوى عليه شيء أو أعياه أمر ، أو كَرَبَه همّ أن يبادر

(١) قال العلامة ابن القيم (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم) في السفر يواظب على سنة الفجر والوتر أشد من جميع النوافل دون سائر السنن ، ولم يتقل عنه في السفر انه (صلى الله عليه وسلم) صلى سنة راتبة غيرهما (زاد المعاد ج ١ ص ٨١) وقال في موضع آخر : « كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسافرون فيتطوعون قبل المكتوبة وبعدها ، وروي هذا عن عمر وعلي وابن مسعود وجابر وأنس وابن عباس وإبي ذر ، واما ابن عمر فكان لا يتطوع قبل الفريضة ولا بعدها إلا من جوف الليل مع الوتر ، وهذا هو الظاهر من هدي النبي صلى الله عليه وسلم ، انه كان لا يصلي قبل الفريضة المقصورة ولا بعدها شيئاً ، ولم يكن يمنع من التطوع قبلها ولا بعدها ، فهو كالتطوع المطلق ، لا انه سنة راتبة بالصلاة كسنة صلاة الإقامة ، (زاد المعاد ج ١ ص ١٢٩)

(٢) روى البخاري في صحيحه « في باب كرامة الأولياء وفضلهم » عن ابي هريرة رضي الله عنه : أن خبيباً لما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحل ، قال لهم خبيب ، دعوني اصلي ركعتين ، فتركوه ، فركع ركعتين ، فقال ، والله ، لولا أن محسبوا أن ما بي جزع لزودت ، وكان خبيب هو الذي من هذه السنة .

إلى باب الكرم فيطرقة ، ويلجّ به حتى يؤذن بالفتح ، وقد كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، والتابعون لهم بإحسان في كل جيل ، قد تعودوا ذلك ، وكان شأنهم مع الصلاة شأن الجندي مع سيفه ، وشأن الغني مع ثروته ، وشأن الطفل الصغير مع بكائه وصراخه ، واستعطافه للأم الحنون ، بل كانوا أكثر إدلالاً وثقة بصلاتهم ، وأقوى اعتماداً عليها من كل ذلك ، وأصبح ذلك طبيعة لهم لا تفارقهم ، فإذا أفرغوا أو أثروا ، وإذا دهمهم عدوٌّ ، أو تأخر عليهم فتح ، أو التبس عليهم أمر ، إلتجأوا إلى الصلاة وفزعوا إليها .

وقد كان على هذه السيرة أئمة الإسلام ، وأعلام هذه الأمة ، وقادة المسلمين في كل عصر ، وقد حكي عن شيخ الإسلام ابن تيمية ، أنه إذا أشكلت عليه آية ، أو التوى عليه علم ، عمد إلى بعض المساجد المهجورة ، فقام يصلي ، فيعفّر وجهه بالتراب ويطيل السجود ، ويقول : « يا معلّم إبراهيم علّمني ، وكان شديد الإبتهال ، عظيم التذلل لله تعالى ، يفتخر بأنه سائل مستجد ، عريق في « الشّحادة » ورثها أباً عن جدِّ ، قد سمع ينشد في بعض مناجاته ودعواته :

أنا المكديّ وابن المكديّ وهكذا كان أبي وجدّي^(١)

قيام الليل ، فضله وتأثيره ، وشأن السلف فيه ، وحاجة العالمين والدعاة إليه :

وأقوى وسيلة لتغذية الروح وشحن « بطارية » القلب ، قيام الليل الذي أكثر القرآن من الحثّ عليه ، والترغيب فيه ، ومدح أصحابه حتى كأنه ملحق بالفرائض ، وتابع لها ، ولذلك سمّي نافلة ، وكان رسول الله ﷺ لا

(١) مدارج السالكين - ج ١ - ص ٢٩٦ ، طبعة (النار) .

يتركه في حضر وسفر^(١) ، ويذهب كثير من علماء الإسلام ، أنه كان فرضاً عليه^(٢) ، وقد قال الله تعالى : « يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلاً ، نصفه أو انقص منه قليلاً . أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً . إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ، إن ناشئة الليل هي أشدّ وطأً وأقوم قيلاً ، إن لك في النهار سبحاً طويلاً ، فاذكر اسم ربك وتبتّل اليه تبتيلاً ، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً^(٣) » وقال : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً^(٤) » ولذلك كان رسول الله ﷺ شديد المحافظة عليه ، عظيم الحرص والرغبة فيه ، وكان يقوم حتى تتورّم رجلاه ، يقول المغيرة بن شعبة : قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه ، فقيل له ، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً^(٥) » وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها : « قام النبي ﷺ بآية من القرآن ليلة » .

ويعرف المتتبع لأخبار الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، والذي يطالع دواوين الحديث ، وكتب السيرة والتاريخ ، أن قيام الليل كان فاشياً منتشرأ فيهم ، حتى أصبح شعاراً لهم ، وقد وُصفوا أمام «هرقل» وقادته بأنهم « بالليل رهبان وبالنهار فرسان» ويصفهم سيد التابعين ، ومن أعرّف الناس بالصحابة ، الإمام الحسن البصري ، فيقول :

« إن المؤمنين لما جاءتهم هذه الدعوة من الله صدّقوا بها وأفضى يقينها إلى

-
- (١) قال العلامة ابن القيم : « ولم يكن صلى الله عليه وسلم يدع قيام الليل حضراً ولا سفراً ، وكان إذا غلبه نوم أو وجع ، صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة - (زاد المعاد - ج ١ ص ٨٤) .
- (٢) قال العلامة بجر العلوم : « اختلفوا ، اكانت صلاة التهجد فرضاً عليه أم تطوعاً ، ذهب إلى الأول جمع ، ومنهم اصحاب الأصول من مذهبنا ، وقال القسطلاني : إليه ذهب اكثر الاصحاب يعني الشافعية ، وذهب جمع إلى الثاني» رسائل الأركان ، ص ١٣٤ طبع لكهنؤ .
- (٣) سورة المزمّل - ١ - ٩ . (٤) سورة بني اسرائيل - ٧٩ .
- (٥) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

قلوبهم ، خشعت لله قلوبهم وأبدانهم وأبصارهم ، كنت والله إذا رأيتهم رأيت قوماً كأنهم رأي عين ، ما كانوا بأهل جدل ولا باطل ، ولكنهم جاءهم أمر عن الله فصدّ قوا به ، ففنعتهم الله في القرآن أحسن نعت « قال : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » [إلى أن يقول] : ثم ذكر ليلهم خير ليل ، فقال : « والذين يبنيون لرّبهم سجّداً وقياماً »^(١) ينتصبون لله على أقدامهم ، ويفترشون وجوههم سجّداً لرّبهم ، تجري دموعهم على خدودهم ، فرقاً من ربّهم ، قال الحسن لأمر ما سهروا ليلهم ، ولأمر ما خشعوا نهارهم^(٢) .

وقد كان شعاراً للصالحين والربانيين ، والدعاة والمجاهدين ، والمرتبين المصلحين في كل عصر ، وفي كل طبقة ، وقد كانوا يأخذون لكفاحهم بالنهار ، ولأشغالهم التي تتطلب قوة خارقة للعادة ، وصبراً لا نفاذ له ، زاداً ووقوداً من عبادتهم في الليل ، ومن يقظتهم في الأسحار ، ولا يفهم الإنسان سر قوة اولئك العلماء الربانيين ، والدعاة المصلحين ، ومشاربهم على الجهاد في التعليم والإصلاح ، وتحملهم للمشاق والحزن ، إلا من رأى مواقفهم بالليل ، وشأنهم مع ربّهم تبارك وتعالى . حتى كان اولئك العلماء الذين قد يعتقد من لا يعرف حقيقتهم ، أنهم كانوا من علماء الظاهر ، ويتهمهم بالجفاف والخشونة ، من كبار المهتمين بقيام الليل ، والذكر والتسبيح ، فما ظن القاريء الكريم ، بالذين اشتهروا بكثرة العبادة وشدة الزهد ، ورقة القلب والإنقطاع إلى تربية النفوس ، أمثال الشيخ عبدالقادر الجيلاني ، والشيخ شهاب الدين السهروردي ، والشيخ أحمد عبد الأحد السرهندي ، والسيد أحمد بن عرفان الشهيد الهندي ، يقول العلامة ابن قيم عن شيخه وأستاذه شيخ الإسلام ابن تيمية

« صلتى شيخ الإسلام مرة صلاة الفجر ، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب

(١) سورة الفرقان - ٦٣ - ٦٤ .

(٢) كتاب قيام الليل (للمحدث الكبير محمد بن نصر المروزي المتوفى ٥٢٩٤هـ) طبع

لاهور ١٣٢٠هـ .

من انتصاف النهار ، ثم التفت إليّ ، وقال ، هذه غدوتي ، ولم أتعدّ ، ولو لم أتعدّ الغداء سقطت قوتي ، أو كلاماً قريباً من هذا^(١) .

وكذلك كان شأن تلميذه ابن قيم الجوزية ، فيقول المؤرخ ابن كثير ، وهو يصفه ، « لا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه ، وكانت له طريقة في الصلاة ، يظليها جداً ويمدّ ركوعها وسجودها ، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان ، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك^(٢) » .

ويقول العلامة ابن رجب الحنبلي ، « وكان ذا عبادة وتهجد ، وطول صلاة ، إلى الغاية القصوى ، وتألّثه ولهج بذكر الله ، وشغف بالحبة والإنابة والإفتقار إلى الله تعالى ، والإنكسار له ، والإطراح بين يديه على عتبة عبوديته ، لم أشاهد مثله في ذلك^(٣) » .

وأغرب من ذلك كله ، أمر العلامة الحافظ عبد الرحمن بن الجوزي الذي هو زعيم النُقّاد ، وحامل لواء الردّ على غلاة الزهاد والعبّاد ، يقول سبطه أبو المظفر ، وكان يختم القرآن في كل سبعة أيام ، وقال ابن النجار ، له حظ من الأذواق الصحيحة ، ونصيب من شرب حلاوة المناجاة ، وقد ذكر ابن القادسي : « إنه كان يقوم الليل ولا يكاد يفتر عن ذكر الله^(٤) » .

وهكذا كان أئمة المسلمين وقادتهم ، وزعماء الإصلاح والتجديد ، ورجال التعليم والتربية ، ومن نفع الله المسلمين بنفوسهم وأنفاسهم ، وكتب لمآثرهم وآثارهم الإنتشار الواسع والبقاء الطويل ، والقبول العظيم والذكر الجميل ، من

(١) مجموعة الواابل الصيب لابن القيم ، ص ٧١٩ - ٧٢٠ (مطبعة المنار) .

(٢) البداية والنهاية - ج ١٤ - ص ٣٣٥ . (٣) التاج المكلل ، ص ٤١٧ ، نقلًا من

طبقات الحنابلة . (٤) ملنقط من التاج المكلل - للعلامة الامير صديق حسن خان .

أصحاب العبادة والسهرة في الليالي، والقيام في الأسحار، وأصحاب الصلوة الروحية بالله تعالى، وهكذا كان وسيظلّ، فلا تنشأ يقظة عن غفلة، ولا نهضة عن جمود وخمود، ولا حياة من موت، ولا انتباه وانتعاش من قساوة وفتور:

« سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً (١) » .

ثمرة النوافل، والاكثار من الصلاة، وآثاره:

وللمحافظة على الصلوات - بقلبها وروحها - والإكثار من النوافل تأثير لا يعرف لغيرها في صفاء النفس، والسمو الروحي، والإتصال بعالم القدس وتلقّي التجليات الأخروية، لذلك جاء في الحديث، « أما، إنكم سترون ربكم كما ترون هذا (٢) »، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قال: « فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها (٣) » .

وقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: « أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام؟ فإني سمعت دُفّ نعليك بين يدي في الجنة، قال: ما عملت عملاً أرجى عندي، أني لم أتطهر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار، إلاّ صلّيت بذلك الطهور ما كتبت لي أن أصلي (٤) »

والنوافل والإكثار منها سبب كبير في تقوية محبة الله تعالى، وجلب رحمته واصطفائه، لذلك أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم على من طلب منه المرافقة في الجنة بتكثير النوافل وكثرة السجود، فقد روى مسلم، « عن أبي فراس ربيعة

(٢) قال هذا، وأشار إلى القمر .

(١) سورة الأحزاب - ٦٢ .

(٣) رواه البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري . (٤) رواه البخاري (١٦) في باب

(فضل الطهور)

ابن كعب الأسلمي خادم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن أهل الصفة رضي الله تعالى عنهم ، قال : كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فأتيه بوضوءه وحاجته ، فقال : « سلمي ! فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة ! فقال : أو غير ذلك ، قلت : هو ذاك ! قال : « فأعني على نفسك بكثرة السجود (١) »

وهي كذلك تورث إضمحلال العبد في إرادة الله تعالى وخشيته ، وحبه ، والإنسلاخ عن الطبيعة السبعية ، أو البهيمية ، التي هي مصدر الظلم والظفیان ، والإثم والعدوان ، ومصدر الهوى ، ومخالفة أمر الله ، ولذلك جاء في الحديث الصحيح ، « ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ولإن استعاذني لأعيذنه (٢) »

تفاوت الصلوات التفاوت الكبير ، وتفاضل أهلها التفاضل العظيم :

وليست الصلاة قلباً حديدياً ، وشيئاً جامداً محدوداً ، يتساوى فيه الناس ، ويتوقف المصلي فيها على مستوى واحد لا يتجاوزه ، إنما هي ساحة واسعة يتدرج فيها المصلي من حال إلى حال ، ومن بدءٍ إلى كمال ، ومن كمال إلى ما لا يخطر على البال ، ويتفاضل فيها الناس تفاضلاً كبيراً ، فليست الصلاة مع الغفلة والجهل ، مثل الصلاة مع الإستحضار والتفقه ، وليست صلاة عامة المسلمين مثل

(١) رواه مسلم . (٢) رواه البخاري ، يقول العلامة ابن حجر العسقلاني في شرح هذا الحديث نقلاً عن بعض العارفين ، « انه حمله على مقام الفناء والحو ، وانه الغاية التي لا شيء وراءها ، وهو ان يكون قائماً بإقامة الله له ، محباً بحبته له ، ناظراً بنظره له . من غير ان تبقي معه بقية تناط باسم او تقف على رسم . او تتعلق بأمر . او توصف بوصف - ومعنى هذا الكلام ، انه يشهد ، إقامة الله له حتى قام ، وعجبته له حتى احبه ، ونظره إلى عبده حتى اقبل ناظراً إليه بقلبه » (فتح الباري ج ١١ - ص ٢٩٦) .

صلاة العارفين ، وأهل اليقين ، ولا يجب أن تكون صلاة كل أحد في اليوم مثل صلاته بالأمس ، وقبل شهر وسنين .

ولذلك يذكر القرآن نوعين من الصلاة ، يذم أحدهما ويمدح الآخر فيقول : « فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراؤون . ويمنعون الماعون (١) » ويقول : قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون (٢) » كذلك يذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، نوعين من الصلاة ، صلاة خاشعة مقبولة ، وصلاة ساهية منقوصة ، فيقول عن النوع الأول : « وقد توضع فأحسن الوضوء ، ثم قال : « من توضع وضوئي هذا ، ثم يصلي ركعتين لا يحدث نفسه فيها بشيء غفر له ما تقدم من ذنبه » (٣) وعن عقبه بن عامر رضي الله عنه ، قال ، قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ، ثم يقوم فيصلي ركعتين مقبلا عليها بقلبه ووجهه ، إلاّ وجبت له الجنة (٤) » وقال عن النوع الثاني ، كما روى عنه عمار بن ياسر ، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرجل لينصرف وما كتب له إلاّ عشر صلاته ، تسعها ، ثمها ، سبعها ، سدسها ، خمسها ، رابعها ، ثلثها ، نصفها (٥) » وقال : « أسوأ الناس سرقة الذي يسرق صلاته ، قالوا ، يا رسول الله ، وكيف يسرق صلاته ؟ قال : لا يتم ركوعها ، ولا سجودها (٦) » وعن أنس رضي الله عنه ، قال ، قال رسول الله ﷺ : « تلك صلاة المنافق ، يجلس يرقب الشمس ، حتى إذا اصفرت ، وكانت بين قرني الشيطان ، قام ، فنقر أربعاً ، لا يذكر الله فيها إلاّ قليلاً (٧) »

وتفاضل الناس في الصلاة تفاضلاً ، حتى كانت صلاة الواحد منهم لا تقاس

(١) سورة الماعون ٤ - ٥ - ٦ - ٧ . (٢) سورة المؤمنون ١ - ٢ - ٣ .

(٣) رواه البخاري ومسلم عن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ، واللفظ للبخاري .

(٤) رواه مسلم . (٥) رواه ابوداود والنسائي .

(٦) رواه الدارمي وأحمد . (٧) رواه مسلم .

بصلاة الآخر ، وكانت صلاة رسول الله ﷺ أفضل وأكمل وأسمى ، وأرقى ، وأثقل عند الله في الميزان من كل صلاة ، وكانت صلاة أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، أقرب إلى صلاة رسول الله ﷺ ، وأشبه بها من صلاة غيره ، لذلك اختاره رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ليكون في مكانه ، ويؤم الناس في وجعه الأخير ، وقال - مع اقتراح عائشة أم المؤمنين أن يؤم عمر - مروا أبا بكر فليصل بالناس (١) « وكذلك كان .

والناس يتفاضلون في الصلاة قبل أن يتفاضلوا في غيرها ، - من فضل علم أو ذكاء - وهي المقياس الصحيح ، وبها يُحكّم على دين الرجل ، ومكاته في الإسلام ، وليس امتياز هؤلاء الرجال الذين خلد التاريخ ذكرهم ، وكان لهم فضل في الأقران والمعاصرين ، ولسان صدق في الآخرين ، إلا لامتيازهم في هذه الصلاة ، وتفوقهم فيها على معاصريهم وأضرابهم ، وبلوغهم فيها درجة « الإحسان » ووصولهم فيها إلى أسمى مكان .

فضل الصلاة والقرآن بعد وفاة الرسول

صلى الله عليه وسلم ، وختم النبوة :

كانت النبوة شمساً وهاجة تُشرق على هذا العالم ، وتملأ النفوس والقلوب نوراً وحرارة ، وقوة وحياة ، وترتبطها بخالقها ربطاً قوياً وثيقاً ، في أقل وقت وأكثر عدد ، وتنقل - من أراد الله به الخير - من حضيض الجهل والغواية ، والغفلة والبطالة ، وسوء المعرفة والضلالة ، إلى ذرى العلم والحكمة ، والطموح وعلو الهمة ، وإلى أقصى مدارج الوصول والكمال ، وإلى أعلى منازل القرب والولاية ، واتصلت بعثاتهم ودعواتهم صلوات الله عليهم حتى كانت بعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، على فترة من الرسل ، فكانت شخصيته ، هي أقوى

(١) رواه البخاري في الصحيح .

شخصيات الرسل ، وكانت دعوته هي أتم الدعوات ، وكانت صحبتته هي الإكسير الأعظم ، الذي يحول العداء الشديد حباً وتفانياً والبعد عن الله والوحشة منه ، قرباً منه وأنساً به ووصولاً إليه ، وكان الناس يشعرون في صحبتته ، كأنما يمرّ بهم التيار الكهربائي ، وكانوا ينتقلون في لحظات ، من الشك في الدين ، والظن والتخمين ، إلى أعلى درجات الإيمان واليقين ^(١) وكان وجوده ﷺ في أمته أقوى سبب الإتصال بالله تعالى ، وقطع منازل القرب والولاية .

ولكن الله تعالى قدّر لهذه الحياة الكريمة نهاية كما قدّر لحياة غيره ، « وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل » ^(٢) « وأكمل به دينه ، وأتم به نعمته ، فقال : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » ^(٣) » وختم به الأنبياء والرسل ، « ما كان أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ^(٤) وانقطع اتصال السماء بالأرض لوحي جديد ، أو رسالة جديدة ، فكان لا بدّ أن يملأ هذا الفراغ الذي يتركه انقطاع النبوات ، وانتقال آخر الأنبياء وخاتم الرسل من هذه الدنيا ، ويربط الخلق بالحق ربطاً وثيقاً مباشراً ، ويملأ صدورهم إيماناً ، وحكمة وقوة روحية ، ويشعل عاطفتهم ، ويثلب جذوة قلوبهم ، ويصلون به أعلى درجات الإيمان واليقين ، ومنازل القرب والولاية .

وكان ذلك العوض والخليفة هو الكتاب المعجز الخالد ، الذي يتدفق بالحياة والقوة ، والذي لا تبلى جدته ، ولا تنقضي عجائبه ، « والصلاة » التي تزخر

(١) اقرأ قصة فضالة وما وقع له في عمرة القضاء ، وهو يريد قتل النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف ، وقرأ ما حكى عمرو بن العاص عن نفسه عند موته في صحيح مسلم ، وقرأ قصة عكرمة بن جهل وقوة إيمانه وحسن بلائه بعد إسلامه ، في كتب السيرة والتاريخ ، والأخبار في ذلك أكثر من ان تستقصى .

(٢) سورة آل عمران - ١٤٤ . (٣) سورة المائدة ٣ . (٤) سورة الاحزاب ٤٠ .

بالقوة والحيوية كذلك ، ولها من الفضل والتأثير في ربط الصلة بالله والوصول إليه ، وقطع منازل القرب والولاية ، ما ليس لشيء آخر في الدين ، وبها وصل المخلصون والمجاهدون من هذه الأمة في كل عصر وجيل إلى مكانة في الإيمان واليقين ، والعلم والمعرفة ، والربانية والروحانية ، والقرب والولاية لا يصل إليها ذكاء الأذكياء ، وقياس العقلاء والحكماء ، وما زالوا في عدد يفوت العدد والإحصاء ، ولا يزالان يفيضان النمو والحياة ، والجدة والنشاط ، والروحانية الصافية الدافقة في نفوس هذه الأمة وأجيالها ، تستغني بها هذه الأمة ، عن نبوة جديدة وبعثة جديدة ، وتعيش متصلة بالله مرتبطة به ، في كل دور من أدوار حياتها ، وفي كل عهد من عهود التاريخ ، تستمد لنفسها من القرآن والصلاة ، رابطة قلبية ، وقوة روحية ، وتمتد إلى العالم المعاصر ، يد الدلالة والهداية ، ولذلك يقول الله تعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ، ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واعتصموا بالله ، هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير (١) » .

الصلاة ميراث النبوة ، بروحها وأحكامها ، متوارثة في الأمة بظواهرها وباطنها :

والصلاة ميراث النبوة ، والتراث النبوي الخالد العظيم ، الذي يجب أن تتوارثه ، وتتناقله هذه الأمة جيلاً بعد جيل ، وعصراً بعد عصر ، وطبقة بعد طبقة ، يجب أن تتوارثها بأوضاعها وآدابها ، وتفصيلها وأحكامها ، وقد فملت ذلك بفضل التوارث والتعامل ، وبفضل جهود المحدثين والفقهاء الذين رووا أخبارها ، ودوتوا أحكامها ، وما يفرض ، وما يجب ، وما يندب إليه وما يستحب ، وما هو سنة وما يخالفها ، وما يجوز وما لا يجوز ، فجزاهم

(١) سورة الحج - ٧٨ .

الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

وهكذا كان يجب أن تتوارث هذه الأمة روحها وحقيقتها ، وخشوعها وإيانتها ، وحرارتها ورقتها ، وقد كانت صلاة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم جامعة بين أوضاع وأحكام ، وبين روح وحقيقة ، وخشوع ورقة ، وقد سنَّيل عن الإحسان ، فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ^(١) » وقد كانت صلاته صلى الله عليه وعلى آله وسلم هي المثل الكامل للإحسان ، وقد روى مطرف عن أبيه ، قال : « رأيت رسول الله ﷺ يصلِّي وفي صدره أزين كأزين الرحي من البكاء ^(٢) » .

وقد كانت صلاة الخلفاء الراشدين والصحابة ، وكثير من التابعين ، ومن جاء بعدهم من المحلصين والرابنين ، وأهل القلوب الصادقة الخاشعة صورة للصلاة النبوية ، ومرآة لها ، وقد روت كتب التاريخ ، والطبقات والتراجم ، الشيء الكثير من طولها وجمالها ، وخشوعها ورقتها ، فقد جاء في حديث الهجره ، عن عائشة رضي الله عنها ، وكان أبو بكر رجلاً بكساً ، ألا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ^(٣) » وقالت : لما أمر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في شدة مرضه ، أن يتقدم أبو بكر ، فيصلي بالمسلمين ، وقال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » « إن أبا بكر رجل رقيق ، وفي رواية أسيف ، إذا قرأ غلب عليه البكاء ^(٤) » وقال الحسن البصري رحمه الله : « كان عمر رضوان الله عليه ، يمرّ بالآية من ورده بالليل فيبكي حتى يسقط ، ويبقى في البيت حتى يعاد للمرض ، وعن ابن عمر رضي الله عنه ، قال ، غلب على عمر رضوان الله عليه البكاء وهو يصلي بالناس صلاة الصبح فسمعت حنينه من وراء ثلاثة صفوف ، « وعن علقمة بن

(١) حديث متفق عليه . (٢) رواه أبو داود (٣) الجامع الصحيح للبخاري - الجزء الأول (باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه إلى المدينة المنورة) .
(٤) الصحيح للبخاري (باب اهل العلم والفضل أحق بالامامة) .

وقاص قال : « كان عمر يقرأ في العشاء الآخرة يوسف ، وأنا في مؤخر الصف حتى إذا ذكر يوسف عليه السلام سمعت نشيجه^(١) » وعن عبد الله بن شداد سمعت نشيخ عمر وأنا في آخر الصفوف ، يقرأ ، « إنما أشكو بثي وحزني إلى الله^(٢) » .

واجب قادة الاصلاح ، ورجال التعليم والتربية ، والحركات الدينية :

ومن واجبات هذه الأمة وعلمائها ومربيها ، بالأخص ، أن لا ينقطع هذا الإرث ، وأن لا تضيع هذه الثروة المباركة ، وأن لا ينطفئ هذا النور مهما تغيرت الأوضاع ، وغزت المادية القلوب والنفوس ، فإنها خسارة لا تعوّض بشيء ، وفراغ لا يملأ بأكبر قسط من الأحكام الفقهية ، وأسرار التشريع ، وذلاقة اللسان وسيلان القلم ، ولا أمل في حركة إصلاحية ، أو محاولة لبعث إسلامي ، إلا إذا ألهبت جذوة الإيمان ، والحب والحنان ، في نفوس أصحابها ودعاتها ، وأعدت إلى الأمة - عن طريق دعوتها وتربيتها وجهادها - ظلال تلك الصلاة الخاشعة الرقيقة ، التي امتازت بها القرون ، المشهود لها بالخير ، وعرفت كيف تقوم أمام ربها في الصلاة قبل أن تعرف كيف تقف أمام عدوها ، وفي المشكلات والأزمات ، وصدق إمام دار الهجرة مالك بن أنس ، إذ قال ، « لن يصلح آخر هذه الأمة ، إلا ما أصلح أولها » وصدق الله العظيم :

« قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون^(٣) » .

(١) تاريخ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لابن الجوزي . (٢) ذكره البخاري .

(٣) سورة المؤمنون - ١ - ٢ .

الزكاة

الزَّكَاةُ

« فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين » (١)

صلة الرب والعبد ، وما توجهه
من حب وإخلاص ، وبذل وإيثار :

لاحظ الصلة الغريبة الفريدة التي تقوم بين الربّ والعبد ، وهي صلة لا يوجد لها نظير ولا أساس للقياس من بين الصلّات ، في الأصالة والعمق ، والسعة والإحتواء ، والشمول والإحاطة (٢) ، وأقل ما يقال فيها ، إنها صلة الخالق والمخلوق ، والرب والمربوب ، والرازق والمرزوق ، والمالك والمملوك ، والحاكم والمحكوم ، إنها صلة بين سيّد كريم وربّ رحيم ، وبين انسان فقير وعبد ذليل ، توجب صفات هذا الرب الكريم الكمالية ، وأفعاله البديعة ، وربوبيته الحكيمة الرحيمة ، ورعايته اللطيفة الدقيقة ، أن يخلص له الحبّ ويهم به القلب ، وتبذل في سبيله المهج والأرواح ، فضلاً عن الأموال والأملك .

مظاهر الربوبية والعناية بالانسان :

وتأمّل في مظاهر ربوبيته الشاملة ، وهدايته الواسعة في هذا العالم ، وعنايته الفاتقة بهذا الإنسان ، فهو الذي خلع عليه لباس الوجود المتناسب ، وهياتّه للإنتفاع بخيرات الأرض وطيبّاتها ، وذخائرها وكنوزها ، ووسائلها وطاقاتها ،

(١) سورة براءة - ١١ . (٢) سبق له بحث طويل في موضوع الصلاة .

تهيئة حكيمة دقيقة ، وألمه حببها والبحث عنها والفناء في سبيلها وطرق استخدامها ، والتعاون في تنظيمها ومبادلتها مع أبناء جنسه .

وقد تجلّت صفة الروبيّة والهداية في جميع الأنواع والأجناس ، وفي جميع الأصناف والموجودات ، «الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى»^(١) ، وكان للإنسان الذي هو خليفة الله في الأرض من ذلك النصيب الأوفر ، والمركز الرئيسي، «ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلاً»^(٢) ، فدلّل له مناكب الأرض ، ووطأ له أكنافها ، وحثّه على استشارة دفائنها ، واستخراج خيراتها ومكائنها ، «هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه»^(٣) ، وسخّر له منابع القوت ومصادر الغذاء ، وقوائم الحياة ، وهي الحبوب ، والماء ، والنار ، الوسائل الأصيلة الفطريّة ، الأساسيّة الرئيسيّة ، التي تقوم عليها الحياة البدائية فضلاً عن المدنيّة الراقية ، «أفرأيتم ما تحرثون ، أنتم تزرعون أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلنا حطاماً فظلمت تفكّهون ، إننا لمنرمون ، بل نحن محرمون ، أفرأيتم الماء الذي تشربون أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون . أفرأيتم النار التي تورون أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين»^(٤) .

الطبيعة البشرية ، وما لها من أثر في الحياة والمدنيّة :

ثمّ أودع طبيعته - خلافاً لطبائع الجمادات والحيوانات - حب التجميل والأناقة والتطرّف والنظافة ، والتنوع ، والتوسع في المطاعم والمشارب ، والزيادة في الحرث والنسل الطبيعيّة التي تكتسب بها الحياة البشرية حرارتها ونشاطها ، وحماسها وكفاحها ، ويكتسب بها هذا العالم عاطفة التقدّم والراقي ، والتغيّر

(١) سورة طه : آية - ٥٠ . (٢) سورة الاسراء - ٧٠ . (٣) سورة الملك - ١٥ .

(٤) سورة الواقعة - ٦٣ - ٧٣ .

والطرافة ، فأرخی له العنان :

« كلاً نمدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربِّك وما كان عطاء ربِّك محظوراً (١) »
« أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً (٢) »

وألمه التعاون و ضمانة الحقوق ، والحرص على سلامة الطرق وأمن البلاد ،
وحبّ الأسفار والمغامرات في سبيل الرزق الكريم ، وجلب المنافع المشتركة ،
فأودع كلّ ذلك الطبيعة البشرية على اختلاف أدوارها وتنوّع أمصارها ،
« لإيلاف قريش إيلافهم ، رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا ربّ هذا البيت الذي
أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (٣) » .

الوضع والواقع ، يقتضيان أن لا يُقرر للإنسان ملك
ولا يضاف إليه شيء ، وأن يكون الملك كله لله :

فكان هذا الوضع الفطري ، وكان هذا الواقع العملي الذي ظهر فيه عجز
الإنسان وفقره ، وضعفه وتفاهته في أجلى أشكالها ، وظهرت فيه الروبوتية
الإلهية في أروع مظاهرها ، يقتضي بحكم العقل والمنطق والوجدان السليم ، أن
لا يُقرر للإنسان ملك ، ولا يتحقق له حق ، ولا يضاف إليه شيء ، إلا كما
يُضاف إلى طفل صغير ، أو رضيع محمول ، يتقلب في حنان أمّه وعطف أبيه ،
ويحبو ويدرج في نعمتها ، ويرتع ويسرح في ظل جهدهما وكدهما ، بل هو
أقلّ شأنًا وأكثر هوانًا في هذا الكون الكبير ويجوار هذا الرب العليّ القدير من
هذا الطفل الصغير في بيت أبيه الكبير ، « وله المثل الأعلى في السموات والأرض ،

(١) سورة الاسراء - ٢٠ .

(٢) سورة الاسراء - ٢١ .

(٣) سورة قريش .

وهو العزيز الحكيم^(١) ، ووجب أن يُضاف كل شيء مما تملكه الإنسان ، وأضافه إلى نفسه جهلاً من أموال ومكاسب إلى من خلقها ونبتّها ، وحرسها وصانها ، ومكّن الإنسان منها لغرض محدود ، ووقت محدود ، وطريق محدود .

الفكرة الأساسية في النظام الاقتصادي

الاسلامي ، تقرير الملكية الحقيقية لله تعالى :

ولهذه الحقيقة التي تسيطر على الحقائق كلها ، وهي الروح التي تسيطر على جميع النظم الدينية الخلقية والاقتصادية ، اضاف القرآن هذه الاحوال الانسانية كلها الى الله تبارك وتعالى ولم يقرر للإنسان إلا منصب الأمانة والخلافة ، فخطب المسلمين تارة بقوله : « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم »^(٢) ، وطوراً بقوله : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه »^(٣) ، وقرر أن الله هو المالك الحقيقي ، والوارث الحقيقي ، فليس لإنسان يرضخ بجزء يسير من هذا المال من* ولافضل ، وليست له مأثرة يُدلّ بها ، ولا مفخرة يتبها ، فقال : « وما لكم أن لا تنفقوا في سبيل الله ، والله ميراث السموات والأرض »^(٤) ، وكان مقتضى هذا الوضع ، أن يطلب من الإنسان أن يتخلى عن كل ما يملكه ، ولا يُمنح حق التصرف في ماله في قليل ولا كثير ، وأن يبقى مغلول اليد ، مقيد الإوادة ، مشلول الحرية .

سر إضافة الأموال والملكية إلى الانسان ، وفائدتها :

ولكن الله سبحانه وتعالى لم يفعل ذلك ، ولم يجر القرآن - وهو الكتاب السماوي الأخير - على نمط واحد من إضافة هذه الأموال وتناجج الجهود

(١) سورة الروم - ٢٧ .

(٢) سورة النور - ٣٣ .

(٣) سورة الحديد - ٧ .

(٤) سورة الحديد - ١٠ .

الإنسانية وثمرات كفاحه إلى الله تبارك وتعالى في كل مناسبة ، فلو فعل ذلك لما أثار دهشة واستغراباً ، لما قدمناه ، ولكنه لو فعل ذلك لأفقد الإنسان ثقته بنفسه ، واعتزازه بكرامته ، واعتماده على قواه وطاقاته ، وحرمه عاطفة الكدح ، ونشوة الطموح ، ودافع التنافس ، ولذة الحياة التي يجدها الإنسان في نسبة الأشياء إلى نفسه ورؤية نتائج سعيه وجهده ، هذه هي اللذة الفطرية التي تراود الأطفال الصغار لنسبة كل ما حواه بيتهم ، أو ملكه آبائهم ، إلى أنفسهم ، وحرم بذلك الإنسان دافع الحب والإشفاق ، والنصح والإخلاص ، في حراسة هذه الأموال والأموال ، وتزكيتها وإيمانها ، وإثمارها وإنتاجها ، وجرّد الحياة البشرية من أقوى عوامل زحفها وصراعها ، وجهادها وكفاحها ، وأصبح العالم كلّه مصنعاً كبيراً ، يتحرك فيه بنو آدم كآلات صّماء ، لا قلب لهم ولا ضمير ، ولا متعة لهم ولا لذة .

فذلك كانت إضافة القرآن للأموال إلى أصحاب كسبها وانتاجها ، واقتنائها وإحرازها ، ، أكثر من إضافتها إلى خالقها ورازقها ، فقال : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون^(١) » وقال : « الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا متناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون^(٢) » وقال : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض^(٣) » وقال : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً^(٤) » وقال . « وإن

(١) سورة البقرة - ١٨٨ .

(٢) سورة البقرة ٢٦٦ .

(٣) سورة البقرة ٢٦٧ .

(٤) سورة النساء - ٥ .

تؤمنوا و تتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم^(١) » إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي أضيف فيها المال والكسب إلى الإنسان .

وقد وسع الله في ذلك ، وكرّم الإنسان حتى سمى ما ينفقه المسلم في سبيل الله ، ويساعد به عباد الله قرضاً ، فقال : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة^(٢) » وقال : « إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم^(٣) » وقال : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً^(٤) »

كيف غرس القرآن فكرة الأمانة والخلافة في نفوس المسلمين ؟ :

وقد كانت هذه الحقيقة التي قرّرها القرآن ، وهي حقيقة ملك الله المطلق ، وأنه هو المالك الحقيقي لكل ما وُجد في هذه الأرض ، أو اكتسبه الإنسان وأحرزه ، تُسيطر على تفكير المسلمين الأولين ، وتتحكم في حياتهم ، فلا يرون أنفسهم إلاّ أمناء مستخلفين في هذه الأموال : فلا إفتنيات بالرأي ، ولا الحرّية المطلقة في التصرف فيها ، ولا رياء ولا فخر ، ولا أشْر ولا بطر .

وقد غرس القرآن فكرة « الأمانة والخلافة » وأرسخها في نفوسهم وعقولهم بطُرق شتى ، وأساليب تربوية حكيمة ، وأعلم المسلمين بأن هذه الأموال إذا كانوا اكتسبوها وتملّكوها بكدّ اليمين وعرق الجبين ، وبراعتهم في طرق الكسب ، وحذقهم في الصناعات وأنواع التجارات ، فقد انتقلت إلى

(١) سورة محمد عليه الصلاة والسلام - ٣٦ .

(٢) سورة البقرة - ٢٤٥ .

(٣) سورة التّفاين - ١٧ .

(٤) سورة الزمّل - ٢٠ .

الله تبارك وتعالى مرة ثانية بحكم ميثاق الإسلام ، والتخلي لله تبارك وتعالى عن جميع الحقوق والدعاوى ، وهو الذي يقرره الإنسان ويقطعه على نفسه بدخوله في الإسلام ، ونطقه بالشهادتين ، فله أن يستردّ وديعته متى شاء ، ويطلب سلعته التي اشتراها متى شاء ، فقال : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة (١) » وأنذر من استحوذ عليه حب المال ، وآثر نفسه او راحته وشهواته على الجهاد في سبيل الله ، وأداء حقوق الله ، ورأى لنفسه حقاً وحرية في التصرف فيه ، والظنّ به ، والحذب عليه ، فقال : « قل إن كان آباؤكم وابتناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فمربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين (٢) »

وأندر المسلمين كذلك بأن الإضراب عن الإنفاق في سبيل الله بسخاء وعلو همة ، وبذل النفس والنفيس لله تعالى ، وخذلان هذا الدين الذي به بقاؤهم وحياتهم ، وانتصارهم وازدهارهم سعي في هلاك النفس ، ومرادف لما يُسمونه اليوم « الإنتحار » فقال : « وأنفقوا في سبيل الله ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٣) » .

كيف آمن المسلمون الأوّلون بفكرة الأمانة

والخلافة ، وكيف خضعوا لها ؟ :

وقد كانت هذه سيرة الصحابة رضي الله تعالى عنهم فيما كانوا يملكون مزر

(١) سورة التوبة - ١١١ .

(٢) سورة التوبة - ٢٤ .

(٣) سورة البقرة - ١٩٥ .

مالٍ ومتاعٍ ، وعقار ومملك ، وحرث ونسل ، وقد وضعوها تحت تصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومصالح الإسلام ، قد كانت هذه سيرتهم في مكة قبل الهجرة ، وقد مثلها خير تمثيل أبو بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وصهيب الرومي ، وأبو سلمة ، وغيرهم من كبار المهاجرين وأغنيائهم ، وقد كانت هذه سيرتهم وسيرة الأنصار رضي الله تعالى عنهم في المدينة .

وتجلت هذه الفكرة والعاطفة بكل وضوح وقوة فيما قاله سعد بن معاذ قبل معركة بدر فقد جاء في الخبر :

« ولما بلغ رسول الله ﷺ خروج قريش استشار أصحابه فتكلم المهاجرون فأحسنوا ، ثم استشارهم ثانياً فتكلموا أيضاً فأحسنوا ، ثم استشارهم ثالثاً ، ففهمت الأنصار أنه يعنيهم ، فبادر سعد بن معاذ ، فقال يا رسول الله إكأنك تعرض بنا ، وكان إنما يعنيهم ، لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من الأحمر والأسود في ديارهم ، فلما عزم على الخروج ، استشارهم ليعلم ما عندهم ، فقال له سعد ، لملك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها أن لا تتصرك إلا في ديارهم ، وإني أقول عن الأنصار ، وأجيب عنهم ، فاطمن حيث شئت ، وصل جبل من شئت ، واقطع جبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، واعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمران لنسير معك ، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك (١) . »

(١) زاد المعاد - ج - ١ - ص ١٣٦ - ص ١٣٧ .

الحث على إنفاق الفضل في سبيل الله وقيام المسلمين به في نشاط وحماس :

ولما رسخت هذه العقيدة في قلوب المسلمين ، وملكتهم هذه الفكرة والنظرة الخاصة إلى المال ، واعتباره مال الله الذي استخلفهم فيه ، وتغلغلت في أحشائهم ، طلب منهم أن ينفقوا من أموالهم ما فضل وفاض عن حوائجهم « الشرعية الأساسية » فنزل : « ويستلونك ماذا ينفقون ، قل العفو^(١) » .

وامتثلوه وطبقوه بنشاط وحماس ، فقد هان عليهم كل شيء بعد إقرارهم بأن المال مال الله ، وأنهم أمناء أوصياء ، حتى بلغوا إلى أن أنفقوا على خصاصة وحاجة ، وآثروا غيرهم على أنفسهم وأولادهم ، وكان من خبر أبي طلحة الأنصاري ما كان ، وسجله قلم التاريخ مثلاً رائعاً للسخاء والإيثار يندر نظيره في تاريخ المجتمعات البشرية ، فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « أتى رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله اصابني الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال النبي ﷺ ، « ألا رجل يضيف هذه الليلة رحمة الله » فقام رجل من الأنصار ، فقال : أنا يا رسول الله ! فذهب إلى أهله ، فقال لإمرأته : هذا ضيف رسول ﷺ لاتدخريه شيئاً ، فقالت ! والله ما عندي إلا قوت الصبية ، قال : فإذا أراد الصبية العشاء ، فنوميهن وتعالى ، فاطفتي السراج ، ونطوي بطوننا الليلة ، ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول

(١) سورة البقرة - ٢١٩ - قال ابن كثير في تفسير « العفو » ما يفضل عن أهلك ، وكذا روي عن ابن عمر ، ومجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن كعب ، والحسن ، وقتادة ، والقاسم ، وسالم ، وعطاء الخراساني ، والربيع بن أنس وغير واحد ، أنهم قالوا في قوله « العفو » يعني الفضل .

وقال ابن بطال في تفسيره ، أي ما فضل عن الكفاية .

الله ﷺ ، فقال : « لقد عجب الله عزّ وجلّ - أو ضحك - من فلان وفلانة ، وأنزل الله تعالى : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (١) » .

الزكاة بمعنى الانفاق والصدقات :

وقد جاء ذكر « الزكاة » في السور المكية ، وهي لا تعني غير الإنفاق والصدقات ، فقال تعالى : « قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون (٢) » ، وقال : « ويبل المشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون (٣) » . وقد ذكرت في تعاليم الرسول وفضائل الإسلام ، أمام بعض ملوك مصر ، وقد قال جعفر بن أبي طالب في مجلس النجاشي « وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام (٤) » ، وذلك في العام الخامس بعد البعثة .

الحاجة إلى نظام معين للزكاة وتشريع

يوافق الطبقات والعصور :

ولما بلغ المجتمع الإسلامي غايته من رسوخ العقيدة والتربية الخلقية ، والطاعة والإنقياد ، والسخاء والإيثار ، والتجرد من الأنانية الفردية والجماعية ، وقوي الإسلام بأهله وإيثار أتباعه ، وتوسّع هذا المجتمع ، وتنوّعت فيه الأنماط

(١) سورة الحشر - ٩ - قد جاءت تسمية هذا الأنصاري في صحيح مسلم بأبي طلحة .

(٢) المؤمنون - ١ - ٤ .

(٣) سورة حم السجدة - ٧ - .

(٤) سيرة ابن هشام .

البشرية والمستويات الخلفية والروحية ، وفيه الغني والفقير والمتوسط بينها ، وفيه السخي الأريحي ، الذي هوايته في الإنفاق والإيثار ، وفيه الشحيح وفيه المقتصد والمتوسط ، وكان ما يشرع في هذا المجتمع من أحكام ، وما يطالب به من أعمال ، هي الشريعة الخالدة العامة العالمية التي يمثلها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، وفي أوائل العصور وأواخرها ، وفي بداية المدنية وبساطتها ، وفي أوجها وتمقدها ، ومع القوة الإيمانية التي تحتل أكبر مغامرة ، وتهتوت أعظم تضحية وتسيغ أكبر مشكلة ، ومع ضعف الإيمان الذي قد يوجد في أطراف العالم الإسلامي البعيدة ، وفي الأجيال المسلمة المتأخرة إقتضت حكمة الله ولطفه بعباده ، أن يُشرع للزكاة نظاماً مبين الحدود واضح المعالم معين النصاب ، معلوم المقادير والأعداد ، ويكون وسطاً بين الكثير والقليل ، لا يستهين به الأغنياء الأسخياء أو لو أهمهم ، ولا يقصر عنه المتوسطون أو دون المتوسطين ممن استوفي شروطها .

وأن لا يوكل ذلك إلى الرأي ، ولا إلى همة الأفراد وطموحهم ، ولا إلى الانفعالات الوجدانية العاطفية التي تكون في مدء وجزرٍ ، وقوة وضعف ، ولا إلى تشريع المشرعين ، وحكمة العلماء والحكام ، فلا ثقة بها في كل زمان ومكان ، ولا يؤمن عليها من اتباع الهوى والأغراض ، ففرضت الزكاة ، وحددت نصابها ، ومقاديرها (١) .

(١) زجح أن فرض الزكاة وقع بعد الهجرة ، وكان ذلك قبل السنة الخامسة على الأرجح ، فقد جاء ذكرها كفريضة ، وركن من أركان الإسلام ، في حديث ضمام بن ثعلبة ، وفي حديث وفد عبد القيس ، (وكان قدمومه في السنة الخامسة) ، وفي مخاطبة أبي سفيان مع « هرقل » ، وكانت في أول السابعة ، وما يدل على ذلك ما ثبت عند أحمد . وابن خزيمة ، والذسائي ، وابن ماجه ، والحاكم من حديث قيس بن سعد بن عبادة ، قال : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر ، قبل أن تنزل الزكاة ، ثم نزلت فريضة الزكاة ، فلم يأمرنا ، ولم ينهنا ونحن نفعله » وإسناده صحيح ، وصدقة الفطر تابعة لرمضان وصومه ، وكان فرضه في السنة الثانية من الهجرة ، والآية الدالة على فرضيته ، مدنية بلا خلاف .

وقد أحسن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي بيان حكمة التعيين والتحديد في أحكام الزكاة ونظامها ، فقال :

« ثم مست الحاجة إلى تعيين مقادير الزكاة ، إذ لولا التقدير ، لفرط المفرط ، ولاعتدى المعتدي ، ويجب أن تكون غير يسيرة لا يجدون بها بالاً ، ولا تنجع من بخلهم ، ولا ثقيلة يعسر عليهم اداؤها ، وإلى تعيين المدة التي تجبى فيها الزكاة ، ويجب أن لا تكون قصيرة يسرع دورانها ، فتعسر إقامتها فيها ، وأن لا تكون طويلة لا تنجع من بخلهم ، ولا تدر على المحتاجين والحفظة ، إلا بعد انتظار شديد ، ولا أوفق بالمصلحة من أن يجعل القانون في الجباية ما اعتاده الناس في جباية الملوك العادلة من رعاياهم ، لأن التكليف بما اعتاده العرب والعجم ، صار كالضروي الذي لا يجدون في صدورهم حرجاً منه ، والمسلم الذي أذهبت الألفة عنه الكلفة أقرب من إجابة القوم وأوفق للرحمة بهم ^(١) .

فيم تجب الزكاة ؟ وحكمة التفاوت بين النصب والمقادير :

وحدد رسول الله ﷺ مقدار الزكاة والأموال التي تجب فيها ، ونصاب هذه الأموال ، الذي يجب فيه الزكاة وزمن وجوبها ^(٢) ، فجعلها في أربعة أصناف من المال ، وهي أكثر الأموال دوراً بين الخلق ، أحدها الزرع والثمار ، الثانية بهيمة الأنعام الإبل والبقر والغنم ، الثالث الجواهران اللذان بها قوام العالم ، وهما الذهب والفضة ، الرابع أموال التجارة على اختلاف أنواعها ^(٣) .

(١) حجة الله البالغة ج ٢ - ص ٣٠ .

(٢) إقرأ الأحاديث الواردة في كل ذلك ، في كتب الصحاح ، وقرأ شرحها والبحث فيها ، وفهم فقهاء الإسلام لها في كتاب « نيل الأوطار » للعلامة محمد بن علي بن محمد الشوكاني (المتوفى ١٢٥٠هـ) .

(٣) ماتتقط من زاد المعاد - ج ١ - ص ١٤٥ .

قال الإمام ابن القيم وهو يتكلم في مصلحة إختيار الأموال التي تجب فيها الزكاة ، وحكمة التفاوت بين نُصبيها ، وحكمة تعيين الزمن الذي تجب فيه الزكاة ، وهو حولان الحول ، في كتابه النفيس « زاد المعاد » :

« ثم إنته أوجبها مرة كل عام ، وجعل حول الزروع والثمار عند كمالها واستوائها ، وهذا أعدل ما يكون ، إذ وجوبها كل شهر أو كل جمعة ، يضتر بأرباب الأموال ، ووجوبها في العمر مرة مما يضتر بالمساكين ، فلم يكن أعدل من وجوبها كل عام مرة ، ثم إنته فوات بين مقادير الواجب بحسب سعي أرباب الأموال في تحصيلها ، وسهولة ذلك ومشقته ، فأوجب الخمس فيما صادفه الإنسان مجموعاً محصلاً من الأموال ، وهو الرّكاز ، ولم يعتبر له حولاً ، بل أوجب فيه الخمس متى ظفر به ، وأوجب نصفه ، وهو العشر فيما كانت مشقة تحصيله وتعبه وكلفته فوق ذلك ، وذلك في الثمار والزروع التي يبائر حرث أرضها ، وسقيها ، وبذرها ، ويتولى الله سقيها من عنده بلا كلفة من العبد ، ولا شراء ماء ، ولا ائارة بشرٍ ودولاب ، وأوجب نصف العشر فيما تولى العبد سقيه بالكلفة والدوالي والنواضح وغيرها ، وأوجب نصف ذلك ، وهو ربع العشر ^(١) فيما كان السناء فيه موقوفاً على عمل متصل من رب المسال بالضرب في الأرض تارة ، وبالإدارة تارة ، وبالتربص تارة . ولا ريب أن كلفة هذا أعظم من كلفة الزرع والثمار أيضاً ، فإن نمو الزرع والثمار أظهر وأكثر من نمو التجارة ، فكان واجبها أكثر من واجب التجارة ، وظهور النمو فيما يسقى بالسما والأنهار ، أكثر مما يسقى بالدوالي والنواضح ، وظهوره فيما وجد محصلاً مجموعاً كالكنز أكثر وأظهر من الجميع .

ثم إنه لما كان لا يحتمل المواساة كل مال وإن قلّ ، جعل للمال الذي يحتمل

(١) يعني ٢٠٠ بالمئة .

المواساة نُصبا مقدرة ، المواساة فيها لا تححف بأرباب الأموال وتقع موقعها من المساكين فجعل للورق مائتي درهم ، ولذهب عشرين مثقالاً (١) ، وللحبوب والشمار خمسة أوسق (٢) ، وهي خمسة أجمال من أجمال إبل العرب ، وللغنم أربعين شاة ، وللبقر ثلاثين ، وللإبل خمسا (٣) .

(١) وكل مثقال كان يعادل في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ديناراً ، وكل دينار كان في زمنه بمشرة دراهم بالتقويم تعادل عشرون مثقالاً (أو عشرون ديناراً) مائتي درهم ، وهكذا تعادل نصاب الذهب والفضة ، واعتمد على ذلك في التشريع بطبيعة الحال ، وكان العيار في الزكاة في كل عصر ومصر .

ومائتا درهم ، تعادل بالتقويم ستة جنيهات استرلينية ، في هذا العصر وعشرون مثقالاً (أو عشرون ديناراً) تعادل ١٢ ليرة ذهبية عثمانية ، أو ١١ جنيهاً بالعملة المصرية .

(٢) « الوسق ستون صاعاً ، وكل صاع ثمانية أرطال »

وهذا مذهب مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وأكثر العلماء ، فيعتبرون النصاب فيما تخرجه الأرض ، وهو خمسة أوسق ، فليس عندهم في أقل من ذلك زكاة ، وذهب ابن عباس ، وزيد بن علي ، والنخعي ، وأبو حنيفة إلى العمل بالعام ، فقالوا ، تجب الزكاة في القليل والكثير ، ولا يعتبر النصاب ، والخلاف دائر على بحث أصولي ، فليرجع إلى كتب الاستدلال للمذاهب ، وكتب أصول الفقه ، وأحكام القرآن .

وقد ذكر شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي حكمة هذه المقادير التي جعلتها الشريعة نصاباً تجب على من يملكه الزكاة ، فقال ، « إنما قدر من الحب والتمر خمسة أوسق ، لأنها تكفي أقل أهل بيت إلى سنة ، وذلك لأن أقل البيت ، الزوج ، والزوجة ، والثالث خادم ، أو ولد بينها ، وما يضايف ذلك من أقل البيوت ، وغالب قوت الانسان رطل ، أو مد من الطعام ، فإذا أكل كل واحد من هؤلاء ، ذلك المقدار كفاف لسنة ، وبقيت بقية لنوائبهم ، أو إدامتهم وإنما قدر من الورق خمس أواق (يعني مائتي درهم) ، لأنها مقدار يكفي أقل أهل بيت سنة كاملة ، إذا كانت الأسعار موافقة في أكثر الأقطار ، واستقرى عادات البلاد المعتدلة في الرخص والغلاء » (حجة الله البالغة ج ٢ - ص ٣٢) .

(٣) ملتقط من كتاب « زاد المعاد » ج ١ ص ٢٤٦ .

حكمة مواضع الزكاة وتوقيتها :

ويزيد ذلك شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ايضاحاً ويشرح
حكمة اختيار مواضع الزكاة وتوقيتها ، فيقول :

« والأبواب التي اعتادها طوائف الملوك الصالحين من أهل الأقاليم الصالحة ،
وهو غير ثقيل عليهم ، وقد تلتقتها العقول بالقبول ، أربعة : الأول أن تؤخذ من
حواشي الأموال النامية ، فإنها أحوج الأموال إلى الذب عنها ، لأن النمو لا يتم
إلا بالتردد خارج البلاد ، ولأن اخراج الزكاة أخف عليهم لما يرون من التزايد
كل حين فيكون الغرم بالغنم ، والأموال النامية ثلاثة أصناف ، الماشية المتناسلة
السائمة ، والزروع ، والتجارة .

والثاني ، أن تؤخذ من أهل الدثور والكنوز ، لأنهم أحوج الناس إلى حفظ
المال من السرّاق وقطاع الطريق ، وعليهم انفاقات لا يعسر عليهم أن تدخل
الزكاة من تضاعيفها .

والثالث ، أن تؤخذ من الأموال النافعة التي ينالها الناس من غير تعب
كدفائن الجاهلية وجواهر العاديين ^(١) ، فإنها بمنزلة المحّان يخفّ عليهم
الإنفاق منه .

والرابع ، أن تلزم ضرائب على رؤوس الكاسبين فإنهم عامة الناس وأكثرهم ،
وإذا جبي من كل منهم شيء يسير كان خفيفاً عليهم ، عظيم الخطر في نفسه .
ولما كان دوران التجارات من البلدان النائية وحصاد الزروع ، وجني

(١) يعني القدماء .

الثمرات في كل سنة ، وهي اعظم انواع الزكاة قُدِّرَ الحول لها ، ولأنها تجمع فصولاً مختلفة الطبائع وهي مظنة البناء ، وهي مدة صالحة لمثل هذه التقديرات .
والأسهل والأوفق بالمصلحة أن لا تجعل الزكاة إلا من جنس تلك الأموال فتؤخذ من كل صرمة من الإبل ناقة ، ومن كل قطيع من البقر بقرة ، ومن كل ثلة من الغنم شاة مثلاً (١) .

مصارف الزكاة ، وقيام نظامها الاجتماعي :

ويبين الله تبارك وتعالى مصارف الزكاة في آية من سورة براءة ، وهي قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي القاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله والله عليم حكيم » (٢) وقد كان نزول سورة براءة بعد فتح مكة . وقد استقرت دعائم الإسلام ، وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فقام نظام الزكاة

(١) حجة الله البالغة - ج ٢ - ص ٣٠ .

(٢) سورة براءة - ٦٠ .

راجع تفسير هذه الكلمات ومعرفة مدلولها وما فيه من اقوال ومذاهب « احكام القرآن » للإمام ابي بكر احمد بن علي الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى سنة ٣٨٠ هـ) . « احكام القرآن » للقاضي ابي بكر بن العربي المالكي (م سنة ٥٤٢ هـ) وكتب التفسير والفقه للمذاهب الأربعة .

وهذه المصارف المنصوصة في القرآن باقية دائمة مع بقاء حكم الزكاة إلا المؤلفة قلوبهم ، فقال اكثر الأئمة وفقهاء الاسلام ، قد سقط سهمهم بانتشار الاسلام وغلبيته ، واستدلوا على ذلك ، بامتناع ابي بكر من إعطائهم ، وقد ذهب بعض الفقهاء إلى جواز التأليف . ويعجني في ذلك ، قول القاضي ابي بكر العربي ، « والذي عندي إن قوي الاسلام ، زالوا . وإن احتيج إليهم اهدوا سهمهم . كما كان يعطيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن الصحيح قد روى فيه « بدأ الاسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ » (احكام القرآن - ص ٣٨٥) .

الإجتماعي^(١) ، وبعث رسول الله ﷺ السعاة والعاملين على الصدقات يتسائمون هذه الصدقات من أصحابها ، وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحكام تحصيلها وآدابه ، وأوصاهم في ذلك وصايا ، تتجلى فيها الحكمة مع الرحمة ، والمصلحة الإجتماعية يجوار المصلحة الفردية^(٢) وقد بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه الى اليمن في العام العاشر الهجري^(٣) ، وأوصاه وصية ، أصبحت أساس قانون الزكاة ومنشورها الرسمي ، قال له :

« انك تأتي قوماً من أهل الكتاب ، فادعهم الى شهادة أن لا اله الا الله ، وأني رسول الله ، فإن هم أطاعوك لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم ، فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوك لذلك ، فأياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب^(٤) »

مصالح الزكاة الأساسية :

اعتاد كثير من الكتاب الإسلاميين المعاصرين الذين خضعوا في قليل أو كثير للنظم الإقتصادية الحديثة ، وأهمية علم الاقتصاد وسيطرته على جميع النظم

(١) كان ذلك في السنة التاسعة للهجرة . قال الإمام ابو جعفر الطبري . « ثم دخلت سنة تسع وفي هذه السنة فرضت الصدقات . وفرق فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم عماله على الصدقات (تاريخ الطبري الجزء الرابع من المجلد الأول . مطبعة بريك لندن - ص ١٧٢٢) وقد وهم رحمه الله في قوله : فرضت الصدقات . فقد سبقت فرضيتها بسنين . كما قدمنا . وإنما كان في هذه السنة بعث العمال على الصدقات . وتفريقهم في الأمصار .

(٢) إقرأ هذه الوصايا ، والتوجيهات النبوية ، في دواوين الحديث والسيرة .

(٣) ذكره البخاري في اواخر المغازي .

(٤) رواه الجماعة عن ابن عباس رضي الله عنه .

ومناهج التفكير في هذا العصر ، أن يفيضوا ويستسلوا في مصالح الزكاة الاقتصادية والاجتماعية ، وما تعود به على المجتمع الإسلامي من فوائد ومنافع ، واعتبروها - وبالأصح يفهم القارىء لكتاباتهم وبحوثهم أنهم يعتبرونها - جباية مالية من أعدل الجبايات ، وأكثرها اتزاناً واعتدالاً في جميع الجبايات التي عرفها تاريخ الإقتصاد في العالم ، ولذلك يعتبرون أنها أكبر أساس ، وأقوى دعامة « للإشترابية » التي يعتقدون أن الإسلام دعا إليها وتحققت في أفضل عصوره ، وكادوا يففلون - الامن عصم الله ووفقه - روح الزكاة التي تسيطر عليها ، وهي روح العبادة والتقرب الى الله ، وحكمتها الأساسية الأولى ، وهي حكمة تزكية النفس من الشح والحرص ، والأثرة وحب المال ، وظلم حقوق الفقراء وقسوة النفس وتزكية المال وتنميته ، وحلول البركة فيه برضا الله سبحانه وتعالى وقبوله ، وبفضل مواساة الفقراء الضعفاء ، وانعطاف قلوبهم ورقنتها ، ودعائهم ، وقد ذكر الله هذه المصلحة الأساسية ، ونوه بها في القرآن ، ويكاد القرآن يقتصر عليها ، فقال مخاطباً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيتهم بها^(١) » وقال مقارناً بين الربا والزكاة ، « وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربوا عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون^(٢) » وقد أخرج أبو داود عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ ، قال : ان الله لم يفرض الزكاة الا ليطيب ما بقي من أموالكم .

وتلي هذه المصلحة الأساسية مصلحة الجماعة والمجتمع ، وهي كفالة المجتمع ، الكفالة اللازمة الضرورية ، وسد حاجات الفقراء الطبيعية البدائية ، وتهينة كل

(١) سورة التوبة - ١٠٣ .

(٢) سورة الروم - ٣٩ .

عضو من أعضاء المجتمع أسباب الحياة الشريفة التي يستطيع بها القيام بحقوق الله وحقوق النفس ، والوصول الى الكمال المطلوب ، والغاية المطلوبة من كل فرد مسلم .

وقد كان العلماء الذين كانت دراستهم للإسلام والكتاب والسنة ، دراسة أصيلة عميقة ، ولم يعرفوا إلا مدرسة النبوة التي يتلمذون عليها ، ويتخرجون فيها ، والذين أتوا البيوت من أبوابها في فهم الإسلام وفقه الكتاب والسنة ، يراعون الترتيب بين هذه المصالح ، وينزلون كل واحدة منها منزلتها التي عيّنها الكتاب والسنة ، وفهما الصحابة رضي الله عنهم وتلقاها المسلمون جيلاً بعد جيل ، وهنا ننقل نماذج من ذلك لبعض كبار علماء الاسلام :

يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، وهو يبحث في مصالح الزكاة الرئيسية ، وحكمة التشريع فيها :

« واعلم أن عمدة ما روعي في الزكاة مصلحتان ، مصلحة ترجع إلى تهذيب النفس ، وهي أنها أحضرت الشح ، والشح أقبح الأخلاق ، ضار بها في المعاد ، ومن كان شحيحاً ، فإنه إذا مات بقي قلبه متعلقاً بالمال ، وعذبٌ بذلك ، ومن تمرّن بالزكاة ، وأزال الشح من نفسه ، كان ذلك نافعاً له .

وأنتفع الاخلاق في المعاد بعد الإخبات لله تعالى ، هو سخاوة النفس ، فكما أن الإخبات يعدّ للنفس هيئة التطلع إلى الجبروت ، فكذلك السخاوة تعدّ لها البراءة عن الهيئات الخسيسة الدنيوية ، وذلك لأن أصل السخاوة قهر الملكية البهيمية ، وأن تكون الملكية هي الغالبة ، وتكون البهيمية منصبة بصبغها ، آخذة حكمها ، ومن المنبهات عليها بذل المال مع الحاجة اليه ، والعمفو عن ظم ، والصبر على الشدائد في الكريهات ، بأن يهون عليه ألم الدنيا لإيقانه بالأخرة ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بكل ذلك ، وضبط أعظمها ، وهو بذل المال بمحدود ، وقرنت بالصلاة والإيمان في مواضع كثيرة من القرآن ، وقال تعالى

عن أهل النار: « قالوا لم نك من المصلّين ، ولم نك نظمهم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين (١) .

ومصلحة ترجع إلى المدينة ، وهي أنها تجمع لا محالة الضعفاء وذوي الحاجة ، وتلك الحوادث تغدو على قوم ، وتروح على آخرين ، فلو لم تكن السنة بينهم مواساة الفقراء وأهل الحاجات لهلكوا وماتوا جوعاً ، وأيضاً فنظام المدينة يتوقف على مال ، يكون به قوام معيشة الحفظة الذابين عنها ، والمدبرين السائسين لها ، ولما كانوا عاملين للمدينة عملاً نافعاً ، مشغولين به عن اكتساب كفافهم ، ووجب أن يكون قوام معيشتهم عليها . والانفاقات المشتركة ، لا تسهل على البعض ، أو لا يقدر عليها البعض ، فوجب أن تكون جباية الأموال من الرعية سنة . ولما لم يكن أسهل ولا أوفق بالمصلحة من أن تجعل إحدى المصلحتين مضمومة بالأخرى ، أدخل الشرع إحداها في الأخرى (٢) .

ويقول العلامة بجز العلوم للكهنوي (٣) :

« إن الزكاة ليست غرامة ، بل عبادة خالصة لله تعالى كسائر العبادات »

« لا بد في أداء الزكاة من النية ، لأن الزكاة عبادة عظيمة ، أحد أركان الإسلام كالصلاة ، لا يقصد منها إلا الثواب ، فلا بد من النية ، وإن أدى بلا نية لا يتأدى الزكاة كالصلاة ، لأن الصلاة تلفو بلا نية ، بخلاف الزكاة من دون النية ، فإنها تصير هبة ، وينال ثواب الهبة ، لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً (٤) »

(١) سورة المدثر ٧٣ - ٧٥ .

(٢) حجة الله البالغة - ج ٢ ص ٢٩ - ٣٠ .

(٣) هو العلامة عبد العلي محمد ابن العلامة نظام الدين السهالوي الكهنوي ، كان إماماً جوالاً في الأصول والمنطق . ومن أشهر مؤلفاته (فوائذ الرحمت ، شرح مسلم الثبوت) . توفي سنة ١٢٢٥ هـ .

(٤) رسائل الأركان - ص ١٦٣ .

سمات « الزكاة » البارزة :

وللزكاة المشروعة في الإسلام سمات تميزها عن أنواع الجبايات والإتاوات ، التي تفرضها الحكومات أو المجتمعات ، أو تُسن في القوانين الوضعية البشرية ، وتجعل لها هذه السمات طابعاً خاصاً ، وطبيعة خاصة ، وتضفي عليها قدساً دينياً ، وتجعل لها تأثيراً في الحياة والأخلاق ، وفي الصلة بين العبد وربّه ، لا يوجد « ولا يمكن أن يوجد » في الجبايات وأنواع الضرائب والإتاوات ، مهما بلغت من العدل والنزاهة ، والخفة والضآلة .

التبشير والانداز :

فمن أبرز هذه السمات ، ومن اعتمها في التأثير ما يقترن بهذه الفريضة ، ويرافقها من روح الإيمان والإحتساب^(١) ، وهي الروح التي تتجرد منها الضرائب الرسمية ، والجبايات القانونية بطبيعة الحال ، بل بالعكس من ذلك ترافق هذه الأخيرة روح المقت والسامة والسخط ، والاستئثار والاستكثار ، فإن دافع هذه الضرائب لا يعتقد أنها مشروعة من الله ، ولا يرجو عليها أجراً وثواباً ، بل يعتقد في أكثر الأحيان أن مصدرها تشريع أفراد مثله ، أو أخس منه ، وتُنفق في كثير من الأحيان في الأهواء والشهوات ، وفي المحافظة على السلطات ، أو لخدمة أشخاص معدودين ، أو أحزاب محدودة ، ثم لا يُرافق هذه الأحكام والتشريعات شيء من الترغيب والترهيب الدينيين ، بل يتبعها تهديدات وغرامات زمنية ، أو مناشير ومراسم قاسية جافة ، تزيد دافعها كراهة وسخطاً ، وتدمراً ومقتاً .

(١) سبق شرحها في موضوع الصلاة ، راجع بحث « التطهر وما يورثه من اهتمام »

ولهذه الحكمة البالغة التي لا يقدر عليها إلا العلي الحكيم ، جاءت الزكاة في القرآن والحديث ، وفي التعليمات النبوية مقرونة بالفضائل ، وما لها من نتائج في الدنيا والآخرة ، وما وعد الله لفاعلها من الأجر والثواب ، والنمو والبركة في المال ، والعقاب الأليم لمن امتنع عنها ، ومحق ماله .

فيقول الله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منها ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون^(١) » ويقول : « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون^(٢) » ويقول : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون^(٣) » ويقول « من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له ، وله أجر كريم^(٤) » ويقول « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا ، يضاعف لهم ، ولهم أجر كريم^(٥) » ويقول : وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله ، فأولئك هم المضعفون^(٦) » والآيات في ذلك كثيرة .

وكذلك تبع هذا التبشير الذي هي حاجة الإنسانية ومقتضى الطبيعة البشرية ، إنذار وتخويف على اكتناز الأموال ، وحيازتها من الفقراء وذوي الحاجات ، والإمتناع من أداء حق الله وحق الفقراء في هذه الاموال التي تفيض

(١) سورة البقرة ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٢) سورة البقرة ٢٧٤ .

(٣) سورة البقرة ٢٧٧ .

(٤) سورة الحديد ١١ .

(٥) سورة الحديد ١٨ .

(٦) سورة الروم ٣٩ .

عن الحاجة وتتكدس عند أصحابها ، تسلية بها ، وتطاولاً وشعاً وحرصاً ، فقال : « والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكزون (١) » .

وعلى هذا النسق الحكيم جرى لسان النبوة الأخيرة ، ففاض الحديث النبوي ببشارات ووعود كريمة على أداء الزكاة ، وآثارها الطيبة في المال والنفس ، وفي الدنيا والآخرة .

فمن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « ما تصدق أحد بصدقة من طيب – ولا يقبل الله إلا الطيب – إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة ، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله (٢) » وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا رجل في فلاة من الأرض ، فسمع صوتاً في سحابة . اسق حديقة فلان ، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرمة ، فإذا شرجة من تلك الشراج ، وقد استوعبت ذلك الماء كله ، فقتبع الماء ، فإذا رجل قائم في حديقة يحول الماء بمسحاته ، فقال : يا عبد الله . ما اسمك ؟ قال : فلان ! للاسم الذي سمع في السحابة . فقال : يا عبد الله . لم سألتني عن اسمي ؟ قال : سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه . يقول : اسق حديقة فلان . باسمك . فما تصنع فيها ؟ قال : أما إذا قلت هذا فإني انظر الى ما يخرج منها فأصدق بثلثه وأكل أنا وعبائي ثلثه وأرد فيه ثلثه (٣) » وقال ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما نقص مال من صدقة ، أو قال ، ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ،

(١) سورة التوبة ٣٤ - ٣٥ .

(٢) للسنة الا ابا دارود .

(٣) لمسلم .

وما تواضع عبدُ الله إلا رفعه الله (١) وعنه ، رفعه ، قال : « ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان ، يقول أحدهما : « اللهم اعط منفقاً خلفاً » ويقول الآخر : « اللهم اعط ممسكاً تلفاً » (٢) ، ومنها ، ماروت عائشة أم المؤمنين ، قالت : « إنهم ذبجوا شاة ، فقال النبي ﷺ ما بقي منها ؟ قالت : ما بقي منها الا كتفها قال : بقي كلها ، الا كتفها » (٣) .

وكذلك انذر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مانعي الزكاة ، ومن لا يؤدي حقَ الله والفقراء في ماله ، بالمعقاب الشديد في الآخرة ، وبالنتيجة الوخيمة في الدنيا ، فقد روى ابو هريرة رضي الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه ، يعني شذقيه ، ثم يقول : انا مالك ، انا مالك ، انا كنزك ، ثم تلا « ولا يحسبن الذين يبخلون الآية » (٤) ، وعنه انه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اتخذ الفيء دولا ، والأمانة مغنما ، والزكاة مغرما ، وتعلم لغير الدين ، واطاع الرجل امرأته ، وعقّ امته ، وادنى صديقه ، وأقصى اياه ، وظهرت الأصوات في المساجد ، وساد القبيلة فاسقهم ، وكان زعيم القوم اردتهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وظهرت القينات والمعازف وشربت الخمر ، ولعن آخر هذه الأمة اولها . فارتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء ، وزلزلة ، وخسفا ، ومسخا ، ، وقذفا . وآيات تتابع كنظام ، قطع سلكه فتتابع (٥) .

وقد كانت نتيجة هذه الفضائل ، وما جاء في القرآن والحديث في الترغيب

-
- (١) لمسلم والترمذي والموطأ .
 - (٢) للشيخين .
 - (٣) للترمذي .
 - (٤) رواه البخاري .
 - (٥) رواه الترمذي .

والترهيب ، أن المسلمين كانوا رقباء انفسهم ، وكانوا سعاة بيت المال المتطوعين ،
ووكلاء فقراء المسلمين ، في اموالهم ، وحرثهم ، ونسلهم ، فكانوا يبحثون عن
المصارف ، ومستحقي الزكاة بحثاً أميناً دقيقاً ، ويتحرّون مواضعها ، ويجرّسون
على اداء ما يجب عليهم من حقّ الله ، فلا يطيب لهم عيش ، ولا يهنأ لهم طعام
حق يتخلّوا عن ذلك ، ومن تتبّع حياة الصحابة رضي الله عنهم ، ودرس
سيرتهم وسيرة التابعين لهم بإحسان ، رأى مواقفهم في ذلك ، وعرف ما بلغ
الإيمان وأخبار الترغيب والترهيب من نفوسهم ، حتى أصبحت بذلك الزكاة
كالصلاة ، التي يحرص على اداؤها المسلم ، ويحافظ عليها بدقّة ، ولا يقرّ له قرار
حتى يقوم بها .

وقد فطن لأهميّة هذه الفضائل ، وما لها من فضل في إثارة الشعور الديني ،
علماء الإسلام ، فحرصوا على إيراد هذه الفضائل والترغيب والترهيب في كتبهم ،
وأشادوا بها في مواضعهم وخطبهم ، وكان لها التأثير المطلوب في المجتمع
الإسلامي ، فلولا هي لتعطلت اداء الزكاة ، ولهجر المسلمون القيام بها بأنفسهم ،
بعد ما تركت الحكومات الإسلامية المطالبة بها ، والإشراف عليها .

وقد أحسن شيخ الإسلام احمد بن عبد الرحيم الدهلوي الإشارة إلى اهميّة هذه
الفضائل ومكانتها في التشريع الإسلامي . فقال :

« ثم مسّت الحاجة الى بيان فضائل الإنفاق والترغيب فيه ، ليكون برغبة
وسخاوة نفس ، وهي روح الزكاة ، وبها قوام المصلحة الراجعة الى تهذيب
النفس ، والى بيان مساويء الإمساك والتزهد فيه ، إذ الشح هو مبدأ تضرر
مانع الزكاة ، وذلك إما في الدنيا ، وهو قول الملك : اللهم اعط منفقاً خلفاً ،
والآخر : اللهم اعط ممسكاً تلفاً ، قوله صلى الله عليه وسلم ، اتقوا الشحّ ، فإن
الشحّ اهلك من قبلكم » الحديث ، وقوله صلى الله عليه وسلم « إن الصدقة لتطفىء
غضب الرب » وقوله صلى الله عليه وسلم ، « إن الصدقة تطفىء الخطيئة » كما

يطفىء الماء النار» وقوله صلى الله عليه وسلم « فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربها لصاحبها » الحديث (١)

تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم :

والسمة الثانية البارزة التي تميّز الزكاة عن سائر الجبايات والضرائب ، التي كانت تنفرض في زمن الملوك والسلاطين ، وفي عهد الحكومات الشخصية ، أو في عصرنا الحاضر في الجمهوريات وحكومات الشعوب ، وتجعلها تختلف عنها اختلافاً واضحاً في البداية والنهاية ، وفي النتائج والآثار ، هي وضعها الشرعي الذي قرّره الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بلفظه المعجز الحكيم ، وتعبيره النبوي الدقيق الذي يُعدّ من جوامع الكلم . فقال : « تؤخذ من أغنيائهم ، وترد على فقرائهم » ، وذلك وضع الزكاة الأصل الشرعي الذي كانت عليه ، ويجب أن تكون عليه ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فهي تؤخذ من الأغنياء الذين يستوفون شروط وجوبها ، ويملكون النصاب المعيّن المنصوص ، وتصرف في مصارف عينها الله تعالى في القرآن ، ولم يكلها إلى رأي مشرع أو مفسر ، أو حاكم أو عالم ، وهو قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء » الآية ، وتفضل الشريعة ، وترجّح الأحاديث النبوية أن تصرف هذه الصدقات على فقراء البلد الذي تجبى فيه .

وكذلك كان نظام الزكاة حتى في الحكومات التي لم تكن دقيقة كلّ الدقة ، ولا أمينة كلّ الأمانة في تطبيق الأحكام الشرعية ، وتحقيق المثل الإسلامية العليا في الحكم والسياسة . فلم يُحرم الفقراء والمساكين حقهم في ظلّ هذه

(١) حجة الله البالغة ج ٢ ص ٣٠ - ٣١ .

الحكومات ، ولم تتعطّل حدود الله كلّ التعطّل (١) ، في هذه الحكومات ، التي يبلغ كثير من المؤرخين المفرضين ، والباحثين المستشرقين في ذمها ، وانحرافها عن تعاليم الإسلام ، بل ثورتها عليها ، كما يقولون .

وبالعكس من ذلك ، الجبايات والضرائب والمكوس ، التي تفرضها الحكومات اليوم ، فهي صورة مقلوبة معكوسة للزكاة ، فهذه الضرائب - العادلة منها والمحففة ، والصغيرة منها والضحمة - تؤخذ من الفقراء وأوساط الناس ، وتردّ على الرؤساء والأغنياء والأقوياء ، إنشأ تجتمع بعرق جبين الفلاحين ، والعملة والصنّاعين ، والتجار الذين يشتغلون ليل نهار في متاجرهم ودكاكينهم ، وتُصرف هذه الأموال بسخاء بل بقسوة نادرة ، ووقاحة زائدة في استقبال رؤساء الجمهوريات الزائرين للبلاد ، وفي ولائهم التي تُشبه ولائم « الف ليلة وليلة » الخيالية الأسطورية وفي المهرجانات التي يُحتفل بها بين حين وحين ، وفي مادب السفارات في البلاد الأجنبية التي تجري فيه الخرج جري الأنهار ، وفي دعايات الحكومة التي تستنفد موارد الشعب وتمتصّ دماؤه ، وتحول بين رجل الشعب وقوته ، وفي جعلالات الصحفيين الأجانب ، ووكالات الأنباء ، ورواتب المذيعين البارعين الذين حذقوا فن تليفق الأخبار ، واتهام الأبرياء ، وتشريح الأحياء من المنافسين والأعداء وتكاليف الصحف التي تُعتبر أهمّ وأنفع من أقوى الجيوش ، وأحدث الأسلحة ، فما من حكومة شعبية ديمقراطية ، ولا من حكومة شيوعية أو اشتراكية ، إلا وهي تمتصّ دم الشعب كالاسفنج ، وتصبّه في بحر الدعاية والرشاء السياسي ، والتلبيس الصحفي ، ومحكمة المعارضين ، من المجرمين وغير المجرمين ، فلا أدقّ تصويراً ولا أصدق تعبيراً في وصف هذه الضرائب ، التي تقوم عليها الحكومات اليوم ، من قولنا إنشأها تؤخذ من فقرائهم وتردّ على

(١) كتاب الخراج لفاضي القضاة ، الامام ابي يوسف ومقدمته بصفة خاصة بردان ساطع على ما كان من اهتمام في ارج الدولة العباسية بأحكام الخراج والزكاة والصدقات فإنه كتب هذا الكتاب العظيم باقتراح من امير المؤمنين « هارون الرشيد » .

اغنيائهم ، لذا كانت الزكاة الإسلامية التي فرضها الله على عباده المومنين لطفاً ورحمة بالأمة ، ونتيجة لنعمة النبوة التي لا نعمة فوقها ، ضريبة اذا كان لا بد من إطلاق هذه الكلمة أقل الضرائب مقداراً وأخفها مؤنة ، وأعظمها ينماً وبركة ، وأكثرها فائدة ، لأنها « تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم » .

روح التقوى والتواضع والاخلاص :

والسمة الثالثة المميزة للزكاة ، هي روح الإخلاص ، والتواضع والإمتنان (لا المن) والإكرام الذي يجب ان يقترن به أداء الزكاة ، ويتصف به صاحبها وهي الآداب الدقيقة والأخلاق السامية النبيلة ، والروح الدينية التي حث عليها القرآن وأشاد بها ، ووصف كرام القائمين بهذه الفريضة بالتلبس بها ، فتارة هي المتصدقين وأصحاب الخير والبر ، عن أن يكدر أعمالهم ، ويقلل من قيمتها المن والأذى ، فقال في الأسلوب القرآني المعجز : « الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى ، لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم ، يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثل كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل ، فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدي القوم الكافرين (١) »

وتارة مدح أصحاب الخير والبر بروح التواضع والإشفاق الذي يسيطر عليهم عند اشتغالهم بهذه الخيرات وتلبسهم بها ، فقال : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم

(١) سورة البقرة ٢٦٢ - ٢٦٤ .

وجهة أنهم إلى ربهم راجعون^(١) ، وقال : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون^(٢) » ، وتارة مدح القائمين بهذه المبررات وأعمال المواساة بالإخلاص التام ، والتجرد عن الأغراض المادية أو المعنوية ، فقال : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قطيراً^(٣) » .

وكذلك حث على أن يكون حظ الله وحظ عباده الفقراء من المال الطيب الكريم الذي ترغب فيه النفس ، ويكرم به الرجل لا من المردول الرديء الذي يزهد فيه ويُسْتَهان بقيمته ، فقال : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم مما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد^(٤) » .

وفي الحديث : « أن عائشة أرادت أن تصدق بلحم منقن ، فقال لها النبي ﷺ أتصدقين بما لا تأكلين ؟ !^(٥) » .

وبالعكس من ذلك الجبايات التي تجيبها الحكومات - عدلاً أو ظلماً - تتجرد من هذا الروح الخلفي والتعبدية ، وعن تواضع النفس ، والخوف على العمل من الرياء وعدم الإخلاص ، وتحرّتي المال الطاهر الطيب الأثير الكريم ، ففي غالب الأحيان تقترن هذه الجبايات بروح المقت والضجر والإحتيال القانوني ، وتعمد

(١) سورة المؤمنون ٦٠ .

(٢) سورة المائدة ٥٥ . قال العلامة ابو حيان الاندلسي في « بحر المحيط » والركوع هنا

ظاهرة الخضوع لا الهيئة التي في الصلاة » ج ٣ ص ٥١٤ .

(٣) سورة النور ٨ - ١٠ .

(٤) سورة البقرة ٢٦٧ .

(٥) رواه أحمد .

المال الذي جاء من طرق غير شرعية ، وتلك طبيعة الأحكام والقوانين العلمانية الزمنية ، التي لا تسندها عقيدة ، ولا فكرة دينية ، أو قدسي روحي .

الفرق بين الزكاة والربا :

إن الزكاة والربا يتناقضان « على خط مستقيم » فهما من الأضداد المعنوية ، والمتناقضات الخلقية ، التي تفرق من بدايتها ، ولا تلتقي إلى النهاية ، فدوافع الواحد منها تناقض دوافع الآخر ، وكذلك الأهداف والغايات ، وكذلك الآثار في النفس ، وفي الفرد والجماعة ، وفي المجتمع الإنساني بصفة عامة .

فروح الزكاة خشية الله وطاعته ، وابتغاء رضوانه ، والمواساة والعطف على الفقراء والثناء لأحوالهم ورقة القلب ، والإخلاص والتجرد عن الأغراض ، حين كانت روح الربا معصية الله ، ومبارزته بالحرب ، وقسوة القلب ، والشح المفرط ، والنهامة المسرفة للمال ، وتضخمه وتناسله^(١) من كل طريق ، وانتهاز فرصة حاجة الفقير الملحة ، واستغلال فقره وضعفه .

وحيث كانت نتيجة الزكاة ، وأثرها النفسي زيادة الإيمان ، وانسراح القلب ، وطيب النفس والرسوخ في الكرم والتبالة ، والسخاء والسماحة ، كانت نتيجة الربا انقباض النفس ، وقسوة القلب ، وبلادة الروح وشراسة الخلق ، والضراوة باللحم الإنساني وماء الوجه ، وديباجة الحياة الإنسانية ، وانتهاك كرامتها ، والتمتع والإلتذاذ بمواضع الضعف والمعجز في المجتمع والحياة .

وحيث كانت نتيجة الزكاة فسور روح المواساة والكرم في المجتمع ، وانتشار

(١) ذلك لأن مال الربا يلد المال ، ويبيض ويفرخ من غير مقابل ، من جهد أو تجارة . حتى يكون أضغافاً مضاعفة .

الغنى في أعضائه ، والبركة في الأموال ، والألفة في القلوب ، والتحابب في النفوس ، والثقة بين الأفراد ، كانت نتيجة الربا تكسب مال المجتمع ، وحصوله جهود أعضائه في مكان واحد ، أو في فرد واحد ، أو في أفراد في أقل عدد ممكن ، فكان المرابي في هذا المجتمع ، هو الحوض الصغير الذي تنتهي إليه جميع السواقي في هذا البلد ، ويبقى من غير ماء ، أو كجبل المغناطيس الذي جاءت قصته في رحلات سندباد البحري في « ألف ليلة وليلة » ، الجبل الذي يقال أن سفينة رماها الطوفان إليه ، فجعل الربا يبكي وينوح ، فسئل عن السبب ، فقال : إبتلانا الله بجبل المغناطيس الواقع في هذا البحر . وإنه سيجر جميع المسامير الحديدية ، فتتحطم السفينة وتتناثر ألواحها وأجزاؤها ، فيلقمها البحر . وكذلك كان ، فالمرابي ، أو جماعة المرابين في بلد يملكون ذلك المغناطيس « المال » الذي يجتذبون به جميع المسامير والروابط التي تربط أجزاء الحياة وقوائمها ، بعضها ببعض ، فتتناثر هذه الأجزاء ، وتتفكك هذه العرى والروابط ، وينزف جسم المجتمع دمه القاني الأصيل ، ويُصاب بالسل الخُلقي والإقتصادي ، فإذا عاش ، عاش مسلولاً مشلولاً ، وإذا مات ، مات حزيناً سلباً .

وكذلك نتيجة الربا: التباغض بين الأفراد ، وزوال الثقة المتبادلة في المجتمع ، وفشور روح السخط والتشاؤم ، والشامة بين المتعاملين بالربا ، وبين الفقراء والأغنياء ، ووجود طبقتين متميزتين تمام التميز ، كانت إحداها من جنس البشر ، والأخرى من الحيوانات والدواجن ، وهما طبقة الأثرياء ثراء فاحشاً ، وطبقة الفقراء فقراً مدقماً .

لذلك يذم القرآن الربا ذمّاً شديداً ، ويشنّع عليه ويقبّح تصويره ، بقدر ما يمدح الزكاة ويحث عليها ، بل قد يكون تشجيعه على الربا ، وذمّه له أقوى وأعنف ، من مدحه للزكاة والصدقات ، وذلك أسلوب القرآن الحكيم في العقائد المنحرفة ، والأخلاق الدميعة ، والأعمال القبيحة . فكانت صيغته لذمّ الربا ، وعبارته فيه من أشد أساليب الإنكار ، وأفظعها ، الأسلوب الذي

تقشعر له الأبدان ، وتنخلع منه القلوب ، وهو قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون (١) » .
 وصوّر آكل الربا تصويراً دقيقاً بشير المقت والكرامة في نفس القارئ المؤمن ، فيقول : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحلّ الله البيع وحرّم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى ، فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٢) .

وقد قارن القرآن بين الربا والصدقات ، وآثارهما ونتائجهما ، في أكثر من موضع ، فقال في إيجاز ، هو الإعجاز ، وفي لفظ يحتاج تفسيره إلى مجلّد ضخّم ، وإلى استعراض تاريخ علم الإقتصاد ، وما آل إليه أمر البلاد والمجتمعات التي عاملت بالربا فقال : « يحقّ الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفّار أثيم (٣) » وقال : « وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله ، فأولئك هم المضعفون » (٤) .

وكذلك فعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم - وكان خلقه القرآن - فمدح الزكاة والصدقات ، وذكر آثارها ونتائجها في المال وفي جماعة المسلمين ، وقد مرّت الاحاديث التي وردت في البركة في المال الذي يتصدق منه ، وإعانة العبد المتصدق من الله ، وبالعكس من ذلك ، أنذر على منع الزكاة بالعقوبة العاجلة في الدنيا ، فقد روى بريدة عنه ، قال : « ما منع قوم الزكاة الا ابتلاهم الله

(١) سورة البقرة ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢) سورة البقرة ٢٧٥ .

(٣) سورة البقرة ٢٧٦ .

(٤) سورة الروم ٣٩ .

وهكذا أُنذِر على الربا والمعاملة به بالعقوبات في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ، فقال : « ما من قوم يظهر فيهم الربا ، إلا أخذوا بالسنة ، ما من قوم يظهر فيهم الرِّشَاءُ ، إلا أخذوا بالرعْب (٢) » . وقال « لعن الله آكل الربا ، وموكله و كاتبه ، ومانع الصدقة (٣) » وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ أتيت ليلة أسري بي على قوم ، بطونهم كالبيوت ، فيها الحيات ترى من خارج بطونهم ، قلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا (٤) » وقال : « إذا أراد الله بقرية هلاكاً أظهر فيهم الربا (٥) » .

ومن اطلَّع على تاريخ المجتمع الإسلامي ، ودرسه من الناحية الخلقية ، ومن ناحية تطبيقه للأحكام الشرعية ، والأوامر الإلهية ، وما جرَّ ذلك عليه من يمن وبركة ، وأمن وسلامة ، وسعادة ورخاء . وإخلاله بالشريعة ، وتعطيله للحدود والفرائض ، وما جرَّ ذلك عليه من بلاء وشقاء ، ومن ضيق وضنك ، صدق هذه الأخبار النبوية الصادقة ، وهذه الأحاديث الواردة ، وصدق الله العظيم : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحييناه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون (٦) » ، وقال : « ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى (٧) » .

(١) للأوسط .

(٢) رواه الحاكم في المستدرک ، والنسائي في السنن .

(٣) رواه الحاكم في المستدرک ، والنسائي في السنن .

(٤) رواه احمد وابن ماجه .

(٥) كنز العمال مروياً عن أبي هريرة رضي الله عنه ج ٢ ص ٢١٣ ،

(٦) سورة النحل ٩٧ .

(٧) سورة طه ١٢٤ .

الإصلاحات التي قام بها الإسلام في تشريع الزكاة :

قام الإسلام بدوره الإصلاحية ، في قانون الزكاة وأحكامها ، كما قام بدوره الإصلاحية في سائر الأركان ، كالصلاة ، والصيام ، والحج ، وجاءت شريعة الزكاة وأحكامها كافلة لجميع المصالح الفردية والاجتماعية ، مبرأة من كل تحريف وفساد ، أدخلتها الأمم السابقة ، وتلوّثت بها الأديان المحرفة .

الصدقات في الديانات الأخرى :

إن الذي اعتاد المنهج العلمي التشريعي ، الذي يشتمل على حدود وقوانين وأحكام فقهية ، وتفصيل قانونية في الشريعة الإسلامية بما فيها من كتاب وسنة وكتب فقهية ، يفاجأ بحيرة ، وشعور بالإخفاق ، إذا بحث عن مثل هذا القانون المعيّن الحدود ، واضح المعالم ، معلوم الحدود ، لفريضة الزكاة ، أو الصدقات وفي أسفار الديانة الهندكية وفي كتب العهد القديم أو العهد الجديد ، أو في تلمود ، ويكتشف أنّها مقتصرة على مواد مبعثرة ، وأحكام هي أشبه بالتوجيهات الخلقية أو الروحية ، أو بوصايا عامة ، منها بأحكام فقهية ، أو تفصيل قانونية ، فلا يطلع بعد البحث الدقيق على مباحث أساسية تعطي لهذه الفريضة صورة فقهية قانونية .

فمثلاً ، إذا حاول أن يعرف على من تجب الزكاة وفيما تجب ؟ وما هونصاها؟ وما هو القدر الواجب ، وما هي مصارفها بالضبط ، أو من يستحقها وتدفع إليه ؟ أسئلة تكافئ كتب السنة ، والفقه في الإسلام بالإجابة عنها ، وتكوّنت في تفصيلها هذه المكتبة الفقهية الهائلة في الإسلام ، لم يجد جواباً شافياً ، ولا يرجع الباحث في المقال الخاص بالزكاة أو الصدقات ، Charity في دائرة معارف الديانات والأخلاق بطائل كبير في هذا الموضوع رغم دراسة الكاتبين المختصين له دراسة واسعة ، وتلبيحهم للمراجع القديمة تتبعاً دقيقاً .

ويواجه الباحث المسلم هذا الوضع الغريب المختلف عن الوضع الإسلامي الفقهي في كل باب من أبواب الفقه في كل ديانة قديمة تقريباً ، فتصعب الدراسة المقارنة

للإسلام والديانات القديمة في العبادات والمعاملات ، وأبواب الفقه والأحكام .
« الصدقات » في الديانة الهندوكية :

نقدم أولاً ملخص المقال الذي كتبه الأستاذ (A. S. GEDEN) في «دائرة معارف الأخلاق والديانات» حمل فكرة الصدقات في الديانة الهندوكية ، وأنواعها وطرقها ووضعها في مختلف أدوار التاريخ ، إنها محاولة دراسية موضوعية إلى حد كبير ، اكتفى فيها صاحب المقال بعرض المبادئ والنظريات فحسب ، ولم يتعرض للنقد والمقارنة والاستنتاج . إنه يقول :

« الصدقة واجب ديني عند الهنالك ، وهي تختلف عن الصدقات عند الغربيين في المبدأ والتطبيق لعدة اعتبارات وجيهة ، إن الصدقة بدافع البر والمؤاساة والرفق والعطف ، لا توجد في الديانة الهندوكية ، ولكن مع ذلك إن تقاليد الأريحية والسخاء ، واشتراكية العقارات والأموال ، وسد حاجات الفقراء والمساكين عامة في هذه البلاد لا يدانها أي بلد آخر في هذا المضمار ، وذلك طبيعي ، فإن الجماعات التي تجول في طول البلاد وعرضها عالة على المتصدقين لا يمكنها أن تستمر في عملها الدائب ، إلا إذا كانت على ثقة بأنها ستنال نصيبها من الرزق ، وذلك لا يتيسر طبعاً إلا في مكان عمت فيه هذه الفكرة ، ونالت رواجاً وتطبيقاً في المجتمع ، لقد قال « منسو » : إن السخاء والعطاء واجب على الجميع في هذا العهد ، ولكنهم حصروا الذين ينالون الصدقات والإعانات في طبقة خاصة هي طبقة البراهمة ، وبعض طوائف النسك المعروفة الأخرى ، فهم وحدهم يستحقون المنح والعطاء والصدقة (DAKSHINA) دون طوائف المجتمع الأخرى ، أما جزء هذه الصدقة وثوابها فهو على مقدارها وقيمتها .

وهكذا حملت الصدقات في الهند هدفاً دينياً ، وهو الجزء الحسن في الحياة الثانية^(١) والحصول على المنافع الذاتية ، إن التعليقات الدينية للهنادك ، وكتبهم

(١) لا ينبغي أن ينسى القارئ أن الديانة الهندوكية تدين بالتناسخ والانتقال المستمر من حياة إلى حياة ، بحسب الأعمال والأخلاق في الحياة السابقة ، وقد يكون ذلك بالظهور في صور حيوانات مختلفة بحسب تلك الأعمال والأخلاق .

الدينية لا تعني كثيراً بالسخاء المخلص الذي يتجرّد عن كل غرض وفائدة ، ولكن أكثر الهنادك تجاوزوا عن ديانتهم في هذا المجال . أما الفكرة الغربية للصدقة والبر ، فإنها لا توجد هنا إلا في بعض الطوائف من النساك الذين يبذلون بعض الوقت في إغاثة الملهوفين وإسداء الخير ، ولا ريب أن هذه الأعمال لا تخلو من تأثير تعاليم بوذا الرقيقة الأريحية ، إن سُدنة المعابد الكبار يقيمون مآدب غنية في الأعياد الدينية الخاصة للزائرين ، والضيوف ، غير مباليين بالنفقات الباهظة ، ولكن الفكرة الأساسية في كل هذه الأمور والتصرفات هندية ، وليست غربية أو مسيحية ، الحق أن الكهنة والنساك لا بد أن يعاهدوا على السخاء والعطاء ، ويجب عليهم أن يتصدقوا بكتبهم إذا لم يجدوا شيئاً آخر ، ولكن الأمر بالعكس عملياً ، فإنهم يأخذون في معظم الأحوال ولا يعطون ، أما في الجماهير وغير البراهمة ، فإنهم يملأون هذا الفراغ بتقاليد الأسر المشتركة ، حيث تلزم فيها الصدقات في عدة مناسبات ، وتكون الجماعة مسؤولة عن الفرد الجائع الملهوف .

وكانت فكرة الصدقات تحتل مكانة محترمة ملحوظة في عقول الشعراء في زمن الأدعية المقدسة « لويذا » فيتعنى الشعراء بأجر المتصدق وعلو منزلته ، ويلهبجون بذلك ، وتحتل الصدقات المكانة الأولى في الحقوق والواجبات التي تعود على أصحاب الأسر ، في الأدب الويدي ، وفي صحف الأزمنة الأخرى ، وكتبها الدينية ، ودققت في تحديد الطبقات التي تستحق هذه الصدقات ، وإن كانت الآراء قد اختلفت في هذا التحديد والوصف ، إن « منثو » وضع في هذا الباب أسساً ومبادئ ، وأحكاماً واضحة تأثرت بها التقاليد الهندوكية (في نطاق الصدقات) تأثراً بالغاً .

وعلاوة على تلك النواحي التي تأثرت فيها التقاليد الهندوكية بالتقاليد الغربية ، فإنها اعتبرت هذه الصدقات (DHARMASTHAM) يعني وسائل الأجر والثواب ، وقد خصّ SKUNDPURNA باباً كاملاً لمبادئ الصدقة ، كما

HEMADRI نصف الأخير من كتابه لهذه القضية وحدها .

وهكذا عاش عامة النسّاك الهنود كمين عالة على الصدقات ، إن أمثال هذه الجماعات تحيا حياة بؤس وضيق وجهاد في الغرب ، ولكن بالعكس إن النسّاك الهنديين لا يكسبون عيشهم بكدّ اليمين وعرق الجبين ، ولا يقدرّون على ذلك ، إن نظام التسوّل الواسع النطاق الذي وصفناه ، توارثته الأجيال في الهند منذ زمن عريق في القِدم ، ولا شك في أن عبء هذا الجيش من المتجولين والمتسولين كان ثقيلا على الطبقات الكادحة الفقيرة في المجتمع في جميع الأحوال .

إنّ الديانة البوذية ورثت فكرة الصدقة من البرهمية ، إنها طوّرت فكرة الصدقة للذّين يهبون حياتهم للذّين ، ووسعت أسسها ومبادئها ، إنّ SAK YAMUNI (يعني بوذا) نفسه كان في « حياته الأولى » DAM ASURA (يعني بطل الجود) والسخاء ، ولذلك لم تكن هذه التقاليد والعادات غريبة على الكيان الخلقي والاجتماعي في الديانة البوذية ، أما الديانة الجينية فإنها لم تعترف بهذا الحق المبالغ فيه للبراهمة ، ولكنها ألقت مسؤولية كل فرد من النسّاك على الشعب ، إنّ أي واحدة منهما (أعني الجينية والبوذية) لم تُشرّع مبدأ جديداً ، بل انهما اعترفتا بتقليد الصدقة والبر للذّين يعلّمون مبادئ الدين ، وتمسكتا به عبر القرون .

وكانت هذه العطايا والمنح تنقسم إلى نوعين : الأول وقف العقارات « الأبنية والبيوت » وغلّات القرى ، أو دفع العشر من دخل الفرد في الصدقة ، وكان البراهمة - علاوة على ذلك - ينالون الشيء الكثير من الصدقات في الأعياد والمهرجانات الدينية ، والتقاليد الاجتماعية نقوداً وطعاماً ، ويدخل في ذلك ما يأخذه المتسوّلون المتجولون من متاع وأثاث من القرويين الجهلاء بسبب عقائدهم الخرافية التي يدينون بها ، وبما كان يساورهم من خوف ووجل ، إذا منموا هذه الصدقات ، وردّوا هؤلاء المتسولين خائبين محرومين .

وكان عدد الصدقات التي كانت تعتبر أفضل الصدقات MHADAN يتراوح

بين عشرة وستة عشر نوعاً ، أهمها الذهب وتليه الأبنية وغلّات القرى ، ونحو ذلك ، وكان أهم نوع من صدقة الذهب الذي يعلوها قيمة وأجرأ ما يسمى بـ : TULADAN أو TULAPURSA كان المعطي يزن نفسه بالذهب ، ثم يقسم ذلك الذهب في البراهمة الموجودين ، ويقال أن أميراً هندياً في «قنوج» تصدق مئة مرة بهذه الصفة ، وذلك في القرن الثاني عشر الميلادي ، وقدم هذا النموذج وزير في ولاية صغيرة في «بهار» تسمى (MITAHALA) في القرن الرابع عشر ، وقد ذكر الرحالة الصيني المعروف بـ هوئن سوانج HIVEN TSANG أخباراً عجيبة مدهشة للملك قنوج (SILADITYA) فقد كان يتصدق بكل ما كان يملكه من أسباب ومتاع بعد كل خمس سنوات ، وكانوا يستبدلون الفضة بالذهب أحياناً وكانت البقرة المصنوعة بالذهب ، أو زهرة « كبول » ظاهرة هامة في التقليد الذي يسمّى بـ : «الزنتار» . وكانت هذه البقرة تحطم عند نهاية مهرجان خاص بهذا التقليد تكسر وتوزّع في البراهمة ، أو توقف على معبد ، وكان الأمراء والأغنياء يهبون أواني الذهب والفضة المستعملة لضيوفهم ، أما الوقف على زوايا البراهمة من محصول الأرض ونحوه ، فإنه من التقاليد القديمة في الهند ، يجب ذكرها في حفريات « أشوكا » . ويروى أن هذا الملك منع قسراً عن هذا الإسراف في الصدقات والعطايا في الأيام الأخيرة من حياته ، الذي كاد يودي بنفسه وأسرته .

إنّ هذا النوع من الصدقة على البراهمة وزواياهم ليس شيئاً غير عادي حتى اليوم ، فإطعام البرهمي لا يزال يعتبر برأ ، لا سيما إذا كثر عددهم ، وهي ظاهرة توجد إلى حدّ ما في كل تقليد عائلي ، أو مهرجان ولادة أو مأدبة ، أما في الأعياد المشهورة ، فكان يتسع هذا النطاق كثيراً ، حيث يتوافد إليها جماعات كثيرة من الزوّار والنسّاك ، ويقمن عدة أيام ، ويُستشهد على ذلك بشخصية (USAVADATA) الذي عاش في القرن الأول (كما يقولون) لقد دلّ أثر تاريخي عثر عليه في غار قديم أنه كان يفتخر بأنه كان يسدّ حاجات مئة الف من البراهمة ، ويتصدق بمئة الف بقرة ، وست عشرة قرية ، وحدثت ونحو ذلك ،

نحن نجد في العصور القديمة عدداً من الملوك ، يكفلون عدداً من البراهمة زمناً طويلاً أو مدى الحياة ، فكانت جماعات من النسّاك تنعم وتترفه بالأوقاف والمعارات والأموال ، شأن الزوايا والتكايا في القرون المتوسطة في أوروبا ، وقد يدخل معظم إيراد المملكة وأملاكها في حوزة هؤلاء النسّاك ، وفي ملكهم ، إن العادة المتبعة الشائعة في شمال الهند من تقديم مال مقرر أو عشر دخل الفرد إلى جماعات النسّاك أو «المعلّم» الذي يمتاز في نوع من العلم ، ويتزعم مدرسة فكرية ، قليلة بالنسبة إلى جنوب الهند ، والحق أن سلطان رجال الدين في الشمال ضئيل بالنسبة إلى الجنوب ، فإنهم يحصلون على الأموال بحكم القانون وقوة اليد ، ويستخدمون في ذلك كل طريقة ممكنة ، هؤلاء الزعماء الروحانيون ورجال الدين ، يتجولون في مدن خاصة ، ويطالبون بهذا المبلغ المقرر لهم المعترف به عند الجميع .

إن الأوقاف التي تُحبس على الأمور الخيرية ، هي التي تدرُّ على المؤسسات الدينية في جنوب الهند ، وتقوم بنفقاتها ، وبكفالة النسّاك والعبّاد المقيمين فيها ، أما في شمال الهند ، فلا يوجد فيه هذا النظام بهذا الشكل الواسع ، والعناية الفائقة .

وكان هناك مبدأ خاص ، وهو أن لا يتصدق الإنسان بكل ما يملك فيصبح عائلاً فقيراً ، وأن لا تتجاوز صدقة البقرة ألف بقرة ، وكانت هناك آداب وأحكام لأنواع أخرى من الصدقة ، وأن لا يقبل أحد تلك الصدقة التي رفضها البرهمي ، وأن لا يتصدق في نفس اليوم الذي قبض فيه ، أما مستحقو الصدقات فقد جرى تصنيفهم بحسب استحقاقهم ، منهم من يحرم دفع الصدقات إليه ، ويأثم فاعله ، وكان الواجب على كل هندي ينتمي إلى أصل شريف أن يهب كل ماله ومتاعه للبراهمة ، إذا قضى مده معينة من حياته العائلية ، ورزق ولداً يبقى به نسله ، وأن يغادر مسكنه ومأواه ويتوجه إلى الغابات ويعيش فيها عيشة VANAPRASTHA ثم يكون ناسكاً يجمع قوته وطعامه بالكفاف ، والوقوف على الباب ، هؤلاء النسّاك لا يجوز لهم أن يملكوا شيئاً ، إنهم يحملون كشكولاً من

نارجيل ، وكوباً من ماء ، وعصاً ، وسبحة طويلة في العنق ، وقد نجد من أفراد الطبقة المثقفة في العصر الحديث ، رجالاً وسع الله لهم في الرزق ، واتسعت لهم الدنيا ، قد رفضوا أسباب الحياة وزهدوا فيها ، ووهبوا حياتهم الأخيرة للفقير والمراقبة الدينية .

وهناك نوع آخر قديم من الصدقة ، هو تقديم المنح والعطايا لمستشفيات الحيوانات ، إن هذه المؤسسات والمستشفيات قديمة جداً ، في بعض الأماكن ، يعنى فيها بالأبقار المريضة الضعيفة الهزيلة ، وتجذب فيها العلف ، والماء ، والمأوى ، وذلك شيء يتبرع له الصالحون بكل سخاء ، ويتبرع له المؤمنون المتحمسون يوماً ، وأعتقد أن مقدار هذا النوع من الصدقة كثير جداً في هذه البلاد (١)

إن هذا الاقتباس يدل قارئ الكتاب على أن البراهمة كانوا المحور الوحيد الذي يدور حوله هذا النظام الكبير للصدقات ، والذي يمتد على حقة طويلة في التاريخ ، ورقة كبيرة من الأرض ، ويردف البراهمة النساء ، وهكذائشأت في المجتمع الهندي - من غير شعور وإدراك - طبقة بقيت عالية في كل شيء على الصدقات والإعانات ، وعاشت غنية بالإستجداء والتكفف ، أما ما جر ذلك من قبائح خلقية ، واستغلال وانتهازية ، وتواكل وكسل ، وبطالة ، وإخلاق إلى الراحة ، فهو شيء طبيعي لا يعسر فهمه أو تقديره على الوجه الصحيح .

إن حياة التسوُّل هذه لم تكن (ولو قيل أنها من خصائص عصر التدهور) محمودة في هذا المجتمع فحسب ، بل كانت لازمة لها ، وواجبة لتزكية النفس ، ولذلك اعتبروا الإستجداء والتكفف وسيلة فذة للسمو الروحي ، وشفاء النفس ، وأصبح من واجبات الحياة اليومية لبعض الطبقات ، هذه الطبقة من النساء المتكففين (بهونحي) توجد في البلاد التي أغلبيتها من البوذيين ، وفي بورما

خاصة تجلب هذه الظاهرة أنظار الأجانب^(١) ، وقد أحدث عددهم المتزايد في هذه البلاد ، وبطالة جزء كبير من المواطنين بطالة تامة ، وأوضاعهم الخلقية والاجتماعية مشكلات وعقدآ في حياة البلاد .

وفي جانب آخر اختص أكبر جزء من هذه الصدقات والعطايا بالبقرة فحسب ، من أجل تقديسها ، وعقيدة التناسخ التي لم تزل شعار الديانات الهندكية ، وأنفقت عليها مبالغ باهظة يخست حق ذوي الحاجة من بني آدم ، وأفراد الأسرة البشرية التي كرمها الله .

ويبدو لنا أن هذا النظام وما فيه من التعاليم الدينية ، والتوجيهات ، ينقصه ذلك التنظيم والتحديد ، والضبط الذي تتسم به الديانات السامية كلها بوجه التقريب ، فنجد في هذا النظام حرية كاملة في الاختيار ، ومرونة مفرطة للأوضاع ، وخضوعاً زائداً للملابسات الزمنية والمحلية ، جعله مختلفاً عن الآخر باختلاف البيئات والأقاليم ، فكأنها أجزاء متناثرة لديانات مختلفة متنافرة .

الصدقات في اليهودية :

يقول العلامة السيد سليمان الندوي ، رحمه الله ، في كتابه المشهور سيرة النبي (المجلد الخامس) تحت عنوان « الزكاة في الأديان الماضية » :

« الزكاة أيضاً من العبادات التي فرضت في سائر الأديان السماوية ، ولكن أتباع هذه الأديان تناسوا هذه الفريضة ، حتى لم يبق لها اسم ولا رسم في قائمة الأحكام والتعاليم الدينية لهذه الأديان ، مع أن القرآن يعلن بصراحة ، وبتصديق الصحف السماوية أن الزكاة كانت جزءاً لازماً لهذه الأديان مثل الصلاة تماماً ، فالميثاق

(١) سافر مؤلف الكتاب في عام ١٩٦٠ م إلى (بورما) ، وزار (رنجون) و (ماندلي) وبعض الأماكن التاريخية المشهورة ، ورأى هذا النوع من الناس عن كثب ، وشاهد حياتهم اليومية ، واطلع على مناظر من التسول لا ينساها .

الذي أخذ من بني اسرائيل احتوى على الصلاة والزكاة معاً . يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾^(١) ويقول في موضع آخر :

﴿ لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ﴾^(٢) ويذكر اسماعيل عليه السلام ، فيقول :

﴿ واذكر في الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد ، وكان رسولا نبياً ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربه مرضياً ﴾^(٣) ويقول على لسان عيسى عليه السلام : ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ﴾^(٤)

إنّ التوراة تدلّنا على أن عشر محصول الأرض والأنعام كان واجباً على بني إسرائيل ، ونصف مثقال من الدينار لمن كان في عشرين من عمره ، أو فوق العشرين غنياً كان أم فقيراً . جاء في الخروج : « كل من اجتاز إلى المحدودين من ابن عشرين سنة ، فصاعداً ، يعطي تقدمة للرب ، الغني لا يكثر ، والفقير لا يقلل عن نصف الشاقل ، حين تعطون تقدمة الرب للتكفير عن نفوسكم » (الخروج ٣٠ - ١٤ - ١٥) وكانوا يتركون بعض السنابل في المزارع والحقول عند الحصاد ، وبعض الثمار في الأشجار ، فكان ذلك زكاة يؤدونها بعد كل ثلاث سنوات ، وكان هذا المال يدفع إلى بيت مال القدس ، ينال واحداً من الستين منه رجال الدين ، أما العشر ، فكان يناله اللاويون من آل هارون ، وكان يوقف عشره لضيافة الوافدين والحجاج ، وينفق على إطعام عامة المسافرين والفقراء ، والأيامى واليتامى يومياً^(٥)

أما الأموال التي كانت تجبى بزكاة نصف مثقال ، فكانت تدفع إلى خيمة

(١) سورة البقرة ٤٣ . (٢) سورة المائدة ١٢ .

(٣) سورة مريم ٥٤-٥٥ . (٤) سورة مريم ٣١ .

(٥) Charity Incyclopedia Britanica Edition II.

الاجتماع (أو مسجد القدس) ، فكانت تنفق في شراء أو اني المذبح والآلة «
(الخروج ٣٠) (١)

إن اليهودية (التي قامت على أساس التعاليم النبوية على كل حال ، والتي عاشت تحت ظلال النبوة أكثر من جميع الأديان التي نشأت في النسل الآري) أقرب إلى تعاليم الإسلام ، وقيمه ومفاهيمه ، وأحكامه ، بالنسبة لهذه الأديان بطبيعة الحال ، إن اليهودية لم تنظر إلى حياة البطالة نظرة إعجاب واستحسان ، ولم تشجعها شأن الديانة الهندوكية التي مضى ذكرها ، بل إنها بالعكس حاولت إيجاد الثقة بالنفس والإعتزاز في الفقراء والمساكين ، يقول بنسيرا (BANSIRA) « إن العيش في كوخه المصنوع من قصب أفضل كثيراً من الراحة والهناء في بيت غيره ، التجوُّل والتسوُّل آفة كبيرة » (SIRĀ-22-24-29) ، وأما ما قيل في فضائل الصدقة ، ومنافعها العاجلة والآجلة ، فهو أقرب إلى تعاليم الإسلام ، إن التنوع في الصدقات والتوسع في نطاقها ، وشمولها لكل صغير وكبير يجلب الراحة للآخرين ، ويدخل السرور على القلوب يشبه الأحكام الإسلامية وتعاليم القرآن والسنة ، فقد نرى هناك رعاية للعواطف الإنسانية ، والمشاعر المرهفة اللطيفة ، تجلّت في أروع صورها ومظاهرها ، ووصلت إلى قمتها في النظام الإسلامي جاء في (ABOTH-1) « إن الزكاة والصدقة ركن من أركان المجتمع الإنساني ، وجاء فيه : « إن الصدقة لا تختص بالأغنياء وخدم بل إن الفقير يتقرّب بها ، كما يتقرّب بها الغني » .

إنّ التعاليم اليهودية تفرض على اليهودي أن يتصدّق بعشر دخله ، ولكنها لا تسمح له بالخمس ، لتلايقع في ضائقة ، ويحتاج بنفسه إلى الصدقات ، (KETHUBOTH-50A) وقد سمح بتدخل الحكومة أيضاً في تحصيل الصدقات ، إذا دعت إليه الحاجة ، جاء في (KETHUBOTH19B) إذا رفض البخلاء الصدقة ،

(١) سيرة النبيج ٥ - ص ١٤٨ - ١٤٩

أو لم يتصدقوا كما ينبغي ، فعلى الحكام أن يرغموم على ذلك ، أو يضرخوا العصاة ، إذا اقتضت الضرورة حتى يذعنوا للأمر . وهكذا أعطت اليهودية أسرة المتصدق حقاً كاملاً في الاستفادة من الصدقات ، واعتبرتها أحق بها دون غيرها ، وهو شيء يشبه الحديث النبوي : « إبدأ بمن تعول »^(١) . جاء في BABAMEZIA « أسرة المتصدق أولى بالاستفادة من هذه الصدقات ، والوالدان أحق بها ، ثم الأخوة والأخوات ، ويليهما فقراء القرية ومساكينها ، ويأتي بعدها دور فقراء قرى أخرى » وذلك يشبه التعليم الإسلامي الوارد في حديث مشهور : « تؤخذ من أغنيائهم ، وترد على فقرائهم » ، ويمكن أن تقدم الصدقات إلى اليهودي وغير اليهودي سواء ، (GILTIN 61A) أما فك الرقاب بالفدية فهو أفضل وأسمى من غيره من الصدقات والمبرات BABA BATHRA 88 ويجب أن يلاحظ كرامة الشخص الذي ينال الصدقة ، (SHABBUTH 63A) والصدقة عابساً أو كارهاً تحبط العمل BABA BATHRA-98

وجاء في « دائرة معارف الأديان والأخلاق » ما يلي : « كان هناك نظام خاص مستقل لإعانات الفقراء ، وأهل الحاجة في عهد التلمود ، وهو يتلخص في تقديم وجبات الطعام يومياً ، والنقود اسبوعياً ، وكان المهدة في هذا الأمر على شخصين أو ثلاثة من الثقات الأمناء ، فكانوا يجمعون التبرعات من الجماعة ، كما كانت جماعة أخرى مؤلفة من ثلاثة أفراد تقع عليها مسؤولية الفحص في أمر السائلين والفقراء BABA AATHRA-8A وكان يجب عليهم أن يكلموا مهمتهم ، ويؤدوا واجبهم مهمتين بعواطف الفقراء والمساكين ومشاعرهم KETHUBOTH6B وقد استمر هذا التقسيم إلى زمن طويل MIAMLOCVIT-9-3

وكان اليهود المتدينون متمسكين بأداء العشر الذي قررته شريعتهم باهتمام وانتظام ، وكانت عادة التسوّل شاذة في المجتمع اليهودي في القرون المتوسطة ،

(١) الصحيح البخاري .

ولكنها نالت رواجاً كبيراً في القرن السابع عشر ، وانتشر السائلون المحترفون في كل طائفة يهودية ، وبدأ منظرم كرهياً ، جديراً بالاحتقار ، نحن نجد صورة رائعة لمثل هذا الإستجداء الوقح في كتاب ملك الشحاذين KING OF SHINOWET لمؤلفه (TANGWILL) ولكن التنظيم اليهودي الجديد للمبرة الاجتماعية ، قضى على هذه الحرفة أخيراً .

ورغم هذا التشابه الجزئي بالتعاليم الإسلامية في هذا الموضوع ، الذي قدمنا بعض أمثله في السطور الماضية ، نجد هناك فرقاً كبيراً بينه وبين نظام الزكاة والصدقات في الإسلام ، وهو أنه توجد في اليهودية فرقة خاصة لأخذ الزكاة ، وتدبيرها وتوزيعها في هذه الفرقة ، وهي فرقة تنتمي إلى سلالة خاصة ، ونسب خاص ، وهم يرثون هذا المنصب أباً عن جد ، يقول الكاتب اليهودي GFMOORE في كتابه (JUDAISM) : « إن المبدأ الأساسي لهذا التنظيم (جمع الضرائب للأمور الدينية) كما جاء في القانون الأساسي لليهود ، هو أن يقدم عشر الإنتاج الزراعي إلى « اللاوين » ويقدم هؤلاء عشر هذا العشر إلى رجال الدين » .

ويذكر الكاتب ذلك الشره للمال ، والاستحصال بالقوة ، وهضم الحقوق ، الذي اتسم به هذا النظام ، فيقول :

« كان علماء اليهود يجمعون هذا العشر عن طريق عصابات قوية ، يوفدونها إلى الأراضي الزراعية نفسها ، فتأخذ قهراً وبطشاً ، وكانت تضرب الأحرار الصغار الضعاف ، الذين كانوا يريدون أن يستأثروا به بحق .

أما نشاط اليهود في أداء هذه الفريضة ، وتحمسهم لها ، وشعورهم بالمسئولية نحوها ، وتطبيقهم على المجتمع في مختلف أدوار التاريخ ، فيقول عنه المؤلف :

« لعلّ أداء العشر في اليهود تركّ إلى ضمير صاحب الضريبة ، مع أن التجربة تدل على أن الإعتماد على الضمير في هذه الناحية لم يأت بخير ، حتى أن هذا النظام

الذي يقوم على التطوع ، أخفق في منطقة صغيرة مثل جوديا (JUDEA) التي كانت حكم إيران ، فقررُوا إرسال زعيم ديني مع اللاويين لجمع الأموال (NEH-7-38F) ولكن هذه الحيلة أيضاً باءت بالفشل ، فقد جاء في (NEH-13-10) إن أداء العشر تعطل بتاتاً ، حتى اضطر اللاويون إلى ترك معبدهم ، وتوجهوا إلى مكان آخر ليحرقوا أرضهم بأنفسهم وينالوا قوتهم ، (MAL-3-8F)

ويقول مستطرداً :

« ولا عجب في ذلك فقد كان الفلاح لا يعتمد عليه مطلقاً في أداء الضرائب الدينية ، حتى المتدينين منهم كانوا يؤثرون تقاليد الآباء والأجداد وكانوا يحسبون أن العادات القديمة أولى وأفضل من فتاوى المدارس ، والإيضاحات الدينية ، ويقول :

« وقد أزعجت هذه الغفلة السائدة العامة قادة الدين ، وأقلقتهم ، ولكن جميع المساعي والمحاولات لتنفيذ هذه الاحكام الدينية ، باءت بالإخفاق في صورة عامة ، ولم يبقَ هذا الانحراف فردياً ، بل أصبح جماعياً ، فقد أصبح ابتزاز حق الله في أموال العبيد ، وانتهابه جنائية قومية ، ذاقت الأمة وبال أمرها ، فقد كان من المقرر ، أن اليهود لا يستردون ما فقدوه من فضل الله وبركاته إلا بالإصلاح الشامل ، واستعادة حياة الطاعة والانقياد . »

MAL 3-8-12 MIDRASH - TEBELHORON ISLAM 51 2Co, 8-9

ويقول :

« ولا شك أن علماء الدين أُنذروا قومهم ونصحوهم بأن هذا الخداع والمكر والانحراف عن أداء العشر إثم كبير ، ولكنهم لم ينجحوا في إصلاح القوم . »

بعد هذه الشهادات الجلية الواضحة لعلماء اليهود ومؤرخيهم ، ومع العلم بأن اليهود ظلوا في جميع أدوار حياتهم شعباً مفرماً بالثراء الفاحش والاكتمال ،

استخدم جميع الوسائل وكل ذكائه ، لتنمية الأموال وتكثيرها، وكان له الزعامة في عمل الربا، وصناعة الصرافة والنقود ، والبراعة في الأعمال التجارية في كل عصر ومصر ، يحلو لنا أن نتلو تلك الآيات الكريمة المعجزة التي ذكر فيها بخلهم وحرصهم الزائد ، وتماطلهم في أداء الحقوق ، وميلهم إلى التأويل والتعليل ، وعسى ولعل ، وكلماتهم الوقحة الجريئة في مثل هذه المناسبات وعند أداء الواجبات :

﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ، سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾^(١)

وقد قالوا حينما طلب منهم الإيثار والسخاء ، والبذل في سبيل الله في وقاحة وجرأة « يد الله مغلولة » :

﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يدها مبسوطةتان ينفق كيف يشاء ﴾^(٢)

ويبدو لنا - في ضوء القرآن - أن يهود الحجاز الذين كانوا مسيطرين على اقتصاد البلاد محتكرين لتجارتها ، قصروا دائماً في الصدقات والمبرات وأداء الزكاة ، يقول القرآن : ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا

(١) سورة آل عمران - ١٨١ جاء في تفسير ابن كثير في تفسير هذه الآية :

« قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : لما نزل قوله تعالى : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » قالت اليهود : يا محمد ، افتقر ربك فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله : « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء » الآية ، رواه ابن مردويه وابن أبي حاتم . »

(تفسير ابن كثير الجزء الثاني ص ١٦٨ طبع بيروت)

(٢) سورة المائدة ٦٤ .

الصلوة؛ وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون ﴿١١﴾

الصدقات في الديانة المسيحية :

وبما أن المسيح عليه السلام لم يأت لأتباعه بقانون عام شامل ، وبشريعة تضارع شريعة موسى عليه السلام ، بل إن عمله ظل مقصوراً ^(٢) على إصلاحات وتغييرات شتى ، وإن دعوته الأساسية كانت تهدف إلى بعث روح صادقة للعبودية والإخلاص ، وإيقاظ عواطف الحب الإلهي والعطف على الإنسان ، وإحلال الحقيقة محل الصور والأشكال ، وكان ذلك إزاء التقليد الأعمى للعادات والأشكال التي أسرف اليهود في التمسك بها ، والعضّ عليها بالنواجذ ، فلم يقدم إلى أمته نظاماً مستقلاً للصدقات - شأنه في الأركان الأخرى للدين وشعب الحياة - يتضمن تعليمات وتشريعات دقيقة حيال الشريعة اليهودية ، وأحكام التوراة ، إنه حاول فقط إيقاظ الشعور بالحقيقة والروح ، والإخلاص والحق ، والحب الإلهي والأخوة الإنسانية في النظام السابق ، وذلك هو السبب في عدم وجود نظام واضح ، وقانون منظم للصدقات في ضوء توجيهات الكنيسة ، وكل ما يوجد في هذا الموضوع لا يعدو توجيهات خلقية عامة ، ومواعظ دينية .

ما هي مكانة الصدقات في العهد الجديد ^(٣) وكيف كانت تعاليم سيدنا عيسى عليه السلام الأساسية حولها ، وتوجيهاته ، وعواطفه الشخصية نحوها ؟ وإلى أي حدّ بقيت هذه الفكرة في عهد الكنيسة بعده ، وما هو مدى تعامل العالم المسيحي بهذه الفكرة؟ يتحدث كاتب مسيحي وهو يستعرض هذا الموضوع بإيجاز

(١) سورة البقرة ٨٣ .

(٢) يقول الله سبحانه وتعالى على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام : «رمصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون» (سورة آل عمران - ٥٠)

(٣) الإنجيل

في موسوعة الديانات والأخلاق ، يقول :

« لقد ذكر السيد المسيح واجب الصدقات في خطابه على الجبل ، وفي مناسبات أخرى بنفس التأكيد ، والإخلاص الذي كان يتظاهر به علماء اليهود قبله ، فتجب الصدقة على أتباعه ، ولكن يجب أن تكون هذه الصدقة تابعة من الإخلاص ، وبنيّة الخير فحسب ، إن كل مسيحي يريد أن يكتمل في ذاته كما كان « الأب » الذي هو في السماء مكتملاً في شخصيته ، ولا ينبغي أن تشوب نيّته شائبة من الرياء ، وطلب المدح ، والعلو الشخصي (MT-6-1FF) كما أن الموعظة التي توجد في الإنجيل لوقا تنطوي على أحكام للصدقات هي أوضح من غيرها « أعطوا تعطون ، أعطوا من يسألكم ، ومن أخذ متاعكم فلا تسترجعوه منه ، أحببوا أعداءكم ، واقترضوهم ، ولا تؤسوهم ، وستجزون جزاءاً كبيراً على ما تفعلون ، حتى تكونوا أبناء تلك الذات العالية الرفيعة ، لأنها ترحم الجميع وتعطف على الكفور المعربد أيضاً » (LUKE-6-30-35) .

لقد عمل السيد المسيح بما علّم الناس (بل كان عمله أكثر من تعليمه) إنه بذل قسطاً كبيراً من أوقاته بعد النبوة في إزالة متاعب الناس ، وخدمة الجماهير ، وإبراء الذين كان الشيطان قد مسّهم ، لأن الله كان معه (AC-10 38) .

ولكن لا ينبغي لنا أن نعتقد أن المسيح كان ضعيفاً في انتصاره للإنسانية ، فقد قال : إنه ينبغي للإنسان أن يكون طالباً « للملكوت الله » وللحق قبل كل شيء ، أما الصفات الحميدة الأخرى ، فإنها ستنشأ فيه بنفسها ، وقال : يجب أن يكون تفكير الإنسان (وهو يساعد الآخرين) في سلامة أرواحهم فوق تفكيره في سلامة أجسادهم ، فقد كان هو نفسه حينما يعالج الناس ، أو يساعدهم في أمورهم ، يفكر في مصلحة (الروح) الدائمة أكثر من مصالحهم المؤقتة ، كما أن هنا ناحية لا بدّ من النظر فيها ، وهي أن السيد المسيح قد اعتبر أساس المساعدة والبرّ تلك العلاقة التي يتصل بها الإنسان بربّه ، فهذه هي العلاقة التي

تجعل الناس إخواناً ، وعلى هذا فبما أن الناس كلهم أعضاء أسرة واحدة في الحقيقة يتحتم عليهم أن يساعد بعضهم بعضاً على أساس كونهم عباد رب واحد .

وقد قال بولس : « وآزرُوا وتعاونوا فيما بينكم كالسيد العظيم ، واعملوا بقانون سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ » ، (GAL-62) ولكن الذي لا غبار عليه أنه ما دامت علاقة السخاء والصدقة بهذه الغايات السامية ، والنيتة الخالصة ، فلا مجال فيها للرياء والمباهاة .

ولننظر إلى أي حد تآثر أتباع عيسى عليه السلام وأنصاره الأولون بتعاليمه ، التي جاء بها وبالأسوة التي قدمها هو نفسه ، وقد برز نظام اشتراكي كنتيجة حتمية لنزع الروح في يوم (PENTA COST) أقامه الناس حسب رغباتهم ، وأنفق فيه أغنياء الجماعة جلّ أموالهم ، أو ما يقارب الكل على سد حوائج جيرانهم الفقراء (AC-2-44-45) ، ولم يبيع كل الناس جميع أموالهم ، فالذين لم يكن عندهم مال فوق حوائجهم ظلّوا ينفقونه على سد مطالبهم ، أما الذين كانت عندهم أموال تفضل عن حاجاتهم ومطالبهم ، باعواها كذلك ، أو أنفقوها في مصالح الجماعة ، (4-34-35) ولا شك أن صدقة عظيمة كهذه لا تدوم إلى أمد بعيد ويبدو من أمثلة ANANIA و SAPHIRA أن دافع الخدمة المطلوب كان مضطرباً متكلفاً في أكثر الأحيان ، ولعل جميع تلك المفاصد التي تنشأ بمساعدة الكسالى والمعجزة من الناس ظهرت في كنيسة القدس ، كما يبدو بتهديد بولس أن هذه المفاصد تعدّت إلى الكنائس الأخرى كذلك (2TH-3-10 FF) .

ولو أن صدقة العهد البدائي لم تدم على حالها السابق حينما فتر الحماس السابق في الناس ، غير أن الصدقة بقيت قائمة ، وظلت ميزة خاصة لجميع الكنائس المسيحية ، بل بقيت ميزة الكنيسة ، ولما قدم المسيحيون الجدد أيمانهم لبولس للحلف والوحدة ، أنفقوا بوجه خاص على مساعدة الفقراء (سواء كانوا من غير المسيحيين) إن هذا المبدأ هو الذي كان بولس يحرص على إبقائه والاحتفاظ به ،

(GAL-2-10) ، وبالنظر إلى هذه الغاية ، وانتشار الإتحاد بين كنائس اليهود وغير المسيحيين ، قام بولس بتنظيم كنائس مقدونية (ACHAI) بحيطه باللغة ، وجمعت تبرعات الصدقة فقام نفسه بإيصالها إلى سدنة القدس ، وشاركه في هذا العمل بعض الممثلين من الكنائس الأخرى (2Co, 8-9)

أما ما أصدره بهذه المناسبة من الأمر بالتبرعات الأسبوعية ، فأصبح أساساً - فيما أظن - لذلك التبرع الأسبوعي الذي بقي في عدة كنائس بوجه عام ، ولا يزال باقياً في أكثر الكنائس في زمننا الحاضر ، ولا يقلّ حثّ الزعماء المسيحيين - عدا بولس - على التصدق والترحم على الفقراء ، فقد شتّع (السانت جيمس) بكلمات قوية على ذلك الظلم والتعدي ، الذي يصبّه الأغنياء على الفقراء (TA5-2-1-6-6) ولكنه صورّ قانون الخدمات الدينية تصويراً مجملًا يقول : « إن الديانة الأصيلة التي لاشية فيها في نظر الإله والأب ، هي تفقّد أحوال الأيتام والأرامل ، والعطف عليهم ، والمشاركة في أحزانهم ، وتركبة النفس من غرور الفخر والمباهاة (1-27) .

وقد وجّه مؤلف « رسالة إلى اليهود » وصيّة عملية إلى مخاطبيه في آخر خطابه ، يقول :

« أحسنوا ، ولا تنسوا توزيع الصدقات ، فإن الله لا يرضى بهذه الذبائح ، وقدم (السانت جوهن) فريضة الصدقة بغاية وضوح وجلاء ، انه يعتبر دافع خدمة الإنسان ، نابعاً من عاطفة الحب لله ، يقول :

« الذي تتوفر لديه أسباب الراحة والمتعة ، ثم هو يهرب من مساعدة أخيه الفقير ، وهو يعلم مدى احتياجه ، كيف يدوم فيه حب الله » .

وهكذا يتبيّن لنا أن الصدقة ، ومساعدة الفقراء تعتبر واجباً أساسياً للحياة

المسيحية ، في تعاليم السيد المسيح ، وأتباعه الأولين ، وأن علاقة هذا الواجب الأولى بتلك الصلة ، التي يتصل بها الناس بالرب تعالى عن طريق السيد المسيح ، وأن النتيجة الحتمية للإعتراف بهذه الصلة هي الصدقة والحسنة (١)

دور الاسلام الاصلاحى :

وقام الإسلام بعدة إصلاحات جذرية ، كان لها الأثر الثوري الكبير ، في نظام الزكاة وفي أخلاق المجتمع .

إلغاء الاحتكار الدينى والطبقى :

منها أنه ألغى الإحتكار الدينى ، والإحتكار العائلى ، الذي كان قد أساء إلى هذه الطبقة المحتكرة في جانب ، فأفسد أخلاقها ، وحَوّلها إلى طبقة مترهلة عاطلة تعيش على الصدقات ، وتترّفه على أساس الأموال ، التي تأتيها عفواً ومجاناً ، ولا تشعر بحاجة إلى الكدح والجهد ، والاكْتساب بالطرق الطيبة الكريمة ، وكان رزقها مضموناً مكفولاً بمجرد أنها من أولاد النبي فلان ، أو من البيت الفلاني ، أو الأسرة الفلانية ، أو أنها تشغل المنصب الدينى الفلاني بحكم الوراثة ، وإن لم تقم بحقوقه ومسؤوليته ، فنشأت بذلك طبقة محترفة ، تحتكر الدين وتستغل النسب وتتجرّد عن كل فضيلة ، أو صفة من صفات الرجولة والبروءة ، والتعفّف وعزّة النفس .

وفي جانب آخر ، أساء إلى الفقراء والمساكين ، وأصحاب الخصاصة المستحقين ، الذين كانت ، حقوقهم تُهضم ، لأن المتصدّق كان يفضل بطبيعة الحال . أن تذهب هذه الصدقات إلى من يتشرف بمنصب ديني ، أو بدم نبوي ، وسلالة كريمة ، كما يشاهد ذلك عياناً في المجتمع الهندي ، فقد استولى البراهمة ، وسدنة المعابد على الصدقات ، والنذور فلم يدعوا شيئاً لرجل الشعب الفقير الذي لا يعتز بالدم البرمهي المقدّس ، أو بالسدانة والكهانة ، فحرّم في كثير من الأحيان

ما يسدُّ فاقته ويقم صلبه ، وكان فريسة إهمال الأغنياء ، وتترف البراهمة والسدنة ، وضحية الوضع الديني التشريعي ، في الديانة الهندية الآرية .

بالعكس من ذلك سدَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باب هذا الإحتكار الديني والمائلي ، والظلم الإجتماعي إلى آخر الأبد ، وحرّم الزكاة على بني هاشم - الذين هم أسرة النبوة ، وأهل الفضل في تاريخ الإسلام ، والكفاح الديني - فقال في قوة وصراحة ، « إن الصدقة لا تحلّ لنا^(١) » وكان يتورّع من أكل الصدقة كلّ التورّع ، وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه : « أن رسول الله ﷺ كان إذا أتى بطعام ، سأله عنه ، فإن قيل هديّة ، أكل منها ، وإن قيل صدقة ، لم يأكل منها ، وقال لأصحابه كلّوا^(٢) » ويبالغ في منع أهل بيته من أكلها ، حتى لا يتعودوا ذلك ، ولا يحتجّ به المسلمون ، فيفضّلونهم ويحرموا غيرهم ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : « أخذ الحسن بن علي تمرّة من تمر الصدقة ، فجعلها في فيه ، فقال ﷺ ، كخ كخ ، إرم بها ، أما علمت أنا لا نأكل الصدقة^(٣) »

وقد كان هذا حكماً باقياً في حياته وبعد حياته صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد روي عنه مرفوعاً ، أنه قال : « إن هذه الصدقات ، إنّما هي أوساخ الناس ، وانها لا تحلّ لمحمد ولا لآل محمد^(٤) » وقد جرى العمل بذلك في الفقه الإسلامي والمجتمع الإسلامي ، وبقي باب الزكاة والصدقات المفروضة مفتوحاً على مصراعيه لعامة المسلمين وفقرائهم ومستحقيهم ، لا تُهضم حقوقهم ، ولا يُغلبون فيها على أمرهم ونصيبهم^(٥) .

(١) رواه أصحاب السنن عن أبي رافع عن النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) رواه الشيخان .

(٣) رواه الشيخان .

(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) أنظر البحث في ذلك في كتاب « احكام القرآن » للبحاص ، وللقاضي ابن العربي

وقد كانت هذه سيرته ﷺ في أهل بيته وأسرته ، فكان لهم النصيب الأوفر في المغارم ، والنصيب الأقل في المغانم ، فلما حرم الربا ، بدأ بأسرته والأقربين إليه ، ولما وضع دماء الجاهلية ، بدأ بدم أحد أبناء أسرته ، فتمسحاً في خطبته في حجة الوداع ، قوله : « ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ، وكان مسترضعاً في بني سعد ، فقتلته هذيل ، وربا الجاهلية موضوعة ، وأول ربا أضع من ربانا ، ربا عباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله الخ (١) . ولما فرضت الزكاة في الإسلام ، وكان باباً واسعاً ، باقياً مع الإسلام للرزق الواسع ، عمد إلى بني هاشم أهل بيته وأسرته - فحرمهم الانتفاع به والتعيش عليه ، وتلك طبيعة الأنبياء والرسل ، وسيرة من يكرمهم الله بالرسالة والنبوة ، كان لمحمد ﷺ فيها المقام المحمود .

إسقاط الوسائط في أداء الزكاة :

ومنها ، أنه أسقط الوسائط بين مؤدي الزكاة وبين مستحقيها ، الوسائط الدائمة التي كان قد فرضها بمثلها الشريعة الموسوية ، وهم الأحرار والرهبان ، فكانت الفريضة لا تسقط عن صاحبها إلا إذا تسلمها الكتان أو الأحرار ، أو سدنة البيت المقدس ، فأنشأ ذلك في هذه الطبقة حب المال الفاحش والتهامة ، وأساءوا التصرف فيها أحياناً كثيرة ، واستولوا عليها ، وحرموا ذوي الحاجة المستحقين ، ولذلك قال القرآن : « يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحرار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب آليم (٢) ،

(١) رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

(٢) سورة التوبة ٣٤ .

فقد انشأت هذه الوساطة وهذا الإحتكار فيهم الشره والإستيلاء على أموال الناس والإكتناز ، والثراء الفاحش .

وقد أسقط الله هذه الوساطة الكهنوتية ، كما أسقطها في جميع العبادات ، وإقامة الفرائض الدينية ، فكل مسلم يستطيع أن يصلي بنفسه ، ويؤدي زكاته بنفسه ، ويصوم ويحجّ بنفسه ، لا يحتاج إلاّ إلى معرفة أحكامها ، المعرفة التي لا بدّ منها في أداء هذه الأركان ، والنّية ، وتحقيق الشروط التي شرطت لها ، فإذا توفّرت هذه الشروط لم يكن في حاجة إلى وسيط ، وإلى طبقة دينيّة رسمية .

تمليك المستحقين ، وتحكيمهم فيما يأخذونه :

ومنها ، أن بعض الأجزاء من أموال الزكاة ، كما قدّمنا ، كانت مقيّدةً بقيد ، لا يتصرف فيها من يأخذها تصرفاً مطلقاً ، فقد كان جزءاً مخصّصاً لحجاج بيت المقدس ، ولكنه كان مخصّصاً بضيفتهم وطعامهم ، ولكن الشريعة الإسلامية ، ملكت الفقراء والمساكين ، ومن يستحق الزكاة هذه الأموال التي يأخذونها ، فيتصرفون فيها ، كما يشاءون ، وينفقونها في حاجاتهم وورغباتهم ومصالحهم ، وذلك ما تنفذه اللام في قوله تعالى : « للفقراء والمساكين والعاملين عليها ^(١) »

هذه الإصلاحات والتحسينات ، هي التي جعلت نظام الزكاة الإسلامي ، أرقّ وأدقّ ، وأوفى ، وأرقى نظام تعبدي واجتماعي ، وأكفل بالمصالح الفردية والاجتماعية ^(٢) .

(١) سورة التوبة - ٦٠ . انظر البحث في هذه اللام ، في كتب احكام القرآن ، وفي كتب اصول الفقه للمذاهب الأربعة .

(٢) استفدنا في هذا البحث من المجلد الخامس « للسيرة النبوية » لأستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله تعالى .

مكانة الزكاة في الاسلام ، ووضعها الشرعي الاصيل :

قرنت الزكاة بالصلاة في اثنين وثمانين^(١) ٨٢ موضعاً من القرآن ، وتكرر في القرآن : « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة (٢) » ، وفي وصف المسلمين ، « يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة (٣) » وقد عدتها رسول الله ﷺ من أركان الإسلام وأسسها ، فقال : « بُني الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان (٤) » وسئل ما الإسلام؟! فقال : « أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان (٥) » . وفي حديث ضمام بن ثعلبة ، أنه قال له ، « أنشدك بالله آله أمرك ان تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا ، فتقسمها على فقرائنا ؟ » قال ، اللهم نعم (٦) ، والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن تحصى ، وقد بلغت حد التواتر المعنوي ، وانعقد على كونها قرينة الصلاة الإجماع ، وتعاملت الأمة بها جيلاً بعد جيل .

وقد جعل الله إقامة الصلاة وأداء الزكاة علامةً لصحة الإسلام وأحكامه ، ودخول الرجل في السلم مع الله والإخاء مع المسلمين ، فقال : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم (٧) » وقال : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون (٨) » وأخرج البخاري ومسلم من حديث عبدالله بن عمر قال ، قال

(١) حسب إحصاء العالم الجليل الأمير قطب الدين خان الدهلوي (١٢٨٩م) في ترجمة مشكاة المصابيح وشرحها .

(٢) سورة البقرة - ٧٣ - (وغير ذلك) .

(٣) سورة المائدة - ٥٥ .

(٤) أخرجه مسلم والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه .

(٥) للشيخين عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٦) رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه .

(٧) سورة التوبة - ٥ .

(٨) سورة التوبة - ١١ .

رسول الله ﷺ ، « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله » وأخرج البخاري ومسلم والنسائي من حديث أبي هريرة ، قال ، قال رسول الله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئتُ به ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله . »

الاصل في الزكاة ، أن تكون بنظام :

وطبيعة الزكاة ، ووصفها الشرعي الأصل ، أن تدفع الى بيت مال المسلمين ، والى من يلي أمرهم من الخلفاء والأمراء^(١) ، كما أن طبيعة الصلاة ، ووضعها الشرعي الأصل أن تؤدي في جماعة .

تمسك ابي بكر الصديق لهذا الاصل ، ومحافظة عليه :

وهذا هو الأصل الشرعي ، الذي فارق عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الدنيا ولقي ربه ، وترك المسلمين عليه ، فتمسك به خليفته وأمينه في دينه وأمنته ، وأفقّه الناس لهذا الدين وأسراره ، ومقاصده ، وأغيرهم عليه ، أبو

(١) والمسلمون مكلفون شرعاً بإقامة نظام الخلافة والإمارة ، آثمون بالتهاون فيها ، والاخلال بها ، كما هو واضح من دراسة كتب الحديث والفقه ، وكما هو ظاهر من فهم روح الإسلام ومقاصده ، وتفيد في هذا الموضوع مطالعة كتاب « إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء » لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، وكتاب « منصب الامامة » لحفيده العلامة الشيخ اسماعيل الشهيد ، وكان المسلمون الأولون يستعظمون أن يقضوا أقصر مدة من الزمان ، من غير خلافة وخليفة ، وقد اعتاد المؤرخون أن يذكروا بدء السنة في هذه الفترة بقولهم ، وحلت سنة كذا ، والمسلمون من غير خليفة ، فكيف لو شهدوا هذه الحقبة الطويلة التي تمر من غير تفكير ، أو توجع لهذا الوضع الشاذ ؟

بكر الصديق ، فجدّ وألحّ على أن يقاتل من منع الزكاة عن بيت المال .

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه هذا الخبر مفصلاً ، وما جرى بين أبي بكر وعمر - وهما شيخا الإسلام وركناه - من الحديث ، وكيف اختلفت وجهة نظرهما حتى وافق عمر ، وأقرّ أبا بكر على ذلك ، واعترف بعمق نظره ، ودقة فهمه ، وغيرته على هذا الدين ، والى القارىء هذه القصة بطولها ، كما رواها أصحاب الصحاح (١) :

« عن أبي هريرة رضي الله عنه ، لما توفي رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر ، وكفر من كفر من العرب : فقال عمر ، كيف تقاتل الناس ، وقد قال رسول الله ﷺ ، أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه ، إلا بحقه ، وحسابه على الله تعالى ؟ فقال والله ، لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقاً (٢) ، كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ ، لقاتلتهم على منعها ، قال عمر : فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال ، فعرفت أنه الحق .

لماذا وقف أبو بكر هذا الموقف ، من مانعي الزكاة ؟ :

وقد بحث العلامة الخطّابي (٣) ، في أصناف أهل الردّة ، والبنفي ، وحقيقة منعهم للزكاة ، ومراتبهم ، وموقف أبي بكر منهم ، ليستطيع به القارىء أن يستعرض الوضع التاريخي في تلك الفترة وأسباب اختلاف فهم الصحابة وحكمهم عليه ، يحسن أن ننقله هنا باختصار وتلخيص ، يقول رحمه الله :

(١) رواها الجماعة ، إلا ابن ماجه .

(٢) في لفظ مسلم ، والترمذي ، وأبي داود : « لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونه ، بدل العناق »

(٣) نقله من كتاب « نيل الأروطار » للعلامة الشوكاني - ج ٤ - ص ١١٩ - ١٢٠ .

« أهل الردة كانوا صنفين ، صنفاً ارتدوا عن الدين ، وناذبوا الملة ، وعدلوا الى الكفر ، وهم الذين عناهم أبو هريرة رضي الله عنه ، وهذه الفرقة طائفتان ، إحداهما أصحاب مسيلة الكذاب من بني حنيفة ، وغيرهم الذين صدقوه على دعواه في النبوة ، وأصحاب الأسود العنسي ، ومن استجاب له من أهل اليمن ، وهذه الفرقة بأسرها منكرة لنبوة نبينا محمد ﷺ مدعية النبوة لغيره ، فقاتلهم أبو بكر ، حتى قتل مسيلة باليامة ، والعنسي بصنعاء ، وانقضت جموعهم ، وهلك أكثرهم . والطائفة الاخرى ارتدوا عن الدين ، فأنكروا الشرائع ، وتركوا الصلاة والزكاة وغيرها من أمور الدين ، وعادوا الى ما كانوا عليه في الجاهلية ، فلم يكن يسجد لله في الأرض إلا في ثلاثة مساجد ، مسجد مكة ، ومسجد المدينة ، ومسجد عبد القيس .

والصنف الآخر ، هم الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة ، فأنكروا وجوبها ووجوب أدائها الى الإمام ، وهؤلاء على الحقيقة أهل البغي ، وإنما لم يدعوا بهذا الاسم في ذلك الزمن خصوصا ، لدخولهم في غمار أهل الردة ، وأضيف الاسم في الجملة الى أهل الردة ، إذ كانت أعظم الأمرين وأهمها ، وأرخ مبتدأ قتال أهل البغي من زمن علي بن أبي طالب عليه السلام ، إذ كانوا منفردين في زمانه لم يخلطوا بأهل الشرك .

وقد كان في ضمن هؤلاء المانعين للزكاة ، من كان يسمح بالزكاة ، ولم يمنحها إلا أن رؤساءهم صدوهم عن ذلك الرأي ، وقبضوا على أيديهم في ذلك كسني يربوع ، فإنهم قد كانوا جمعوا صدقاتهم ، وأرادوا ان يبعثوا بها الى ابي بكر ، فمنعهم مالك بن نويرة من ذلك ، وفرقها فيهم ، وفي أمر هؤلاء ، عرض الخلاف ، ووقعت الشبهة لعمر بن الخطاب ، فراجع ابا بكر وناظره ، واحتج عليه بقول النبي ﷺ ، أمرت ان اقاتل الناس ، والحديث ، وكان هذا من عمر تعلقاً بظاهر الكلام ، قبل ان ينظر في آخره ، ويتأمل شرائطه ، فقال له ابو

بكر ، إن الزكاة حق المال ، يريد ان القضية قد تضمنت عصمة دم ومال متعلقة بأطراف شرائطها ، والحكم المعلق بشرطين ، لا يحصل بأحدهما والآخر معدوم ، ثم قايسه بالصلاة ، وردّ الزكاة إليها ، فكان في ذلك ، من قوله دليل على ان قتال الممتنع من الصلاة كان إجماعاً من الصحابة ، ولذلك ردّ المختلف فيه الى المتفق عليه .

فلما استقر عند عمر صحة رأي أبي بكر ، وبان له صوابه ، تابعه على قتال القوم ، وهو معنى قوله ، فعرفت أنه الحق ، يشير الى انشراح صدره بالحجة التي أدلى بها ، والبرهان الذي اقامه نصّاً ودلالة (١) «

فضل موقف ابي بكر ، وحسن أثره في الاسلام :

قد كان منع الزكاة عن الإمام ثمةً كبيرةً في الإسلام ، وباباً واسعاً للثورة والفضوى ، لو سمح ابو بكر - لا سمح الله بذلك - بفتحه ، وتهـاون في سده وإغلاقه ، لما استطاع أحد من بعده أن يسدّه ، وفتح على إثره أبواب اخرى في أمر الصلاة فقال قوم : لالزوم للجمعة والجماعة ، وحسبنا أن نصلي فرادى أو في بيوتنا ،

(١) يبدو لي ، أن قتال أبي بكر للذين ارتدوا عن الدين ، ونابدوا الملة ، وعدلوا إلى الكفر ، والذين انكروا الشرائع ، وتركوا الصلاة وغيرها من أمور الدين ، وعادوا إلى ما كانوا عليه في الجاهلية ، وهم الذين عدم الخطابي من اهل الصنف الأول ، وكذلك الذين فرقوا بين الصلاة وبين الزكاة ، فأنكروا وجوب الزكاة ، وهم الذين عدم الخطابي من الصنف الثاني ، كان قتال ابي بكر رضي الله عنه لهؤلاء جميعاً على اساس انهم من اهل الردة ، وقد كفروا بإنكار ما صح في هذا الدين بالضرورة ، ولذلك قال : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال » اما الذين انكروا وجوب ادائها إلى الامام فاستبدوا بها واستأثروا ، او فرقوها في قبيلتهم ، ومن كان يسمح بالزكاة ، ولم يمنعها ، إلا ان رؤسائهم صدومهم عن ذلك الرأي . فأطاعوهم . كان قتال ابي بكر لهم على اساس انهم من اهل البغي . وقتال اهل البغي ثابت في القرآن . متفق عليه بين المسلمين . فقد قال تعالى : « فإن بنت إحداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله (سورة الحجرات - ٩ -) هذا . والله اعلم بالصواب .

وفي أمر الصيام . فقليل لا لزوم لتوقيته برمضان ، او بمبدئه ومنتهاه ، وكذلك الحج الإجتماعي الذي مناسكه معينة ، وأوقاته محدودة الى غير ذلك ، وأصبحت الخلافة النبوية ، ونظام الإمارة في الإسلام ، الذي ترتبط به الحدود والاحكام ، وعزة الإسلام ، كبحر العروض اسم ولا ماء ، وانفرط عقد الإسلام والمسلمين على اثر وفاة الرسول ، كما انفرط بعد قرون وأحقاب ، فكان موقف ابي بكر ، الذي لا هوادة فيه ولا ليونة ، ولا مساومة فيه ولا تنازل ، موقفاً موقفاً ملهماً من الله ، يرجع اليه الفضل الأكبر في سلامة هذا الدين ، وبقائه على نقائه وصفائه وأصالته ، وقد اقر الجميع ، وشهد التاريخ بأن ابا بكر قد وقف في مواجهة الردة الطاغية ، ومحاوله نقض عرى الإسلام عروة عروة ، موقف الانبياء والرسل في عصورهم ، وهذه خلافة النبوة التي ادى ابو بكر حقها ، واستحق بها ثناء المسلمين ودعاءهم الى ان يرث الله الأرض واهلها

تفويض أداء زكاة الأموال الباطنة إلى أربابها :

وبقي الوضع هكذا بفضل جهاد ابي بكر وصلابته ، تدفع الزكاة والصدقات المفروضة بجميع انواعها ، الى بيت المال حتى كانت خلافة عثمان ابن عفان رضي الله تعالى عنه ، فسمح بأداء زكاة الأموال الباطنة ، وهما التقدان ، الى مصارفها ومستحقيها ، وان يتولى ذلك أصحابها بأنفسهم ، وبقيت زكاة الأموال الظاهرة ، وهي المواشي والزروع والثمار ، تدفع الى بيت المال ، يقول الإمام ابو بكر الجصاص الرازي في تفسيره : ^(١)

اما زكوات الاموال ، فقد كانت تحمل الى رسول الله ﷺ ، وأبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، ثم خطب عثمان ، فقال ، « هذا شهر زكواتكم ، فمن كان عليه دين ، فليؤده ، ثم ليزك بقية ماله » ، فجعل لهم اداءها الى المساكين ، وسقط من اجل ذلك حق الإمام في اخذها ، لأنه عقد عقده إمام من أئمة العدل ، فهو

(١) احكام القرآن للجصاص - ج ٣ ص ١٥٥ .

نافذ على الأمة ، لقوله ﷺ : « ويمقد عليهم اموالهم (١) »

إخلال حكومات المسلمين بنظام الزكاة ، وعقوبته في الدنيا :

واحتفظت الخلافة الإسلامية - بأنواعها ودرجاتها المختلفة - بحقها في جباية زكاة الاموال الظاهرة ، واستمر هذا الوضع الى آخر الخلافة العباسية كما يدل عليه كتاب الخراج للإمام أبي يوسف ، والكتب التي ألفت في أدوار مختلفة في موارد الخلافة وماليتها ، حتى زال هذا الوضع الشرعي زوالاً كلياً في حكومات المسلمين ، التي لم تطبق النظام الشرعي ، ولم ترث خلافة النبوة في مناهجها الخلقية ، وخصائصها الإجتماعية ، وسياستها المالية ، فكان ما رأيناه من اضطراب الحياة في بلاد المسلمين ، وحرمانهم من بركات نفاذ أحكام الشريعة الإسلامية على مناهجها الصحيح ، وُعذبوا أخيراً بالرأسالية الفاشمة ، وبالإشترابية الكاذبة ، والشيعوية المتطرفة المجنونة ، « ولنديقتهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلمهم يرجعون (٢) »

(١) يقول العلامة علاء الدين ، أبو بكر الكاساني الحنفي (م ٥٨٧ هـ) « وأما المال الباطن الذي يكون في المصر ، فقد قال عامة مشايخنا ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم طالب بزكاته ، وابو بكر وعمر طالبا ، وعثمان طالب زمانا ، ولما كثرت اموال الناس ، ورأى ان في تتبعها حرجاً على الأمة ، وفي تفتيشها ضرراً بأرباب الأموال ، ففوض الأداء الى اربابها » (البدائع والصنائع ج ٢ - ص ٣٥) .

ويقول العلامة ابن الهمام (م ٨٦١ هـ) « وعلى هذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والخليفتان بعده ، فلما ولي عثمان رضي الله عنه ، فظهر تغير للناس ، كره ان تفتش السعاة على الناس مستور اموالهم ، ففوض الدفع الى الملاك نيابة عنه ، ولم تختلف الصحابة عليه في ذلك ، وهذا لا يسقط طلب الإمام ، اصلاً ، (فتح القدير ج ١ - ص ٣١١)

(٢) سورة السجدة - ٢١ .

الزكاة هي الحد الأدنى ، للبر والمواساة :

كانت الزكاة المشروعة في الإسلام ، هي الحد الأدنى للبر والمواساة في أموال المسلمين وثروتهم ، وفريضة لا يقبل الله عنها صرفاً ولا عدلاً ، وهذا الذي تطالب به الشريعة الإسلامية بكل جد وصرامة ، وتعتبره شرطاً للإسلام ، وشعاراً للمسلم ، وركناً من أركان الدين الأساسية ، « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ^(١) » والذي ينكرها ، ويمتنع عن أدائها - عدواً وإصراراً - يُعتبر أنه خلع ربة الإسلام ، وفارق المسلمين ، وقد قاتلهم أفضل الأمة بعد نبيها ، وأقربها لدينه أبو بكر الصديق ، ووافقها الصحابة رضي الله عنهم ، فكان إجماعاً منهم .

إن في المال حقاً سوى الزكاة :

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم - في حياته الخاصة ، وفي ذوقه واتجاهه ، وفي تحريضه وترغيبه ، وفي وصاياه وتوجيهاته ، لخاصة أصحابه ، ولمن أراد أن يأنس به ، وسمت همته - لم يقف عند هذا الحد ولم يعتبره المثل الأعلى في البر والمواساة ، وأداء الحقوق ، وقد عبر عن ذلك في أسلوبه النبوي الموجز المعجز ، الذي تقصر عنه عبارات البلغاء وإطناب العلماء ، بقوله : « إن في المال حقاً سوى الزكاة » . فقد روى الترمذي بسنده عن فاطمة بنت قيس ، « سُئِلَ أو سَأَلت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزكاة ، فقال : إن في المال حقاً سوى الزكاة ، ثم تلا : « ليس البر أن تولوا وجوهكم ، الآية » وتام الآية ، « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة

(١) سورة التوبة - ١١ .

والموفون بمهدم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء ، وحين البأس
أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون (١) »

النظرية النبوية الخاصة ، الى الحياة والى المال :

وقد دلت سيرته فيما آتاه الله من مال ، وسيرته في أهل بيته ، الذين كان
اعظم هذه الأمة برأهم وحباً عليهم ، كما قال : « خيركم ، خيركم لأهله ، وأنا
خيركم لأهلي (٢) » ، وسيرته في أقرب الناس وأحبهم إليه ، على نظرتة النبوية
الخاصة ، التي كان ينظر بها الى هذه الأموال ، بل الى هذه الحياة كلها ، بل الى
هذا الكون كله ، نظرة تقصر عن تصويرها ، والتعبير عنها المعاجم ، والثروة
اللغوية - على سعتها وضخامتها - وتسيء الى جلالها وسموها ، ونزاهتها
ورقتها ، المصطلحات الإقتصادية الجافة ، إنها نظرة من يستحضر جلال الله
وعظمته ، ويتخلق بأخلاقه ، ويستحضر اليوم الآخر ، « يوم لا ينفع مال ولا
بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم (٣) » ويحن إليه أكثر من حنين السمك الى
الماء ، وأعظم من حنين الطائر الى وكره ، فينطلق لسانه قائلاً : « اللهم لا عيش
إلا عيش الآخرة (٤) » ويرى الى هذا المال كزبد البحر ، أو غشاء التسيل ، أو
حصى البطحاء ، لا يقيم له قيمة ولا وزناً ، ويرى الخلق عيال الله ، ويرى نفسه
كوليّ اليتيم ، ويفضل لغيره الخصب والرخاء ، والسعادة والهناء ، ولنفسه
وعياله ، وأهل بيته الفاقة والجوع ، والتقشف وخشونة العيش ، يقول :
« أشبع يوماً وأجوع يوماً (٥) » ويقول : « اللهم ارزق آل محمد قوتاً (٦) »

(١) سورة البقرة - ١٧٧ .

(٢) رواه الترمذي والدارمي عن عائشة رضي الله عنها ، ورواه ابن ماجه عن ابن عباس
الى قوله لأهلي .

(٣) سورة الشعراء - ٨٨ - ٨٩ .

(٤) رواه البخاري ج ٢ - ص ٩٤٩ .

(٥) روى الترمذي عن ابي امامة مرفوعاً ، « عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً
فقلت لا يا رب ، ولكن اشبع يوماً ، وأجوع يوماً ، فإذا جعت تصرعت إليك وذكرك ،
وإذا شبعت حمدتك وشكرتك »

(٦) رواه البخاري ج ٢ - ص ٩٥٧ .

ويبلغ أزواجه رسالة الله ، وقد صادفت هواه ورغبته ، وذوقه واتجاهه ، فطاب بها نفساً ، وقرّبها عيناً ، « يا أيها النبي قل لأزواجك ، إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتمكنن وأسرحكن سراحاً جميلاً ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فإن الله أعدّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً (١) ، فلم يكن ممنهنّ إلا أن آثرن الحياة مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يؤثرن الحياة مع آبائهنّ ، وإخوتهنّ الذين توسّع عيشهم ولاذت حياتهم .

معيشة الرسول ﷺ ، وأهل بيته :

وكيف كانت الحياة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، التي آثرنها وفضلناها ؟ ، استمع الى عائشة الصديقة تتحدث عنها في صدقها الموروث ، وتجربتها الواسعة ، وخبرتها التي لا خبرة فوقها ، « ولا ينبئك مثل خبير »
 ما شبع آل محمد من خبز السُّبْر ، ولقد كنا نكث الشهر والشهرين ، لا يوقد في بيتنا نار ، وما كان طعامنا إلا التمر والماء ، ولقد توفي رسول الله ﷺ وما في بيتنا شيء يأكله ذو كبد ، إلا كسرة خبز من شعير على رف لي (٢) ، ويدخل عليه عمر يوماً ، فيراه على حصير ، قد أثر في جنبه ، ويرفع رأسه في البيت فلا يجد إلا إهاباً (٣) معلقاً ، وقبضة من شعير ، وحصيراً تكاد تبلى ، فيبكي عمر ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ ، فيقول عمر : يا نبي الله ! ومالي لا أبكي ، وهذا الحصير ، قد أثر في جنبك ، وهذه خزائنك لا ارى فيها إلا ما ارى ، وذاك كسرى وقبصر ، في الثمار والأثمار ، وأنت نبي الله وصفوته ؟ ، فيقول عليه السلام : أفي شك انت ، يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا (٤) ،

(١) سورة الاحزاب - ٢٨ - ٢٩ ،

(٢) رواه البخاري ، ومسلم ، وغيرهما .

(٣) الاهداب كيس من جلد .

(٤) إقرأ الحديث في الجامع الصحيح ، للبخاري ، ومسند ابن حنبل ، وسنن ابن ماجه ،

والألفاظ متقاربة .

تخرجه من المال الفاضل ، وقلقه من بقاء مال الصدقة :

وكان لا يجد الراحة مع المال الفائض عن حاجته التي لا حاجة دونها ، ولا زهد فوقها ، والفاضل من أموال الصدقة التي يأخذها للتوزيع على فقراء المسلمين ، « فمن عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت كان : لرسول الله ﷺ عندي في مرضه ستة دنانير او سبعة فأمرني رسول الله ﷺ ، ان أفرقها ، فشغلني وجع النبي ﷺ ، ثم سألتني عنها ، ما فعلت الستة أو السبعة ، قلت ، لا والله ، لقد كان شغلني وجعك ، فدعا بها ثم وضعها في كفه ، فقال ، ما ظن نبي الله ، لو لقي الله عز وجل ، وهذه عنده ؟ (١) » .

وكان لا يتأخر في وضع هذه الأموال في مواضعها ، وإيصالها الى غايتها ، ولا يرجىء ذلك الى وقت آخر ، وقد روئي عن عقبة بن الحارث قال : «صليت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر ، فسلم ، ثم قام مسرعاً ، فتخطى رقاب الناس الى بعض حجر نسائه ، ففزع الناس من سرعته فخرج عليهم ، فرأى انهم قد عجبوا من سرعته ، قال ذكرت شيئاً من تبر عندنا ، فكرهت أن يجبسنى فأمرت بقسمته (٢) » وفي رواية : «قال كنت خلفت في البيت تبراً من الصدقة ، فكرهت ان ابينه » .

حث وتحرى على إنفاق الفاضل من الحاجة :

وقد أوصى أصحابه وأمته ، بمثل هذه الاخلاق : وبمثل هذه السيرة ، وبمثل هذه النظرة الى المال وصايا مرفقة مرغبة ، يتخيل من يقرأها في كتب الحديث ، ان ليس لأحد حق في فضل ماله ، وزائد متاعه ، ويتخرج بعد ما

(١) رواه أحمد .

(٢) رواه البخاري .

يقرؤها ، ويطلع عليهما من التَّشعُّم ، بما بسط الله له في الرزق والتَّمَتُّع بما وسَّع الله له في الدنيا ، ويضيق ذرعاً ، بميسور العيش ، وفضول الحياة ، وأطايب الطعام وأنواع الثياب ، وما هو إلا حثٌّ وتحريضٌ ، وترغيبٌ وتحريضٌ ، وأسوة الرسول التي يقول الله عنها : « لقد كان لَكُمْ في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله ، واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً (١) » . وقد صحَّ عنه ، أنه قال : « من كان له فضل ظهر ، فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد ، فليعد به على من لا زاد له (٢) » وقال : « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام ثلاثة ، فليذهب برابع (٣) » وقال : « ما آمن بي من بات شبعان ، وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم (٤) » وقد روي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ ، وقال له : « اكسني يا رسول الله ، فأعرض عنه ، فعاد الرجل يقول : اكسني يا رسول الله ، فقال له : أما لك جار له فضل ثوبين ؟ قال : بلى ! غير واحد ، قال : « فلا يجمع الله بينك وبينه في الجنة (٥) » .

قيمة الانسان ، وقيمة مواساته

في نظر الدين الاسلامي :

ورفع قيمة الانسان ، وقيمة مواساته وقضاء حاجته ، الى أن بلغ ذلك مبلغاً لا يتصور فوقه ، وأصبح من يُقصر في ذلك ، كمن قصر في جنب الله ، فقد جاء في حديث قدسيّ : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدني ! فيقول ابن آدم : يا رب ، كيف أعودك ، وأنت رب العالمين ؟

(١) سورة الأحزاب - ٢١ .

(٢) أخرجه ابو داود عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) رواه الترمذي ، وقال حسن صحيح .

(٤) رواه الطبراني ، والبزار ، وإسناده حسن .

(٥) رواه الطبراني في الأوسط .

فيقول الله : أما علمت أن عبدي فلانا ، مرض فلم تعده ؟ أما إنك لو عدته ، لوجدتني عنده ، يا ابن آدم ، استطعمتك ، فلم تطعمني ! فيقول : يا رب ، كيف أطعمك ، وأنت رب العالمين ؟ فيقول الله : أما علمت ، أن عبدي فلانا ، استطعمك ، فلم تطعمه ؟ أما إنك لو أطعمته ، لوجدت ذلك عندي . يا ابن آدم استسقيتك ، فلم تسقني ! فيقول : يا رب كيف أسقيك ، وأنت رب العالمين ؟ فيقول : استسقاك عبدي فلان ، فلم تسقه ، أما إنك لو سقيته ، لوجدت ذلك عندي^(١) . وقد كان غاية ذلك ، أن قال : ولا منزلة فوقه في العدل والفضل ، والمواساة والإنصاف : « لا يؤمن أحدكم حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه^(٢) .

تأثير أسوة الرسول وتعاليمه في حياة الصحابة رضي الله عنهم :

وقد أثرت أسوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، في حياة الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وفي اذواقهم واتجاهاتهم ، وسيرتهم في أهلهم ، وفي أموالهم ، التأثير المطلوب المتوقع ، وسرت هذه الروح في عروقهم وعقولهم وأخلاقهم ، حتى أصبحت حياتهم صورة - بقدر الإمكان - لحياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان أشبه الناس به بطبيعة الحال ، أقربهم إليه وألصقهم به ، فتجلت في حياة الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة ، وقد روى التاريخ من أخبار زهدهم وبرهم ومواساتهم ، وتورعهم في ذات أنفسهم وأهلهم ، وإيثارهم لشطف العيش ، وقلة الأسباب والتشرف ، ما لا يزال ذروة في تاريخ الأخلاق والديانات ، لا يصل إليها السابقون في الأمم .

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه البخاري .

نماذج من سيرة الخلفاء الراشدين ، وكبار الصحابة وأهل البيت :

فمن ذلك ما رواه المؤرخون ، أن امرأة أبي بكر الصديق خليفة المسلمين ،
اشتهت حلوى ، واستفضلت من نفقتها من عدة أيام ما تشتريها به ، فلما علم ذلك
رد الدرهمات إلى بيت المال ، وأسقط من نفقته كل يوم ما فضل من ثمن الحلوى ،
لأنه ليس من الحاجات التي يعيشر عليها الإنسان . وليس بيت مال المسلمين
لتترفه به أسرة الحاكم ، وتتوسع به في المطاعم .

وزهد عمر في حياته وتقتشفه مضرب المثل في التاريخ ، ويكفي ان تقرأ
خبر رحلته - بصفته خليفة وأميراً للمؤمنين - الى الجابية « فكان على جبل
أورق ، تلوح صلعته للشمس ، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة ، تصطفق رجلاه
بين شعبي الرحل بلاركاب ، وطاؤه كساء انبجاني ذو صوف ، هو وطاءه
إذا ركب ، وفراشه اذا نزل ، حقيبته نمره ، أو شملة محشوة ليفا ، هي حقيبته
اذا ركب ، ووسادته اذا نزل ، وعليه قميص من كرابيس قد رسم وتخرقق
جنبه (١) » .

وأما عثمان ، وهو أكثر اخوانه مالاً ، وأوسعهم أسباباً ، فقد روى
شرحبيل بن مسلم ان عثمان بن عفان رضي الله عنه ، كان يطعم الناس طعام
الإمارة ، ويدخل في بيته ، فيأكل الخبز والزيت ، واما علي بن ابي طالب فهو
من زهاد الصحابة المعدودين المعروفين ، يصفه صاحبه ضرار بن ضمرة ، فيقول :

« يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله
غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، ويمجبه من
اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب ، كان - والله - كأحدنا ، يميننا إذا

(١) البداية والنهاية - ج ٧ - ص ٥٩ - ٦٠ .

سالناه ، وبتدثنا اذا اتيناه ، ويأتينا اذا دعواناه (١) .

وكان تأثير هذه الأسوة في الصحابة بقدر اتصالهم بصاحبها ، وطول عشتهم له : فكانت لعائشة أم المؤمنين ، حبيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، اليد الطولى في ذلك ، وقد روى المؤرخون : « انها تصدقت مرة بمائة الف درهم وليس عليها الا ثوب خلق ، وكانت صائمة ، فقالت لها خادمتها : لو أبقيت شيئاً لتفطري عليه ! فأجابتها : لو ذكّرتني لفعلت ، وتصدّقت بمائة الف وهي جائعة ، فنسيت نفسها وذكّرت الناس ! (٢) »

المواساة والايثار في المجتمع الاسلامي الاول :

وسرت هذه الأخلاق وهذه الروح في المجتمع الاسلامي الأول ، فكان ذلك دأب الصحابة وديندهم ، يقول ابن عمر رضي الله عنهما : « لقد أتى علينا زمان - أو قال : حين - وما احد احقُ بديناره ودرمه من اخيه المسلم (٣) . »

وكانت نتيجة ذلك حوادث طريفة في المواساة ، تكاد تبلغ حد المساواة ، وحسن الجوار يكاد يبلغ قمة الإيثار ، من ذلك ما رواه ابن عمر بنفسه ، قال : « اهدي لرجل من اصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة ، فقال : فلان احوج مني اليه ، فبعث به اليه ، فبعثه ذلك الانسان الى آخر ، فلم يزل يبعث به واحد الى آخر ، حتى رجع الى الأول بعد ان تداوله سبعة (٤) . »

وانتقل هذا الشعور الدقيق ، والحس المرهف ، والغرام بالمواساة ، الى

(١) صفوة الصفوة « لابن الجوزي » .

(٢) رواه الحاكم في المستدرک .

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد .

(٤) إحياء علوم الدين للغزالي ج ٢ - ص ١٧٤ .

الأجيال الإسلامية اللاحقة ، وكان للتابعين بإحسان القدر المعلى في ذلك بطبيعة الحال ، يقول سيد التابعين الحسن البصري : « لقد عهدت المسلمين ، وان الرجل منهم يصبح ، فيقول : يا أهليته يا أهليته ! يتيمكم ، يتيمكم ، يا أهليته ! يا أهليته ! مسكينكم ، مسكينكم ، يا أهليه ! يا أهليه ! جاركم ، جاركم (١) » . وكان لبني هاشم ، وسادة أهل البيت قدمُ صدقٍ في هذا المضمار ، وقد روى التاريخ عن جود الحسن بن علي وعبدالله بن جعفر ، ورقّة عاطفتها الشيء الكثير ، وكان لعلي بن حسين بن علي رضي الله عنه وعن آباءه التقدم والرئاسة ، في هذه المآثر والمكرّمات ، قال محمد بن اسحاق : « كان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون ؟ ومن يعطيهم ؟ فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك فعفرقوا أنه هو الذي كان يأتيهم بالليل بما يأتيهم به ، ولما مات وجدوا في ظهره وأكتافه أثر حمل الجراب الى بيوت الأرامل والمساكين (٢) »

المواساة والايثار في مختلف العصور والأجيال :

وتوارثت الأجيال الإسلامية الفاضلة هذه السيرة ، وهذا الذوق الرفيع ، وهذا الحس المرهف ، وهذه الحسبة الدقيقة على نفوسهم وأموالهم ، ومثلها الراسخون في العلم والدين ، والربانيّون والمريّون اجمل تمثيل واروعه في كل عصر وفي كل بلد ، وزخرت بأمثالها وروائعها كتب التاريخ والتراجم ، وما فاتها ، وأقلت من استقصاء مؤلّفيها البارعين ، فذكر في غير مظانه اغرب وأروع مما حوته كتب التاريخ . وكان شعار الربانيين ، والشيوخ المربين ، ومبدؤهم ان لا يبيت عندهم درهم ولا دينار ، وأن يؤثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وأن يكون ما يكرمهم الله به من أموال وهدايا وطرف ،

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد .

(٢) اكثر الامثال والحكايات ، التقطناها من كتاب « اشتراكية الاسلام » لصديقنا المرحوم

مصطفى السباعي .

وخيرات تأتيهم من الملوك والأمراء والأغنياء والأثرياء ، وقفاً على فقراء البلد وذوي الحاجات ، الذين لا سبيل لهم اليها ، فكان مبدؤهم وسيرتهم أن « تؤخذ من أغنيائهم وتُردُّ على فقرائهم » ، فكانت مائدتهم من أوسع الموائد وأغناها ، لجميع طبقات الناس ، كما كان قلبهم من أوسع القلوب وأسخاها لجميع الناس ، وقد أثر عن سيدي عبد القادر الجيلاني ، الذي يعبر فيه عن جميع إخوانه ، ومن كان على شاكلته ، أنه قال : « كَفَيْتِي مَثْقوبَة لا تضبط شيئاً ، لو جاءني ألف دينار ، لم تبت عندي (١) » . وقوله : « أودُّ لو كانت الدنيا بيدي أطعمتها الجائع (٢) » .

وكان لأبعد ثغور الاسلام ، ولأقصى أطراف العالم الاسلامي ، من هذه السيرة ، ومن هذا الضرب من الناس ، ومن هذا الطراز الإنساني نصيب غير منقوص . وتراجم هؤلاء المخلصين الربانيين ، والدعاة المرثيين حافلة بنوادر الحكايات ، وروائع الأخبار في الزهد والإيثار ، والمواساة ، والمساواة ، والأريحية ، والنهامة ببذل الأموال . وحسبنا أن نعرض نموذجين من هذه النماذج التي تكاد تكون مطردة في حياة هذه الطبقة ، وسيرها متشابهة ، وأخلاقها متشاكلة ، كتشابه الأوراق في الشجرة ، فكلهم من غرس تعاليم النبوة ، وفروع شجرة : « أصلها ثابت ، وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها (٣) » .

منها أن الشيخ نظام الدين الدهلوي ، من رجال القرن الثامن الهجري ، يقول خادمه ، إنه كان يترك الطعام المتنوع الفاخر عنده للتسخر . فكان يجتزئ ببقيات ؛ ويقول ، أجده في بعض الأيام ، لم يتناول منه شيئاً ، وكنت أراه ، لا

(١) فلائد الجوامر - ص ١٠ .

(٢) ايضاً - ص ١٠ .

(٣) سورة ابراهيم - ٢٤ .

يُفطر إلا بما يقيم الصلب . فقلت له يوماً ، نفسي فداك ، كيف يحافظ سيدي علي حياته وصحته مع هذا القليل من الغذاء ؟! ففاضت عينه على ذلك ، وغلبه البكاء ، وقال ، يا فلان ! كم من فقير بائس ، وكم من مسافر بات في المساجد والطرقات على الطّوى ، لم يجدوا لقمة ، يتقوّون بها ، فكيف أسيخ هذا الطعام ، والناس يبیتون جیاعاً ، ويصبحون جیاعاً^(١) فلما دنت وفاته طلب أصحابه وقال لهم ، إذا ادّخر اقبال (خادمه) شيئاً من الحبوب والغلات ، فاشهدوا انّني بريء من ذلك وأنه هو المسؤول أمام ربّه ، فقال إقبال : إنني لم اترك شيئاً ، وقد تصدّقت بكل ما وجدته الاحبوباً يأكلها المقيمون في هذه الزاوية بضعة ايام ، فقال : ادعوا لي الناس ، فلما حضروا قال : دونكم الحبوب ، وما تجدون في هذه الزاوية من الرزق والطعام ، فنهوه نهياً ، وأمرهم بأن يکنس ذلك المكان ويجعلوه قاعاً صاففاً .

والنموذج الثاني ما رواه مؤرخ هندي عن الشيخ السيّد محمد سعيد الأنبالوي وهو من رجال القرن الثاني عشر فيقول : « زاره مرة روشن الدولة ، وكان اميراً من امراء السلطان « فرخ سير » (ملك الهند المغولي) . وقدم ستين الف روبية^(٢) لبناء زاويته ، فأمره الشيخ ان يترك هذا المال في مكان ويستريح ، فانصرف « روشن الدولة » فأرسل الشيخ الى الفقراء ، وارسل هذا المال الى الايامى والمساكين ، واهل الحاجة في ضواحي البلد ، وفي المدن المجاورة حتى لم يبق منه فلس ، فلما اتى روشن الدولة . قال له : « لا يبلغ الثواب في بناء العمارة ثواب خدمة ذوي الحاجة ، والفقراء الذين احصروا في سبيل الله . ووصلته مرة رسائل السلطان محمد فرخ سير ، والامير روشن الدولة والامير عبد الله خان ،

(١) سير الأولياء .

(٢) تساوي أربعة آلاف جنيه استرليني ، وإن قدرت قوتها الشرائية ذلك اليوم ، نصبح أضعافاً مضاعفة .

وأمر بثلاث مائة الف روبية (١). فوزّعها كتبها في القرى المجاورة ، والأشراف الساكنين فيها « (٢) .

وقد يقول القارئ ان هذه سيرة طبقة زهدت في الدنيا ، ورفضت اسبابها وعاشت في عزلة عن الدنيا وعن الناس . فهل هناك امثلة لهذه الزهادة والبرّ والمواسة والاستغناء والإيثار في طبقات أخرى من هذه الأمة ؟ ويجيبهم التاريخ الأمين فيقول نعم ! وفي كل طبقة من طبقات هذه الأمة ، وفي كل جيل من أجيالها ، وفي كل بيئة من بيئات دنيا الإسلام من اتسبى بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، واتي بغرائب في هذه الأخلاق وفي سيرته في ماله وفي عياله وجيرانه واهل بلده وابناء جنسه ، ولكن التاريخ لم يسجّل الاّ ما أثر من لفت نظره وفرض عليه ذكره وتسجيل حوادث حياته وجوانب شخصيته ، من الملوك والأمراء ، والصلحاء ، والعلماء ، ونقتصر هنا على طبقتين فحسب ، وهما طبقة العلماء الأعلام ، وطبقة الملوك والحكام .

تختار من طبقة العلماء الأعلام شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الذي ينتقد عليه من لا يعرفه الجفاف ، ويعتقدون أن الجانب العلمي فيه يطفى على الجانب العاطفي ، يقول عنه معاصره الحافظ ابن فضل الله العمري :

« كانت تأتيه القناطير المنقطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسوّمة ، والأنعام ، والحراث ، فيهب ذلك بأجمعه ، ويضعه عند أهل الحاجة في موضعه ، لا يأخذ منه شيئاً إلاّ ليهبه ، ولا يحفظه إلاّ ليُذهبه ، وقد بلغ من السخاء والإيثار أن كان يخلع ما كان عليه من ثياب ، ويقدمها الى السائل ، إذا لم يجد شيئاً آخر ، يقول الحافظ ابن فضل الله : « كان يتصدق ، حتى اذا لم

(١) تساوي ١٤٠٠٠ جنيا استرلينياً .

(٢) نظام التعليم والتربية (في أردو) المجلد الثاني - للعلامة (مناظر حسن الكيلاني) .

يجد شيئاً ، نزع بعض ثيابه ، فيصل به الفقراء ، ويقول أحد الرواة : « وكان يتفضل من قوته الرغيف والرغيفين ، فيؤثر بذلك على نفسه (١) »

ونختار من طبقة الملوك والحكام ، السلطان صلاح الدين الأيوبي ، الذي حكم أكبر دولة إسلامية في عهده ، وهزم أقوى جيوش في عصره ، يشهد عنه صديقه ورفيقه ابن شداد ، فيقول : « إنه ملك ما ملك ، ومات ولم يوجد في خزانته من الفضة الا سبعة وأربعين درهماً ناصرية ، ومن الذهب إلا جرم واحد صوري ، ما علمت وزنه . »

ولمّا مات هذا السلطان العظيم الذي كان يحكم من حدود الشام الشمالية في آسيا إلى صحراء النوبة في الجنوب ، في أفريقيا ، لم توجد في خزانته ما يكفونونه به ، وينفقون على تجهيزه ، يقول ابن شداد :

« ثم اشتغل بتفسيه وتكفينه ، فما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ، ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض ، حتى في ثمن الثبن الذي بليت به الطين ، وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوب فوط ، وكان ذلك ، وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حل عرفه (٢) . »

وليست هذه قصة جيل واحد ، ولا قصة مدرسة واحدة من المدارس الفكرية والروحية الكثيرة ، فلم يزل هذا شعار العلماء الربانيين ، والشيوخ الكاملين ، ولم يزل مبدأهم « لكل يوم رزقه وقوته » فلم يكونوا يدّخرون شيئاً ولا يشحون بشيء خشية الإقتار ، وعلى ذلك أدركنا شيوخنا ، وأسائدتنا ، فكانوا يتحرجون من أن يفضل عندهم شيء يحتاج إليه عباد الله ، أو يبيت عندهم درهم أو دينار ، وهم في غنى عنها ، وكان ذلك في غير رهبانية أو تحريم لما

(١) الكواكب الدرية .

(٢) النوادر السلطانية ، والهاسن اليوسفية لابن شداد ص ٣٥١ .

أحلّ الله ، وكذلك في غير تشريع لما لم يشرعه الله ، ولا في تشديد فيما لم يشدّد الله فيه ، ولا في إجبار وإرهاق ، ولكنه خوف من المحاسبة ورأفة بالخلق ، وتأسّ بأسوة الرسول ، وسيرته في الإنفاق والإيثار ، وتطوع وتبرع ، وترغيب صامت بالأمثال العملية ، والناذج الحية ، وكان لها التأثير العميق في النفوس والقلوب ، ما يحمل التلاميذ والمحبين على التقليد ، والإتّباع^(١) .

امتياز المجتمع الاسلامي في العصر الأخير :

فكان المجتمع الإسلامي - على علاّته وعلى أدوائه الكثيرة ، التي لم يزل المصلحون يجاربونها - أفضل المجتمعات البشرية في عاطفة البر والمواساة ، التي تغفلت بفضل التعاليم الإسلامية في احشائه ، وأكثرها تحرراً من عبادة المادة والمعدة ، يكثر فيها الأفراد الذين يشورون على سلطان المادّة ، ويخضعونها لسلطان الدين ، والمثّل الخلقية الإسلامية ، فكان التنافس التجاري والأثرة الفردية أو الطبقية ، أضعف فيه منه في المجتمعات التي لا تؤمن بحياة ، غير هذه الحياة ، ولا تعرف غاية غير غاية الثراء والرخاء^(٢) ، وتسوقها المثل

(١) اقرأ نماذج هذا الإيثار والصفاء في كتابنا « ربانية لا رهبانية » طبع دار الفتح ، في بيروت .

(٢) حدثني بعض الثقات المعمرين الذين ادرسوا عهد الأشراف في الحجاز ، أن تجار مكة كانوا في ذلك العهد على جانب عظيم من المواساة لزملائهم والنظر في مصالحهم ، والإخلاص والإيثار لهم ، قال : « كان بعض التجار ، إذا أتاه زبون في آخر النهار ، وقد باع ما يكفيه لقوت يومه ، وما حدهه من الربح والوارد اليومي ، ولم يكن جاره سعيد الحظ في ذلك اليوم ، قال له في لطف وهدوء : دونك هذا الدكان ، الذي هو يجوارى ، تجد عنده ما تجده عندي ، وقد لاحظت قلة الزبائن عنده هذا اليوم ، فهو أحق بأن تشتري منه » .

الإقتصادية سوقاً عنيفاً ، لا رحمة فيه ولا هوادة ، فكانت هذه سمة المجتمع الإسلامي ، رغم أنه بلغ منتهى الضعف في العصر الأخير ، وكان أكثر اعتماداً وقابلية للتقدم في مضار العدالة الإجتماعية ، وتحقيق المثل الإنسانية العليا . من كل مجتمع بشري ، لخضوعه للمبادئ الإسلامية في قليل أو كثير ، ولوجود الرباط الإيماني الذي يربط أفرادها ويجمع أشتاته .

مواساة طوعية شاملة ،

أم مساواة اجبارية محدودة ؟ :

ثم جاء أقوام فقدوا الثقة بالانسان والانسانية ، ففضّلوا المساواة الاجبارية المحدودة في المال ، على المواساة الطوعية الشاملة للحياة ، ونسوا او تناسوا ، أن الأموال ، ليست هي حاجة الانسان الوحيدة ، وان المساواة فيها أو الشركة

→ ويتحدث الاستاذ محمد أسد النمساوي ، عن مدينة اسلامية عربية كبيرة (هي دمشق) فيذكر انطباعاته كما يلي : « وقفت على ذلك الاستقرار الروحي ، في حياة سكانها ، إن أمنهم الباطني كان يمكن ان يرى في الطريقة التي كان احدهم يتصرف بها نحو الآخر » ويذكر تلك الطرق ، ثم يقول : « وفي الطريقة التي كان اصحاب الدكاكين يعاملون بعضهم بعضاً ، اولئك التجار في الحوانيت الصغيرة . اولئك الذين لا يتنون ينادون على المارة ، اولئك كانوا يبدون ، وكأننا ليس فيهم ايما قدر من الخوف والحسد ، حتى ان صاحب دكان منهم ليترك دكانه في عهدة جاره ومزاحمه ، كلما دعته حاجة الى التفتيح بعض الوقت . وما اكثر ما رأيت زبوناً يقف امام دكان غاب صاحبه عنه ، يتساءل في ما بينه وبين نفسه ، ما اذا كان ينتظر عودة البائع ، او ينتقل الى الدكان الجار ؟ فيتقدم التاجر الجاور دائماً - التاجر المزاحم - ويسأل الزبون عن حاجته ، ويبينه ما يطلب من البضاعة - لا بضاعته هو ، بل بضاعة جاره الغائب - ويترك له الثمن على مقعده . اين في اوربا ، يستطيع المرء أن يشاهد مثل هذه الصفة ؟ » (الطريق الى مكة ص ١٦٧) .

لا تسد كل فراغ في نفسه ، وفي مشاعره ، وأحاسيسه ، وفي حياته ، ولا تضمّد كل جرح من جروحه . ان حاجته الى مواساة شاملة للحياة كلها ، أشد من حاجته الى مساواة في المال كله ، وفي المرافق كلها ، وفي الموارد بأسرها ، وقد تفعل كلمة رقيقة ، أو دمعة بريئة يثيرها الشعور بالألم ، ما لا تفعله الأموال الطائلة ، والعطايا السخية ، وهو في حاجة الى مساعدة اخوانه ، واعانتهم في بعض الأحيان ، والى مشاركتهم في آلامه ومتاعبه في أحيان أخرى ، والى رقة شعورهم ودقة احساسهم حيناً ، والى لين عريكتهم ، ودمائة خلقهم وبشرهم ، وحسن لقاءهم حيناً آخر . ولذلك كان التوجيه النبوي أشمل لأنواع البر والمواساة واصدق تعبيراً عن الأحاسيس الانسانية ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو يذكر طرق البر وانواع الصدقة : « تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها ، او ترفع له عليها متاعه ، صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها الى الصلاة صدقة . وتميط الأذى عن الطريق صدقة (١) » . وفي حديث آخر : « قال ، يعين ذا الحاجة الملهوف ! قال : رأيت ان لم يستطع ؟ قال : يأمر بالمعروف او الخير . قال : رأيت ان لم يفعل ؟ قال : يمسك عن الشر فإنها صدقة (٢) » ، وفي حديث آخر : « قال : تعين صانعاً او تصنع لأخرق . قلت : يا رسول الله : رأيت ان ضعفت عن بعض العمل ؟ قال : تكف شرك عن الناس ، فإنها صدقة منك على نفسك (٣) » . وفي حديث آخر : « وتبسمك في وجه اخيك لك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في ارض الضلال لك صدقة ، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة ، وإمطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو اخيك لك صدقة (١) . . .

وكانت نتيجة ذلك الإختيار غير الموفق ، وإيثار المساواة ، أو الإشتراكية التي تفرضها الحكومة ، على المواسة التي تنبع من أعماق القلوب ، وتتدفق في نواحي الحياة ، وفي عروق المجتمع ، أن قام مجتمع في هذه البلاد : « الشيوعية والإشتراكية » لا يعرف أهله لذّة المواسة لبني الجنس ، والعطف على الإنسانية . والرفقة للضعفاء والفقراء ، والإخلاص والنصيحة للشركاء والزلاء ، وبصحوون كلهم تجاراً متنافسين ، وأعداءً متباغضين ، لا يثق أحد بأحد ، ولا يتنازل أحد لأحد ، بعضهم يتجسس على بعض ، ويلفتق عليه الأخبار ، ويؤزور عليه القضايا ، ويشمت بمصابه ، ويحزن لسعادته ، ويتحوّل البلد كلّهُ إلى ميدان حرب ، أو بناء محكمة .

وكانت نتيجة هذا الوضع أن فقد الناس الشّعور بالمسئولية ، والنهوض بالتّبعات الذي فيه سرّ الشرف الإنساني ، وتخلّوا عن كل عهدة ومسئولية ، وأصبحوا هملاً وسوائم ، لا همّ لها ، إلاّ العلف والرتع ، والشبع المفرط ، وانتقلت كل مسئولية وكل تبعّة إلى الحكومات ، وإلى الجهاز الإداري ، وإلى القوازين والعقوبات ، وأصبح المجتمع غلاماً قاصراً ، لا تميّز عنده ولا عقل ، فالحكومة هي التي تأخذ وتعطي ، وتُهيئ لكل فرد حاجته ، وتتكفل بذلك ، فلا معنى للعطف والمواسة ، ولا معنى للسخاء والإيثار ، ولا حاجة إلى شيء من ذلك ، فكلّ شيء مكفول مضمون ، والناس كالألات الصمّاء .

لهذا تجلّت قواعد المواسة الطوعية ، ونتائجها الباهرة ، وما جرّت على أهلها ، من الرّاحة والهدوء والسعادة الداخليّة ، والثقة المتبادلة ، والحبّ المشترك ، والسّلام الشامل ، ولذّة الروح ، ورضا الضمير ، والإعتزاز بالإنسانية

(١) رواه الترمذي عن ابي ذر مرفوعاً .

والتفاؤل في الحياة ، وشعور كل فرد بمسئوليته وواجبه ، لقد تجلّى كل ذلك في المجتمع الإسلامي المثالي الأول في أروع مظاهره ، وأجمل مناظره ، وأعمق معانيه ، ويتجلّى في كل مجتمع يأخذ بمبدأ المواصاة الطوعية الشاملة ، مقابل المساواة الإجبارية المحدودة ، أو الإشتراكية الضيقة الجامدة ، فأعضاء المجتمع متحابّون ، متناصحون ، شهداء بالخير يُزكّي بعضهم بعضاً . وكل جيل يشهد للجيل الذي سبقه بالفضل والسبق ، ويدعوه بالقبول والمغفرة ، « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم »^(١) ذلك هو المجتمع الذي كان كل عضو من أعضائه مرآة لأخيه يقيسه على نفسه ، فينفي عنه كل تهمة ، ويبرّته من كل نقيصة ، فقد قال الله تعالى : « لولا إذ سمعتموه ، ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا هذا إفك مبين »^(٢) المجتمع الذي ضرب فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثلاً بليغاً ، فقال :

« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »^(٣) . المجتمع الذي كل عضويه حارس كريم ، وناصح أمين لصاحبه ، فقد جاء في الحديث : « المسلم أخو المسلم لا يخنونه ، ولا يكذب به ، ولا يخذله ، كلّ المسلم على المسلم حرام ، عرضه ، وماله ، ودمه »^(٤) .

حين أصبحت الحياة في بلاد كثيرة شقاءً وجحيماً : « كلّمنا دخلت أمة لعنت أختها »^(٥) و« كلّمنا جاء » دكتاتور « انتقد السابق ، ورماه بالفساد والخيانة ،

(١) سورة الحشر - ١٠ .

(٢) سورة النور - ١٢ .

(٣) حديث متفق عليه .

(٤) رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) سورة الاعراف - ٣٨ .

وكلّ من تسلّم زمام القيادة ، انتقم من أعدائه ومنافسيه ، انتقاماً شديداً ، واضطهد وحاكم ، وسفك الدماء ، « وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحبّ الفساد » (١) .

فن أبى إلاّ الطريقة الشاقّة الطويّلة ، والتجربة المرهقة المقيمة ، قيل له ، ولأمثاله :

« أتستبدلون الذي هو أدنى ، بالذي هو خير ، إهبطوا مصرأ فإن لكم ما سألتم » (٢) .

(١) سورة : البقرة ٢٠٥ .

(٢) سورة : البقرة ٦١ .

الصَّيَامُ

الصَّيَامُ

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون (١) » .

مخلوق وسط بين الملائكة والحيوانات :

خلق الإنسان وسطاً بين الملائكة والحيوانات ، ورُكِّبَ فيه طبائع هذين الجنسين المتناقضين تركيباً لطيفاً ، حكيماً بديعاً ، فهو مزيج غريب من الخواص الملكية ، والخواص الحيوانية ، ومن الأخلاق الإلهية ، والعمادات الحيوانية ، ذلك ، لأن منصبه الذي رُشِّحَ له ، وغايته التي تُطلب منه أن يبلغها ويحققها ، ووضِعَ فيه استعدادها وحبُّها ، لم يُرَشِّحَ له الملائكة ، ولم يُخلَقْ له الحيوانات ، وذلك منصب الخلافة ، ومركز الأمانة ، وغاية العبادة : « وإذ قال ربك للملائكة ، إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال : إني أعلم ما لا تعلمون (٢) » . « إننا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوماً جهولاً (٣) » . وما

(١) سورة البقرة ١٨٣ .

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

(٣) سورة الأحزاب ٧٢ .

خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن
يُطعِمُون (١) .

مقتضى « الخلافة » ولوازمها :

وكان منصب الخلافة يقتضي المناسبة القوية ، بالمستخلف النيب ، والمناسبة
القوية بالمكان الذي يتولى الخلافة فيه ، والمخلوق الذي يتولى السيادة عليه ،
والحكم فيه ، فأخذ من الأول أشباح أخلاقه ، وظلال صفاته كسموٍ ونزاهة ،
وصمدية وغنى ، ورحمة وكرم ، ورأفة وبر ، وصبر وحلم ، وقوة وقهر ، وصفاء
وتجرد ، وأمن وسلام . وقد ظل في جميع أطواره البشرية ، وأدواره التاريخية
يحد اللذة ويعتقد العزة في هذه الأخلاق ومظاهرها ، ويخضع لملتها وأصحابها ،
ويدين لهم بالحب والإجلال ، إذا تجرد عنها وعجز عن التحلي بها ، أو تقاصرت
عنها همته ، وضعفت إرادته .

وأخذ من الثاني خواصه وطبائعه ، وشاركه في مواضع ضعفه ، ليشركه
في آلامه وآماله ، ويحسن سياسته ، وينتفع بكنوز الأرض وخيراتهما ، ويتمتع
بنعمها وطيباتها ، ويضع ما خلق فيه مواضعه ، فوضعت فيه شهوة الطعام
والشراب ، ورُكِّبت فيه الغريزة الجنسية وخلق فيه الجوع والعطش ،
وعُجنت طينته مع اللذة وحبها وطلب المزيد الجديد ، وألهم الصناعة والمدنية ،
والتأنق في الطعام والشراب .

تجاذب الروح والجسد ، الى مركزهما ، وخصائصهما :

ولذلك كان مجموعاً من روح وجسد ، فالروح هي التي تجذبه إلى أصلها

(١) سورة الذاريات ٥٦ - ٥٧ .

ومنبعها ، وتذكّره بمنصبه ومركزه ، وغايته ومهمته ، وتفتح فيه الكوة إلى العالم الذي انتقل منه ، وإلى سعته وجماله ، ولطافته وصفائه ، وتثبير فيه الأشواق والطموح ، وتبعث فيه الثورة على المادة الكثيفة الثقيلة ، وتزّين له الإنطلاق من القفص الضيق الخانق ، وإن كان من ذهب ، والتحليق في الأجواء الفسيحة التي لا نهاية لها ، وفك السلاسل والأغلال من عادات ومألوفات ، ولذات وحاجات ، ولو حيناً بعد حين ، وفي شهور وسنين ، وتحبّب إليه الجوع والعطش مع وفرة الطعام وكثرة الشراب فيشعر فيهما بلذة ، لا يشعر بها في أطيب الطعام والشراب ، ويمدّد ذلك الوقت القصير الذي يمضي في فراغ خاطر وصفاء النفس ، وخفّة المعدة ، وإشراق الروح ، والتجرد من الشهوات ، والتحرر من النظام الرتيب الخشيب ، قيمة الحياة ولذاتها ، وسرور النفس وبهجتها ، فلا يزال يحن إليه حنين الطائر الى الوكر ، وحنين السمك إلى الماء ، وذلك كله صنع الروح التي أودعت فيه ، وانتقلت إليه من عالم الغيب : « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي (١) » « ونفخت فيه من روحي (٢) » .

والجسد هو الذي يجذبه إلى أصله ومركزه ، وهي الأرض - بكثافتها وتبلدها ، وثقلها وسفالتها - « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون (٣) » « فاستفتهم أهم أشدّ خلقاً أمّن خلقنا ، إنا خلقناهم من طين لازب (٤) » « خلق الإنسان من صلصال كالفخار (٥) » ، فإذا ضعف سلطان الروح ،

(١) سورة بني اسرائيل ٨٥ .

(٢) سورة (ص) ٧٢ .

(٣) سورة الحجر ٢٦ .

(٤) سورة الصافات ١١ .

(٥) سورة الرحمن ١٤ .

أو زال حكمها ، وتقلص ظلها ، وملك الجسد زمام الحكم ، استرسل الإنسان في لذاته وشهوته ، ورتع فيها رتع البهائم السائمة ، وجنَّ بها جنوناً ، وأبدع فيها ألواناً وفنوناً ، وتخطى حدود العقل والعرف ، والصحة والطب ، والعدل والشرع ، وانصرفت همه وذاكؤه ، وإبداعه وعبقريته الى التفتن والتدقيق ، والإسراف والإكثار من أنواع الطعام والشراب ، والتهامها ثم انهضامها ، وما يبعث فيه الشهية ، ويُوقظ فيه الجوع ، ثم يعينه على الهضم ، ويعده للوجبة الثانية ، « فيصبح وهو في أوج مدنيته وحضارته ، وقمة علمه وثقافته ، كحمار الطاحون أو كثور الحرث ، يدور بين المطعم والمرحاض ، ومائدة الطعام والبالوعة^(١) ، لا يعرف سوى ذلك مبدئاً ومعاداً ، ولا يعرف غير الطواف بينها شغلاً وجهاداً فتموت فيه كل رغبة إلا رغبة الطعام والشراب ، ويُتبلد فيه كل حس إلا حس اللذة والمتعة ، ويزول عنه كل هم ، إلا هم الكسب ليا كل ، والأكل ليكسب . ولا تصوير أدق وأصدق من تصوير القرآن المعجز ، « والذين كفروا يتمتعون وبأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم^(٢) » ، وما ذاك إلا طبيعة الجسد الذي تحرر من سلطان الروح ، وحُرم توجيه النبوة وارشادها ، وانقاد للنفس والهوى ، ونتيجة انجذابه الى أصله ومصدره : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ، فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخذ الى الأرض واتبع هواه ، فمثل كمثل الكلب : إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون^(٣) » .

(١) الفكرة مقتبسة من مقال للاستاذ عبد الباري الندوي في مجلة « البعث الاسلامي » .

(٢) سورة محمد - ١٢ .

(٣) سورة الأعراف ١٧٥ - ١٧٦ .

اتر انتصار كل من الروح والجسد ، في حياة الانسان وفي تاريخ الاديان والاخلاق :

وما تاريخ الإنسان الديني والخلقي ، إلا قصة صراع بين الطبيعتين ، وتأرجح بين نهائيتين ، فأحياناً تغلبت الطبيعة الأولى ، وتطرفت ، فابتدعت الرهبانية ، وغلت في التقشف في الحياة ، ورفض الطبيبات والمباحات وإرهاق الطبيعة وإجهد النفس ، فأطال الإنسان الجوع وادام السهر ، والتجأ الى الغابات والمغارات ، ورأى السعادة والسمو الروحاني ، في تعذيب النفس وإيلام الجسم . وما قصة غلاة القرون الوسطى في اوروبا ببحر مجهول^(١) : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها^(٢) » فلم تكن نتيجة ذلك الا ان ضعفت الأجسام والعقول ، وانحلت الروابط ، وتعرض المجتمع الإنساني لخطر محقق ، وتحلى الانسان عن منصب الخلافة الذي أكرمه الله به . وانسحب من ميدان الكفاح والمسؤولية ، واتخذ « الملك » له المثل الأعلى وصار يحسده ، ويطمح اليه بعدما كان محسوداً للملائكة ومسجوداً لهم .

وتغلّبت الطبيعة الثانية ، الطبيعة الجسدية الأرضية ، أحياناً كثيرة ، فانفلت الإنسان من كل قيد من قيود العقل والشرع ، ومن كل سلطة من سلطات الروح والأخلاق ، وانساق لدواعي المادة والمعدة ، وانجرف معها انجرفاً ، فأمعن في إرضاء شهواته البدنية ، وتحقيق رغباته المادية ، لا يعرف لذلك حداً ولا نصاباً ، فانطفأت شعلة الروح والقلب ، وتضخمت المعدة على حساب العقل والضمير وتوسعت ، فصار لا يكفيه قوت أسرة أو قبيلة ، ونشأت في

(١) اقرأ كتاب « تاريخ الأخلاق في اوروبا » (History of European * Morals)
(للستاذه « لبيكي ») أو راجع كتابنا : « ماذا خسر العالم بخطا المسلمين » ، الفصل الأول من الباب الرابع .
(٢) سورة الحديد ٢٧ .

جسمه معبده صناعية خيالية ، وفي حياته جوعه وهمية أسطورية ، لا يُشبعها أعظم مقدار من الطعام والشراب ، ومن الذخائر والمستودعات ، ومن الإيراد والغلات . فنشأت مظالم وجرائم ، وأصبح الإنسان حيواناً مفترساً ضارياً ، يفترس بني نوعه ، ويزدرد أفراد أسرته ، وما قصة الحروب والغارات ، والفتوح والانتصارات - حاشا الجهاد الديني المقدس - إلا قصة الجشع الفردي ، أو الجماعي ، وقصة الغرام بالتمتع والرئاسة ، والعلو في الأرض .

تأثير التخمة والنهامة في الاخلاق والاذواق :

وإذا تغلّبت هذه الطبيعة الحيوانية ، وملكت زمام الحياة ، واستحوذت على مشاعر الإنسان وحواسه ، وأصبحت « المعدة » هو القطب الذي تدور حوله الحياة ، شقّ على الإنسان كل ما يحول بينه وبين رغبته ، وما يشغله عن ارضاء نهمته ، وكل ما يذكّره بمبده ومصيره ، وما يصوّر له الحساب ، والإحتساب ، والجزاء والعقاب ، فلا يجد في أعوام طوالٍ وقتاً صافياً ، وقلباً فارغاً ، وعقلاً يقظاً ، وضميراً حياً ، فتثقل عليه العبادة والذكر وما يتصل بهما ، ولا يجد لذتها بطبيعة الحال ؛ « وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم وأنهم اليه راجعون »^(١) « وإذا قاموا الى الصلاة ، قاموا كسالى ، يراءون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلاً »^(٢) .

اغاثة النبوة للانسانية وتشريعها للصوم ،

لتحقيق المثل العليا وغايات الحياة الانسانية الحقيقية :

وجاءت النبوة في ازمان مختلفة ، وأمكنة مختلفة ، تُغيث الإنسانية المهتدة

(١) سورة البقرة ٤٥ - ٤٦ .

(٢) سورة النساء ١٤٢ .

بالمادية الطاغية ، وتُدبيل الرّوج والأخلاق ، والمشاعر اللطيفة ، والقلب المخنوق
المفلوج من طغيان الشهوات ، وقسوة المعيدات ، وتقيم الموازين القسط في الحياة ،
وتعدّ الانسانَ إعداداً جديداً لتحقيق الغاية التي خلّق لها ، وهي « العبادة »
والوصول الى الكمال المطلوب ، الذي هيئ له ، وهي « الولاية » وإكمال المهمة
التي أهبط لها في الأرض وهي « الخلافة » .

وذلك لا يتحقّق بروحانية ملكية ولا بمادية بهيمة . فأمرت بالصوم
ليُحدّ من شرّة هذه المادية المعديّة ، ويُعيد للنفس ما فقدته من حياة
ونشاط ، ومن جدّة وقوّة ، ويشحنها شحناً روحانياً ايمانياً ، تستطيع ان
تحفظ به اعتدالها في الحياة ، وتقاوم به مُغريات الشهوة ومفاسد التّخمة ،
وتتخلّق ببعض اخلاق الله ، وتنال منها نصيباً ، فتسعد به وتسمو ، وتلتحق
بالملائكة والملا الأعلى ، فترتفع في رياض الروح والقلب ، وتسرح في ملكوت
السّموات والأرض ، وتعرف لذّة لا عهد لها بها في الوان الطعام والشراب ، وفي
الشبع المفرط والتّخمة المملّة .

مقاصد الصوم وأثره في النفس والحياة :

وقد اشار الى ذلك حجة الاسلام الغزالي في اسلوبه الخاص ، فقال :

« المقصود من الصوم ، التخلّق بخُلُق من اخلاق الله عزّ وجلّ » ، وهو
الصمديّة ، والاقْتداء بالملائكة في الكفّ عن الشهوات بحسب الامكان ، فإنّهم
منزّهون عن الشهوات ، والانسان رتبته فوق رتبة البهائم لقدرته بنور العقل
على كسر شهوته ، ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه ، وكونه مبتلى
بمجاهدتها ، فكلمها انهمك في الشهوات انحطّ الى اسفل السافلين ، والتحق بنهار

البهائم ، وكلها فمع الشهوات ارتفع إلى اعلى عليين والتحق بأفق الملائكة ، (١)

وزيده العلامة ابن القيم ايضاحاً وتفصيلاً فيقول :

« المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات وغطاها عن المألوفات ، وتعديل قوتها الشهوانية ، لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها ، وقبول ما تزكوه بما فيه حياتها الأبدية ، ويكسر الجوع والظما من حديثها وسورتها ويذكرها بما للأكباد الجائعة من المساكين ، وتضييق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب ، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها ، ويسكن كل عضو منها ، وكل قوة عن جماحه ، وتلجم بلجامه ، فهو لجام المتقين ، وجنة المحاربين ، ورياضة الأبرار والمقربين » (٢) .

ويعني ابن القيم ببلاغته في شرح أسرار الصوم ومقاصده ، فيقول :

« وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة ، والقوى الباطنة ، وحمتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة ، التي إذا استولت عليها أفسدتها ، واستفراغ المواد الرديئة المانعة له من صحتها ، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها ، ويعيد إليها ما استلبته منها ايدي الشهوات ، فهو من أكبر العون على التقوى ، كما قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » (٣) وقال النبي ﷺ : « الصوم جنة » ، وأمر من اشتدت عليه شهوة النكاح - ولا قدرة له عليه - بالصيام ، وجعله وجاء هذه الشهوة .

(١) إحياء علوم الدين - ج ١ - ٢١٢ .

(٢) زاد المعاد - ج ١ - ص ١٥٢ .

(٣) سورة البقرة : ١٨٣ .

والمقصود أن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة والفطر
المستقيمة ، شرعه الله لعباده رحمة لهم ، وإحساناً إليهم ، ورحمة وجنته ،^(١)
ويعود إلى الموضوع ، فيقول :

« لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى ، متوقفاً على
جمعيته على الله ، ولمّ شعثه بإقباله بالكلية على الله تعالى ، فإن شعث القلب لا
يلتمه إلا الإقبال على الله تعالى ، وكان فضول الطعام والشراب ، وفضول مخالطة
الأنام وفضول الكلام وفضول المنام ، بما يزيده شعثاً ، ويشتته في كل وادٍ
يقطعه عن سيره إلى الله تعالى ، أو يضعه أو يعوقه ، اقتضت رحمة العزيز الرحيم
بعباده ، أن شرع لهم من الصوم ، ما يذهب فضول الطعام والشراب ، ويستفرغ
من القلب أخلاط الشهوات المعوقة له عن سيره إلى الله تعالى ، وشرعه بقدر
المصلحة بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه ، ولا يضره ولا يقطعه عن
مصالحه العاجلة والآجلة »^(٢) .

الصوم في الديانات القديمة :

لذلك اشتملت جميع الأديان ، والشرائع المعروفة في التاريخ على الصوم ،
وطالبت به جميع من كان يدين بها ، فمن أقدم الديانات ، التي لا يزال عدد
كبير من الناس يدين بها ، الديانة الهندية البرهمنية ، ويحدث عنها الأستاذ
T. M. P. Mahadevan رئيس قسم الفلسفة في جامعة مدراس الهند ، وهو يشرح
الصوم ومكانته في الشريعة الهندوكية ، والمجتمع الهندي :

(١) زاد المعاد - ج ١ - ص ١٥٢ .

(٢) زاد المعاد - ج ١ - ص ١٦٨ .

« ومن الأعياد ، والأيام المحفل بها في السنة ، ما خصّصت للصوم الذي تُقصد به تركية النفس . إن كل طائفة من الطوائف الهندية تُخصص لنفسها أياماً تقضيها في الدعاء والعبادة ، ويصومها أكثر أفرادها كذلك ، فيكفون عن الطعام ، ويسهرون الليل كله ، ويبستون ، يتلون الكتب المقدسة ويراقبون الله . ومن أعمّ هذه الصيام ، وأكثرها انتشاراً في الطوائف المختلفة ، « ويكنته إيكاشي » الذي يُنسب إلى « وشنو » فلا يصوم ذلك اليوم أتباع وشنو فحسب بل يصومه أكثر الناس ، فيصومون نهاره ويسهرون ليله

ومن الأيام ما يصومها النساء فقط ، ويدعون الإلهة « مظهر صفات الله النسوية » في مختلف مظاهرها ، وتسمى هذه الأيام لأهميتها الخاصة بـ « برت » أو العهد ، وقد خصّصت لتركية الروح ، وغايتها تغذية الروح بالفداء الروحاني » (١) .

ولا يزال البراهمة يصومون في اليوم الحادي عشر ، والثاني عشر من كل شهر هندي ، وهكذا يبلغ عدد الأيام التي تُصام عند البراهمة ٢٤ يوماً في كل سنة ، إذا حافظوا عليها ، وتقيدوا بها ، وقد فاقت الديانة الجينية في الهند في التشديد في شرائط الصوم وأحكامه ، فأتباعها يواصلون أربعين يوماً بالصوم .

ويظهر الصوم عند المصريين القدماء بجوار أعيادهم الدينية ، وكان صوم اليوم الثالث من شهر « تهمسوفيريا » اليوناني خاصاً بالنساء عند اليونان ، ولا تخلوا الصحف الجوسية عن الأمر بالصوم والحثّ عليه ، ولو لطبقة خاصة ، وتدل آية وردت في بعض كتبهم المقدسة على أن صوم خمسة أعوام كان فريضة على الرؤساء الدينيين » (٢) .

Out. lines of Hinduism, Chapter 4 , Section - 6 . (١)

(٢) مقتبس من كتاب « سيرة النبي » للعلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله تعالى (ج ٥ -

ص ٢٨٦ - ٢٨٧) ، وقد استفاد المؤلف في ذلك من دائرة المعارف البريطانية ،

(ج ١٠ - ص ١٩٣)

الصوم عند اليهود :

أما اليهود فقد كان الصوم ، يُعتبر رمزاً للحداد والحزن عندهم في العهد البابلي ، وكان يلجأ إليه ، إذا هدد خطر ، أو إذا كان كاهن أو «مُلهَم» يُعده نفسه لإلهام ، أو «نبوة» ، وكان اليهود يصومون مؤقتاً إذا اعتقدوا ان الله ساخط عليهم ، غير راضٍ عنهم ، أو إذا حلت بالبلاد نكبة عظيمة ، أو خطب كبير ، أو إذا أصيبت البلاد بوباءٍ فاتك ، أو يجذب عام ، وفي بعض الأحيان ، عندما يعزم الملوك على مشروع جديد .

أيام الصيام المحددة الدائمة ، قديمة ومحدودة في التقويم اليهودي ، علاوة على يوم الكفارة ، يوم الصوم المقرر الوحيد ، في الديانة الموسوية ، وكانت هنالك أيام معينة للصوم الدائم ، في ذكرى حوادث أليمة ، وقعت لليهود في أيام الأسر في « بابل » ، وهي تقع في الشهر الرابع « تموز » وفي الشهر الخامس « آب » ، وفي الشهر السابع « تشري » وفي الشهر العاشر « تبت » (Tebet) ، ويرى بعض ربيي « التلمود » أن صيام هذه الأيام إجباري ، عندما يعيش الشعب الإسرائيلي تحت قسوة الحكومات الأجنبية وفي اضطهاد ، ولا تلتزم عندما يتمتع الإسرائيليون بأمن ورخاء .

وزيدت الى أيام الصيام هذه أيام اخرى ، تصام تذكراً لكوارث ومآسي ، نزلت باليهود ، وأضيفت الى الأولى على مرّ الأيام ، وهي لا تُعتبر إلزامية ، ولم تنل الحظوة الكافية عند الجمهور ، ومع اختلاف يسير يبلغ عددها إلى خمسة وعشرين يوماً .

وهنالك أيام صيام شعبية محلية ، تختلف باختلاف الأقاليم والمناطق التي يسكنها اليهود منذ زمن بعيد ، وهي تذكار كذلك لكوارث وخطوب ، أصيبت بها هذه الشعوب في أوقات مختلفة واضطهاد وقسوة تعرضوا لها في بعض الحكومات وأيام صيام تصومها بعض الطبقات دون بعض في ذكرى وقائع ومحن في تاريخ اليهود ، وفي ذكرى مآتم وأفراح في حياتهم الشخصية . وصوم أول يوم من السنة

شائع في كثير من الطبقات، وهنالك أيام صيام تُشرّع، ويأمر بها الرّبّيون ، اذا تعرّض الشعب لخطر ، أو تأخر المطر ، أو أصيبت البلاد بمجاعة ، أو صدرت مراسم قاسية ، أو قوانين غليظة .

وأيام الصيام الشخصية المختارة، التي يفضلها بعض الأفراد دون بعض، شائعة في تاريخ اليهود منذ زمن مبكر، وهي أيام صوم تذكارية لبعض الحوادث الفردية، أو ككفارة عن بعض المعاصي والآثام ، أو لجلب رحمة الله وعفوه عند خطر داهم ، أو بلاء نازل ، وصوم تلك الأيام لا يشجعها الرّبّيون ، ولا يوافقون عليها اذا كان الصائم رجلاً علمياً ، أو استاذاً معلماً ، حتى لا يشوّش ذلك خاطره ، أو يضعف صحته ، وهنالك صوم يصام على إثر رؤيا مفرجة . ولما كانت الشريعة اليهودية لا تسمح بالصوم في أيام الأعياد ، « فالتلود » يبيح هذا الصوم في هذه الأيام ، بشرط أن يكفّر عنه بصوم آخر في أيام عادية . .

والصوم عند اليهود يتبدى من الشروق ، وينتهي عند ظهور أول نجوم الليل ، إلا صوم يوم الكفارة (١) ، واليوم التاسع من شهر « آب » (٢) فإنه يستمر من المساء الى المساء ، وليس هنالك أحكام وتقاليد للصيام العادية . وقد رُغب في الصدقة وإطعام المساكين ، وخصوصاً توزيع العشاء المعتاد التقليدي .

إن الأيام التسعة الأولى من شهر « آب » ، وبعض أيام بين اليوم السابع عشر من شهر « تموز » وبين اليوم العاشر من شهر « آب » تعتبر أيام صوم جزئي

(١) وهو اليوم العاشر من الشهر السابع (تشرّي) (Tishri) « كما في دائرة المعارف اليهودية » وفي كتاب « اليهودية في الاسلام » :

Judaism in Islam by Abraham I. katish (New York 1954) .

(٢) وهذا الصوم شرع تذكراً لإحراق الهيكل المرة الأولى او الثانية .

فيُحرم فيها تناول اللحوم ، وتعاطي الخمر فقط (١) .

الصوم عند المسيحيين :

أما الصوم عند المسيحيين فيطول شرحه وتفصيله ، لأن الديانة المسيحية هي من أقل الديانات تشريعاً فقهاً وأحكاماً كليلية تشمل ادوار التاريخ والمجتمعات المسيحية والطوائف الدينية كلها وأكثرها تطوراً مع الزمن والعوامل السياسية والإجتماعية والاقتصادية أحياناً ، ولذلك يصعب ان يُطلق عليها اسم شريعة إلهية ، وقد حاولنا ان نقدم صورة موجزة عن الصوم عند المسيحيين وما مرّ به من ادوار وأطوار .

« المسيح صام اربعين يوماً قبل ان يبدأ رسالته ، ومن المرجح انه كان يصوم يوم الكفارة ، الذي كان الصوم المفروض في الشريعة الموسوية ، ككل يهودي مخلص ، انه لم يشرع احكاماً للصوم ، إنه خَلّف المبادئ وترك كنيسته تُقنن قوانين لتطبيقها ، وليس لأحد ان يزعم انه اصدر قوانين عن الصوم رأساً . اننا نقرأ في المصادر المسيحية حديثاً عن صوم « بولس » والمسيحيين الأولين ان المسيحيين الذين كانوا من السلالة الإسرائيلية ظلوا يصومون يوم الكفارة . وينوه به الراهب ليوك Luke كيوم يُحتفل به ، ولكن المسيحيين الذين ينتمون الى أصول اخرى لم يُلحوا على ذلك .

وبانتهاء القرن المسيحي الأول ونصف قرن بعد وفاة القديس « بولس » نواجه رغبة ملحّة في تقنين القوانين للصوم ، وقد كان ذلك موكولاً ، الى تقوى الصائم ، نرى الرهبان وبعض رجال الكنيسة يقترحون صياماً ليقاوم به المسيحيون الإغراءات (المادية والجنسية) . وكان يسود في ذلك العصر شعور بالواجب ، وتحذير عن ان يظل الصوم عملاً خارجياً لا يؤثر في نفس الصائم . ويتحدث

(١) مقتبس وملخص من « دائرة المعارف اليهودية » المجلد الخامس ، طبعة ١٩١٦ م ،
الولايات الامريكية المتحدة (Jewish Encyclopaedia) .

القديس « ايرينيس » عن أنواع من الصيام ، منها ما يستغرق اليوم ، ومنها ما يستغرق يومين ، أو بضعة ايام ، ومنها ما كان يستغرق اربعين ساعة متوالية . وقد استمر هذا الوضع مدة طويلة ، وكان صوم « جمعة الآلام او الصلبوت » صوماً شعبياً عاماً ، وكان صوم يوم الأربعاء ، ويوم الجمعة في كل اسبوع شائعاً في بعض الأقطار في القرن الثاني المسيحي ، وكان الذين ينتظرون الإصطباغ (التعميد) ، يصومون يوماً او يومين ، وكان يشترك فيه الذين يأخذون الإصطباغ والذي يتولى ذلك .

وهناك خلافات جزئية في مناهج الصوم وأحكامه في الطوائف المسيحية^(١) ، وقد نال الصوم قسطاً كبيراً من التنظيم والتقنين في فترة بين القرن الثاني والقرن الخامس المسيحيين ، فقد اصدرت الكنيسة قائمة احكام وتوجيهات عن الموضوع ، وقد اتسم الصوم بصلابة وشدة في القرن الرابع ، فقد انتقل من طور الرقّة والتوسّع والمرونة الى طور الصلابة والغلظة والتدقيق ، وقد حُدد اليومان اللذان يسبقان « عيد الفصح » بالصوم في هذا العصر ، وكان الصوم في هذين اليومين ، ينتهي في نصف الليل ، والمرضى الذين لا يستطيعون ، أن يصوموا في هذين اليومين ، كان يُسمح لهم أن يصوموا يوم « السبت » ، وقد سُجّلت في تاريخ المسيحية والمسيحيين في القرن الثالث أيام الصوم ، وكان هنالك اختلاف في نهاية الصوم ، فكان بعضهم يُنهي ويُفطر عند صوت الديك ، وبعضهم إذا أرخى الليل سدوله .

أما صوم أربعين يوماً ، فلا يُوجد له أثر إلى القرن الرابع الميلادي ، وكانت هنالك عادات وأوضاع للصوم يختلف باختلاف البلاد التي يسكنها المسيحيون ، فكان في « روما » صيام يختلف عن الصيام في « لانان » و « الاسكندرية » ، وكان بعضهم يُمسك عن تناول الحيوانات ، خلافاً لغيره ، وبعضهم يجتري .

(١) اقرأ التفصيل في « دائرة معارف الأديان والأخلاق » .

بالسمك والطيور ، وبعضهم يُضرب عن البيض والفواكه ، وبعضهم يجتزىء
بالخبز اليابس ، وبعضهم يكف عن كل ذلك ، وقد شرعت أيام أخرى للصوم
في القرون المتأخرة تذكراً لحوادث وأيام تتصل بحياة المسيح وبتاريخ المسيحية
يطول عدّها^(١) ، منها ما كان يستغرق ثلاث ساعات ، وأربعاً ، يمك فيها الصائم
عن الأكل والشرب . وقد حدّدت أيام مختلفة في القرون الوسطى للصوم في العالم
المسيحي ، تطوّرت مع تقدّم الزمن ، وهي تختلف باختلاف الأقاليم والبلاد ،
التي تحكّم عليها الكنيسة المسيحية .

وبعد الإصلاح حدّدت الكنيسة الإنجليزية أيام الصوم ، ولم تُفكّن قوازين
وحدوداً للصائمين ، تاركة ذلك لضمير الفرد ، وشعوره بالمسئولية ، ولكن قوازين
البرلمان الإنكليزي في عهد « ايدورد السادس » و « جيمس الأول » و « مرسوم
اليزيبت » فرض الإمساك عن اللحوم في أيام الصوم ، وبرّر ذلك بقوله : « إن
صيد السمك ، والتجارة البحرية ، يجب أن تُشجّع وتربّح »^(٢) .

لذلك لمّا شرع الله الصوم في الإسلام ، وفرضه على المسلمين ، قال : « يا ايها
الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »^(٣)

جناية التخيير وعدم التحديد ، والحرية

الزائدة في الصوم ، على مقاصده ، وفوائده :

وقد تجردت بعض الأديان والشرائع القديمة عن تعيين أيام الصوم وتحديدتها

(١) اقرأ التفصيل في « دائرة معارف الأديان والأخلاق » .

(٢) مقتبس من مقال « الصوم عند المسيحيين (Fasting , Christian) في « دائرة

معارف الأديان والأخلاق » (Encyclopedia of Religions and Ethics) .

(٣) سورة البقرة : ١٨٣ .

بالبداية والنهاية ، وضبطها بالأحكام ، فكان الأمر بالحيار ، وكان الناس في كثير من الأديان مخيرين في اختيار الأيام التي يصومونها ، وفي تحديدها ، وكانوا مخيرين بين إمساك شامل عن المأكول والمشروب ، وبين تقليل من الطعام والشراب ، وكانوا مأمورين بترك بعض الأطعمة ، واختيار بعضها ، كما جرى العمل به في بعض الديانات الهندية ، فيمسك بعضهم عن أكل اللحوم ، وبعضهم عمداً يطبخ على النار ، ويحترق بعضهم بألوان من الطعام ، أو بالماء المزوج بالملح (١) .

وقد جنى ذلك على الصوم قديماً ، فضيعة وأضعف قوته ، فكان للانسان أن يصوم متى شاء ، وما شاء ، وأن يحترق بطعام واحد أو بشراب ؛ وأن يقتصر على المقدار القليل ، والأمر موكل الى الصائم ، فطرق الوهن ، وتسربت الخيانة الى النفوس ، ونخطى الناس الحدود ، وصعبت المحاسبة ، فرب مفطر إذا حوسب تملل بأنه قد صام فيما مضى ، ومن يدري ذلك ؟ ورب متجاوز في الأكل اذا وجه إليه النقد اعتذر بأنه المقدار القليل الذي أمر به في الصوم ، وهكذا ضاع الصوم في الأمم القديمة ، وفقد تأثيره وفوائده الروحية والخلقية .

والى هذه الحكمة الدقيقة في التحديد والتميين ، أشار شيخ الاسلام ، احمد ابن عبد الرحيم الدهلوي في كتابه « حجة الله البالغة » فقال :

« واذا وقع التصدي لتشريع عام ، وإصلاح جماهير الناس ، وطوائف العرب والعجم ، وجب أن لا يخير في ذلك الشهر ، ليختار كل واحد شهراً ليسهل عليه صومه ، لأن في ذلك فتحاً لباب الاعتذار والتسلل ، وسداً لباب الأمر

(١) وهكذا كان يصوم زعيم الهند الكبير « غاندي » ويقلده بعض المضربين والمحتجين من زعماء الأحزاب ، ويسمى عندهم « برت » .

بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإخالاً لما هو من أعظم طاعات الاسلام (١) .

ثم يقول وهو يذكر الحاجة الى تعيين المقدار :

« ثم وجب تعيين مقداره لئلا يفرط أحد ، فيستعمل منه ما لا ينفعه وينجع فيه ، ويفرط مفرط ، فيستعمل منه ما يوهن أركانه ويذهب نشاطه ، وينفثه (٢) نفسه ، ويزيره القبور ، وإنما الصوم ترياق يستعمل لدفع السموم النفسانية مع ما فيه نكابة بطية اللطيفة الإنسانية ومنصتها ، فلا بد من أن يتقدر بقدر الضرورة (٣) . »

تقليل الغذاء وتحديدّه ، أم إمساك مطلق ؟ :

ويقارن بين منهجين للصوم المعروفين عند لطوائف والأمم ، الأول الإمساك عن الأكل والشرب ، وما ينافي الصوم بتاتا في مدة محدودة معلومة ، والثاني : تقليل الغذاء ، أو الإجتزاء بشيء واحد ، وترك بعض المرغوبات والمألوفات ، فيفضل الأول على الثاني ، في ضوء التجارب والتحليل العلمي ، وعلم النفس . يقول :

« ثم إن تقليل الأكل أو الشرب ، له طريقتان ، أحدهما : أن لا يتناول منها الا قدراً يسيراً ، والثاني : أن تكون المدة المتخللة بين الأكلات ، زائدة على قدر الممتد ، والمعتبر في الشرائع ، هو الثاني ، لأنه يخفّف وينفّثه ، ويندبق بالفعل مذاق الجوع والمعطش ، ويلحق البهيمية حيرة ودهشة ، ويأتي عليها إتياناً محسوساً ، والأول ، إنما يضعف ضعفاً يبر به ، ولا يجد بالأحق يُدنفقه . »

وأيضاً ، فإن الأول لا يأتي تحت التشريع العام الا يجهد ، فإن الناس على

(٢) نفثه وأنفثه اللطافة : أعيانها ، وأكلها .

(١) حجة الله البالغة - ج ٢ ص ٣٧ .

(٣) حجة الله البالغة - ج ٢ ص ٣٦ .

منازل مختلفة جداً ، يأكل الواحد منهم رطلاً والآخر رطلين ، والذي يحصل به وفاء الأول هو إجحاف الثاني (١) .

ويذكر أنه لا بد من الإعتدال في هذا التوقيت والتحديد ، فيقول :

« ثم يجب أن تكون تلك المدة المتخللة غير مجحفة ولا مستأصلة ، كثلاثة أيام بلياليها ، لأن ذلك خلاف موضوع الشرع ، ولا يعمل به جمهور المسكفين (٢) » .

صيام مجموعة متتابعة ، أم متشتتة موزعة ؟ :

وكانت الأيام التي تصام في كثير من الديانات القديمة ، وعند طوائف من الأمم ، أياماً موزعة مبعثرة في طول السنة ، تتخلل بينها فترات طويلة تفقدها التأثير في الأخلاق والميول والعادات ، ولا تجعل النفس تنصبغ بها ، فكان من المصلحة والحكمة ، أن تتوالى هذه الأيام وأن تتكرر ، يقول شيخ الإسلام الدهلوي رحمه الله :

« يجب أن يكون الإمساك فيها متكرراً ليحصل التمرن والانقياد ، وإلا فجعوج واحد ، أي فائدة يفيد ، وإن قوي واشتد (٣) » .

وقد جاء التشريع الإسلامي للصوم مستوفياً لجميع هذه الشروط والصفات ، محققاً لجميع هذه الأغراض والنتائج الروحية والحلقية ، والنفسية والاجتماعية وكان ذلك صيام رمضان الذي فرضه الله على المسلمين .

وتقدم صوم رمضان ، صوم يوم عاشوراء الذي كان اليهود يصومونه وكان

(١) حجة الله البالغة - ج ٢ ص ٣٧ .

(٢) أيضاً : ص ٣١ .

(٣) أيضاً : ص ٣٧ .

كثير من العرب في الحجاز يصومونه كذلك، والموضوع يحتاج الى شيء من الشرح والتفصيل .

صوم عاشوراء :

روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه . قال : « قدم النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا يوم صالح ! هذا يوم نجى الله بني اسرائيل من عدوهم ، فصامه موسى ، قال : فأنا أحق بموسى منكم ، فصامه ، وأمر بصيامه ^(١) » وفي رواية مسلم : « هذا يوم عظيم ، أنجى الله فيه موسى وقومه ، وغرق فرعون وقومه ، فصامه موسى » وزاد البخاري في الهجرة في رواية أبي بشر : « ونحن نصومه تعظيماً له » وروى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : « قدم رسول الله ﷺ المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء ، فسئلوا عن ذلك ، فقالوا : هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى وبني اسرائيل على فرعون ، فنحن نصومه تعظيماً له ، فقال النبي ﷺ : نحن أولى بموسى منكم ، فأمر بصومه ^(٢) » وروى الطبراني في المعجم : « أنه عليه السلام لما دخل المدينة ، وجد اليهود صاموا عاشوراء ، فسأل أي يوم هذا ؟ قالوا : عاشوراء ، خلص فيه موسى عليه السلام من فرعون ، فقال النبي ﷺ : نحن أحق باتباع موسى عليه السلام . »

وقد استشكل ذلك العالم الرياضي الكبير أبو الريحان البيروني ^(٣) (م ٤٤٠هـ) ، وشك في صحة الأحاديث الواردة في ذلك اعتماداً على الحساب ، ودراسة التقويم اليهودي ، وتطبيقه بالتقويم العربي ، قال في كتابه : « الآثار الباقية عن القرون الخالية » :

(١) الجامع الصحيح للبخاري . كتاب الصوم « باب صيام يوم عاشوراء . »

(٢) صحيح مسلم - ج ١ - كتاب الصوم - « باب صوم يوم عاشوراء . »

(٣) هو محمد بن أحمد الخوارزمي البيروني العالم الرياضي الفلكي الفيلسوف ، قيل إنه توفي

سنة ٤٤٠هـ وقيل ٤٥٠هـ ، وقيل غير ذلك .

« وقد قيل إن عاشوراء هو عبراني (١) ، معرب يعني عاشور ، وهو العاشر من « تشرى » اليهود الذي صومه صوم الكبثور ، وأنه اعتبر في شهور العرب ، فجعل في اليوم العاشر من أول شهورهم ، كما هو في اليوم العاشر من أول شهور اليهود ، وقد فرض صومه في أول سنة الهجرة ، ثم نسخه صوم رمضان الآتي بعده . وروي أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة ، رأى اليهود يصومون عاشوراء ، فسألهم عنه ، فأخبروه ، أنه اليوم الذي أغرق الله فيه فرعون وآله ونجى موسى ومن معه . فقال عليه السلام : « نحن أحق بموسى منهم » . فصام وأمر أصحابه بصومه . فلما فرض صوم شهر رمضان ، فلم يأمرهم بصوم عاشوراء ولم ينههم .

وهذه رواية غير صحيحة ، لأن الإمتحان يشهد عليها ، وذلك لأن أول الحرم كان سنة الهجرة يوم الجمعة السادس عشر من تموز سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة للإسكندر . فإذا حسبنا أول سنة اليهود في تلك السنة كان يوم الأحد الثاني عشر من ايلول ، ويوافق اليوم التاسع والعشرون من صفر ، ويكون صوم عاشوراء يوم الثلاثاء التاسع من شهر ربيع الأول ، وقد كانت هجرة النبي عليه السلام في النصف الأول من ربيع الأول ... فما ذكروه من اتفاقهما حينئذ محال على كل حال .

وقال :

« وأما قولهم : إن الله أغرق فرعون فيه ، فقد نطقت التوراة بخلافه . وقد كان غرقه في اليوم الحادي والعشرين من « نيسن » وهو اليوم السابع من

(١) أقول ، قال ابن منظور في لسان العرب « ج ٦ - ص ٢٤٥ » : وعاشوراء ، وعشوراء ، ومرددان ، اليوم العاشر من الحرم ، وقيل التاسع ، قال الأزهري : لم يسم في أمته إلا أسماء اسم على فاعولاء ، إلا أحرف قليلة .

أيام الفطير ، وكان أول فصح اليهود بعد قدوم النبي المدينة يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من « آذار » سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة للإسكندر ، ووافق اليوم السابع عشر من شهر رمضان ، فاذا لس لما رووه وجه البتة (١) .

وكلام البيروني - على غزارة علمه بالرياضيات وذكائه النادر - مؤسس على عدة افتراضات .

فمنها أنه فهم أن هذه المحاوراة التي ذكرها ابن عباس وغيره ، كانت في أول يوم قدم فيه النبي ﷺ المدينة ، لأن ابن عباس رضي الله عنه قال : « لما قدم النبي ﷺ المدينة » أو (لما دخل المدينة) لذلك قال : قد كانت هجرة النبي عليه السلام في النصف الأول من ربيع الأول ، وقد نشأ هذا الوهم لعدم ممارسته لصناعة الحديث ، وجهله لأساليب كلام الصحابة رضي الله عنهم ، وتعبيراتهم ، فهذا أسلوب شائع في أحاديثهم . فقد روى أبو داود عن أنس بن مالك ، قال : « قدم النبي ﷺ المدينة ، ولهم يومان يلعبون فيهما ، فقال : ما هذان اليومان ؟ قالوا : كنا نلعب فيهما في الجاهلية . فقال رسول الله ﷺ : قد أبدلكم الله بهما خيراً منها ، يوم الأضحى ويوم الفطر » فهل يفهم من ذلك أن قدومه صادف يوم عيد وفرح عندهم ؟ وهل يمكن أن يصادف يومين يلعبون فيهما ؟ وقد ورد نفس هذا التعبير في تأبير النخل وغير ذلك .

وقد نبه على ذلك العلامة ابن حجر العسقلاني . قال :

« وقد استشكل ظاهر الخبر لاقتضائه ، أنه ﷺ حين قدومه المدينة ، وجد اليهود صياماً يوم عاشوراء ، وإنما قدم المدينة في ربيع الأول ، والجواب عن ذلك ، ان المراد ، أن اول علمه بذلك ، وسؤاله عنه ، كان بعد أن قدم المدينة ، لأنه قبل أن يقدمها ، علم ذلك ، وغايته أن في الكلام حذفاً ،

(٢) « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ص ٣٣١ .

تقديره قدم النبي ﷺ المدينة ، فأقام إلى يوم عاشوراء ، فوجد اليهود فيه صياماً (١) .

إذاً فلا إشكال ولا تناقض بين ما ورد في الحديث ، وبين ما تحققت بالتقويم .

والإفتراض الثاني ، أنه فرض أن صوم عاشوراء المذكور في الحديث ، « هو العاشر من شهر تشرى اليهود ، الذي صومه صوم الكبشور » يعني صوم يوم الكفارة المشهور عند اليهود . واليوم المحتفل به أكثر من كل يوم وصوم ، وهو المذكور في كتبهم وشريعتهم بنفس الصيغة (Yom kippur) ويقال في الإنجليزية Day of Atonement (٢) .

وهذا لا يصح ولا يتمشى مع لفظ الحديث ، ونصوص التوراة ، فإنه صوم كفارة عن ذنب كبير ، وجريمة قومية تاريخية (٣) ويوم حزن وحداد ، وإيلام نفس ، فقد جاء في اللاويين ، أو سفر الأحبار ، عن صوم الكفارة ، الواقع في عاشر الشهر السابع تشرى :

ويكون لكم فريضة دهرية أنكم في الشهر السابع في عاشر الشهر ، تذللون نفوسكم وكل عمل لا تعملون ، الوطني والغريب النازل في وسطكم ، لأنه في هذا

(١) فتح الباري - ج ٤ : ص ٢١٤ - ص ٢١٦ .

(٢) راجع « دائرة المعارف اليهودية » .

(٣) لا يبعد ان يكون صوم كفارة عن عبادة المعجل التي تورط فيها اليهود على إثر ذهاب موسى الى ربه الذي قال عنه القرآني : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ، وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة » وعوقبوا على هذه العبادة بأن يقتل منهم الأبرياء المحرمين فقد جاء في القرآن : « وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم انفسكم بائخاذكم المعجل فتوبوا الى بارئكم » الخ . وقد خلف ذلك صوم فرض على اجيال اليهود الى الأبد ، ويؤيده ما جاء في كتاب « Judaism in Islam » : « قضى موسى أربعين يوماً على الجبل ، ونزل يوم الكفارة . »

اليوم يكفّر عنكم لتطهيركم من جميع خطاياكم ، أمام الرب تطهرون^(١) . وجاء في موضع آخر :

« وكلمّ الرب موسى قائلاً : أما العاشر من هذا الشهر السابع ، فهو يوم الكفّارة محفلاً مقدساً يكون لكم ، تذللون نفوسكم ، وتقربون وقوداً للرب ، عملاً ما لا تعملوا في هذا اليوم عينه ، لأنه يوم كفارة للتكفير عنكم ، أمام الرب إلهكم^(٢) »

وجاء في سفر العدد :

« وفي عاشر هذا الشهر السابع ، يكون لكم محفل مقدس ، وتذللون أنفسكم عملاً ما لا تعملوا »^(٣) .

وبالعكس من ذلك ، فقد جاء في الأحاديث الصحيحة ما يصرّح بأن يوم عاشوراء « الذي شرع صومه للمسلمين » كان يوم فرح وعيد عند اليهود ، فقد روى البخاري عن أبي موسى الأشعري ، قال : كان يوم عاشوراء تعدّه اليهود عيداً . قال النبي ﷺ : « فصوموه انتم »^(٤) ولمسلم عن قيس بن مسلم بإسناده : قال : كان أهل خيبر يصومون يوم عاشوراء ، يتخذونه عيداً ، ويلبسون نساءهم فيه حلّيتهم وشارتهم :^(٥) فقال رسول الله ﷺ « فصوموه انتم »^(٦) وقد روى

-
- (١) اللاويين ، الاصحاح السادس عشر (٢٩ - ٣٠ - ٣١) الكتاب المقدس ، أي كتب العهد القديم والعهد الجديد ، « ترجمة مرسلتي الجمعية الامريكانية » « طبع نيويورك »
 - (٢) اللاويين ، الاصحاح الثالث والعشرون (٢٦ - ٢٧ - ٢٨) .
 - (٣) سفر العدد ، الاصحاح التاسع والعشرون (٧) .
 - (٤) كتاب الصوم « باب صيام يوم عاشوراء » ج ٤ .
 - (٥) قال المسقلاني : أي هيأتهم الحسنة .
 - (٦) كتاب الصوم .

كريب بن سعد عن عمر بن الخطاب ، قال : « إن الله تبارك وتعالى لا يسألكم يوم القيامة ، إلاّ صيام رمضان ، وصيام يوم الزينة » يعني يوم عاشوراء « (١) إذاً فلا يصحّ أن يقال : أنه كان يوم الكفارة ، فقد كان هذا اليوم يوم حزن وعقوبة ، وذلك ومهانة ، وعاشوراء المذكور في الحديث يوم ترويح للنفس ، وفرح وسرور ، وزينة وتجهل .

وقد وقع في هذا الخطأ والوهم رجال في الشرق والغرب غير البيروني ، واتّجه إلى ذلك بعض علماء الحديث في هذا العصر ، وقد جاء في كتاب « اليهودية في الإسلام » ، « Judaism in Islam » في ذكر يوم الكفارة :

« وقد قرّره محمد في بداية الأمر كيوم صوم للمسلمين » (٢) .

ولا بد أن نجعل ما قاله اليهود عن عاشوراء ، « أنه يوم صالح ، يوم نجّى الله بني اسرائيل من عدوهم » ميزاناً في هذا البحث ، فلا بد أن ينطبق هذا الوصف على اليوم الذي نبحت فيه ، وقد جاءت تسمية هذا اليوم الذي نجّى الله فيه بني اسرائيل من فرعون وآل فرعون « بأبيب » صراحة في عدة مواضع من التوراة وهو الذي جرت تسميته « بنيسان » فيما بعد ، جاء في دائرة المعارف للبستاني في مادة « أبيب » Abib :

« كلمة عبرانية معناها أخضر ، وهي اسم الشهر الأول من السنة العبرانية ، ووضع اسمه موسى عليه السلام ، وهو يكاد يكون موافقاً لشهر « نيسان » (افريل) ، وبعد أن سبي الإسرائيليون إلى بابل ، غيّرُوا اسم هذا الشهر ، وسمّوه نيسان ، أي شهر الزهور ، وفي منتصفه كان عيد الفطير عندهم ،

(١) أخرجه ابن مردويه ، راجع كنز العمال ج ٤ - ص ٣٤ .

(2) Judaism in Islam by Abraham I. Katish New York (1954) .

(خروج : ١٢ : ١٨) (١١) .

وقد أقرّ بذلك البيروني نفسه : فقال فيما نقلنا عنه :

« وأما قولهم إن الله أغرق فرعون فيه ، فقد نطقت التوراة بخلافه ، وقد كان غرقه في اليوم الحادي والعشرين من نيسان (نيسان) وهو اليوم السابع من أيام الفطير ، وقد جاء في التوراة (خروج - ١٢ - ١٨) : في الشهر الأول في اليوم الرابع عشر من الشهر مساءً تأكلون فطيراً إلى اليوم الحادي والعشرين من الشهر مساءً .)

وبعد استعراض هذه النصوص ، ودراسة شريعة اليهود وتاريخهم وعاداتهم ، يُرجّح الباحث أن أشبه يوم بيوم عاشوراء ، الذي جاء ذكره في حديث ابن عباس وغيره ، والذي شرع صومه في الإسلام ، وكان عزيمة قبل رمضان ، هو يوم يقع في منتصف شهر (أبيب) القديم ، أو شهر نيسان - كما اعتاد اليهود أن يسمّوه به بعد جلائهم إلى بابل - وهو عيد من اعيادهم التي يحتفلون بها ، ويظهرون فيها الفرح والسرور^(٢) ، وهو يوم وقع فيه خروج بني اسرائيل من مصر وغرق فرعون ، وقد جاء في (الإصحاح الرابع والثلاثون) :

(تحفظ عيد الفطير ، سبعة أيام تأكل فطيراً أمرتك في وقت شهر أبيب ، لأنك في شهر أبيب خرجت من مصر) وجاء في الإصحاح ايضاً (لأنه بيد قوية

(١) يقول البستاني : أما أشهر الإسرائيليين الجارية ، فالشهر الأول من السنة هو شهر تشرى ، وهذا يجعل شهر أبيب عندهم الشهر السابع من السنة .

(٢) وقد يستشكل بعض الناس اجتماع الصوم والعيد في يوم واحد ، وهذا ناشئ من قياس الصوم عند اليهود والنصارى على الصوم الاسلامي ، وقد جاء في دائرة المعارف اليهودية عن غرة الشهر السابع « إنه يوم صوم وعيد » .

أخرجك الرب من مصر ، فتحفظ هذه الفريضة في وقتها من سنة إلى سنة (١) ومن المرجح أنه صادف اليوم العاشر من المحرم الشهر العربي الأول في السنة الثانية من الهجرة ، ثم نسخه صوم رمضان في نفس هذا العام .

وتطبيق الحساب القمري ، والتقويم العربي بالحساب الشمسي ، والتقويم اليهودي تطبيق تخميني تقديري ، بسبب النسبي الذي جرى عليه العرب قبل الإسلام ، وبعد الإسلام حتى أبطله الله بقوله : (إنما النسبي زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا) الآية ، وأعلن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع : (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض) وكان ذلك بوحي من الله تعالى وإلهام . فقد كان التقويم العربي اضطراباً اضطراباً لا يهتدى فيه إلى الصواب ، ولا يرجع إلى الأصل القديم بمجرد الحساب ، فلا يصح أن يشك في صحة الأحاديث الصحيحة المستفيضة اعتماداً على حساب تخميني مع اضطراب التقويم ، وتعدد واختلافها في الجاهلية وفي الإسلام .

ويمكن أن يكون يهود المدينة منفردين بصوم عاشوراء ، قد التزموا صومه وتمسكوا به ، وجاروا فيه العرب الذين كانوا يصومونه إجلالاً لهذا اليوم الذي حدثت فيه الوقائع العظيمة ، وقد صح عن عائشة ، أنها قالت : (كانت قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية ، وكان رسول الله ﷺ يصومه (الحديث (٢)) وقد كانت لليهود في أنحاء الأرض ، وفي مختلف الأقاليم والعصور ، عادات في الصيام وأيام مخصوصة يصومها بعض اليهود ، ولا يصومها الآخرون ، وقد تقدم ما جاء في دائرة المعارف اليهودية في الحديث عن الصيام اليهودية :

« وهناك صيام شعبية محلية ، تختلف باختلاف الأقاليم والمناطق التي

(١) الإصحاح - ١٣ .

(٢) صحيح مسلم : كتاب الصيام « باب صوم عاشوراء » .

يسكنها اليهود منذ زمن بعيد . ويقول كذلك : وصيام تصومها بعض الطبقات دون بعض في ذكرى وقائع ومحن في تاريخ اليهود ، فلا يستبعد أن صوم عاشوراء ، والتزامه في اليوم العاشر من المحرم ، الشهر العربي الأول ، كان من خواص اليهود العرب ، لذلك نرى المصادر اليهودية ساكتة عنه ، وحملة أكثر الباحثين فيهم على صوم يوم الكفارة المشهور العام في الديانة اليهودية ، الذي يصومه جميع طبقات اليهود في جميع المناطق التي يسكنونها ، وسارع إلى القدح في الأحاديث ، والشك في صحتها ، من حملة على صوم يوم الكفارة ، وما هو إلا " تسرع في الحكم ، نشأ من عدم إحاطة بعبادات اليهود ، ومذاهبهم في مختلف الأقاليم والعصور ، وقلة المصادر والمعلومات عن يهود الحجاز ، واليهود العرب ، الذين عاشوا في جزيرة العرب ، قروناً وأحقاباً ، كأمة ذات شأن وكيان ، وأخلاق وعبادات وعقائد ، تأثرت بالبيئة والمحيط ، شأن جميع الأمم والشعوب البشرية ، والحضارات والثقافات ، واللغات ، واللهجات ، وبالله التوفيق (١) .

فرض الصوم ، وما نزل فيه من آيات :

فللحكم السامية ، والمقاصد الأخروية والدينية ، التي قد مناهها ، والتي لا يحيط بها علم العلماء ، وذكاء الأذكياء ، ولإعانة الروح التي تجني عليها التخمة والحياة المترفة الرتيبة ، فتصبح هزيلة علية ، ولتمكين المسلم من أداء رسالته الخاصة ، - الخلافة - التي لا يقوى عليها إلا بالتوسط والإعتدال ، والصبر والإحتمال ، فرض الله صوم رمضان .

ولم يفرضه إلا بعد أن هاجر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، والمسلمون

(١) استندنا في هذا البحث من مقال قيم للمرحوم الاستاذ أبي الجلال الندوي (مجلة « معارف » الشهرية : عدد ٢ - مجلد ٦٠ (اغسطس ١٩٤٧ م) .

إلى المدينة ، وانقضت أيام العسرة والحنة ، وتهيأت لهم أسباب العيش ، حتى لا يقول قائل إن الصوم كان اضطرارياً ، ومن وحي البيئة والحالة الاقتصادية ، التي كان يعيش فيها المسلمون في مكة ، وأنه من شأن الفقراء والمساكين ، أو المضطهدين المعدّبين ، وأن الأغنياء والموسرين ، وأصحاب الأملاك والبساتين^(١) في غنى عن الصوم .

ولم يفرضه إلاّ بعد أن رسخت العقيدة في قلوب المسلمين ، وفعلت فعلها ، وألغوا الصلاة وهاموا بها ، وتلقّوا الأوامر والأحكام الشرعية بقبول واستعداد كأنهم كانوا منها على ميعاد، وقد أحسن العلامة ابن القيم الإشارة الى ذلك فقال: ولما كان فطم النفوس عن مألوفاتها وشهواتها من أشقّ الأمور وأصعبها ، تأخر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة ، لما توطنت النفوس على التوحيد والصلاة ، وألفت أوامر القرآن ، فنقلت إليه بالتدرّج .

وكان فرضه في السنة الثانية من الهجرة ، فتوفي رسول الله ﷺ وقد صام تسع رمضان^(٢) .

وأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِمَلِكُمْ تَتَّقُونَ ، أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ^(٣) فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ

(١) كان الأنصار في المدينة أصحاب أملاك وبساتين ، وفوي يبار ، وسعة في الأموال ، وكذلك المهاجرون ، اشتغلوا بالتجارة ، فعسن حالهم واتسعت لكثير منهم الدنيا .

(٢) زاد المعاد - ص ١٥٢ .

(٣) يعرف المستقري، للغة العرب ومناهج كلامهم أن لهم تعبيرات مختلفة عن معنى القدرة على الشيء ، والاتيان بفعله ، تتصاعد وترتقي باعتبار التمسر ، أو لها الاستطاعة ، وآخرها الإطافة ، فلا تلجأ الى هذا الأخير إلا إذا كان الفعل شاقاً مجهداً يستنفذ ←

له ، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ، شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن

→ القوة ، ويستفرغ الجهد ، فلا يقول احد إنني أطيق أن أرفع اللقمة الى فمي ، أو هذا القلم الى اذني أو نحو ذلك مما لا عسر فيه ، بل يقول اني اطيق ان احمل هذا الحجر الثقيل ، أو أن أصرد الصيام ، أو أن أصلي الليلة كلها مثلاً ، وقد نوه بذلك مدونوا اللغة العربية وصيارفة كلام العرب ، قال العلامة ابن منظور ، في لسان العرب : « الطوق الطاقة ، اي أقصى غايته ، وهو اسم ل مقدار ما يمكن ان يفعله بشقة منه » وقال الزبيدي في تاج العروس شرح القاموس : « الطوق : الوسع والطاقة . وأنشد الليث : « كل امرئ مجاهد بطوقه - والثور يحمي أنفه بروقه ، يقول كل امرئ مكلف ما أطاق » وقال العلامة راغب الأصفهاني في مفردات غريب القرآن : « الطاقة اسم ل مقدار ما يمكن للإنسان ان يفعله بشقة ، وذلك تشبيهه بالطوق المحيط بشيء » فقوله « ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » أي ما يصعب علينا مزاولته ، وليس معناه « لا تحملنا » ما لا قدرة لنا به ، وذلك لأنه تعالى ، قد يحمل الإنسان ما يصعب عليه ، كما قال : « ويضع عنهم اصرهم » « ووضعنا عنك وزرك » اي خففنا عنك المبادات الصعبة ، التي في تركها الوزر ، وعلى هذا الوجه « قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » وقد يعبر بنفي الطاقة عن نفي القدرة « فكان معنى الآية « الذين يطيقونه » مع شدة وتمب ، ومشقة عظيمة ، وهما الشيخ الكبير ، والمرأة الكبيرة ، لا يطيقان الصيام الا مع جهد وارهاق ، وتعرض النفس للهلاك ، والمرض الشديد .

وعلى ذلك فهمه ابن عباس رضي الله عنه ، كما روى عنه البخاري وأبو داود وغيرهما وقال : ان الآية نزلت في الشيخ الكبير الهرم « والمجوز الكبيرة الهرمة ، وأخرج البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنه ، أنه قرأ : « وعلى الذين يطيقونه » قال : يكلفونه ، وهو الشيخ الكبير والمجوز الكبيرة ، يطعمون كل يوم مسكيناً ، ولا يقضون وله طرق كثيرة عنه ، وأخرج الدارقطني عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنها ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين واحد ، فمن تطوع خيراً ، قال : زاد مسكيناً آخر ، فهو خير ، قال : وايدست بنسوخة ، الا انه رخص للشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصيام ، وأمر ان يطعم الذي يعلم انه لا يطيقه ، (وإسناده صحيح ثابت) وروي للطحاوي عن ابن عباس رضي الله عنه « وعلى الذين يطيقونه » قال : الذين يتجشموه ←

هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن

→ ولا يطيقونه ، يعني الابلجهد : الجبلى ، والكبير ، والمريض ، وصاحب العطاس ، وقد نقل ذلك عن علي وأبي هريرة من كبار الصحابة رضي الله عنهم ، وعن مجاهد من كبار التابعين « وقد روي عن أنس ، أنه كان يفعل ذلك بعد ما اسنّ وكبر ، (أخرج أثره البخاري) وروى خالد الحذاء عن عكرمة ، انه كان يقرأ « وعلى الذين يطيقونه » قال إنها ليست بمنسوخة ، وروى الحجاج عن ابي اسحاق عن الحارث عن علي « وعلى الذين يطيقونه » قال : الشيخ ، والشيخة ، وعن سعيد بن جبير ، أن ابن عباس رضي الله عنه ، كانت له جارية ترضع ، فجهدت ، فقال لها : افطري ، فإنك بمنزلة الذين يطيقونه .

فكان الذين توجه اليهم الخطاب في قوله : « كتب عليكم الصيام » على أقسام ثلاثة ، الأول : المقيم الصحيح ، فيتختم عليه الصوم ، الثاني : المريض والمسافر ، فيباح لهما الافطار ، مع وجوب القضاء ، الثالث : من يشق عليه الصوم بسبب لا يرجى زواله ، كالموم ، والمرض المزمن ، فيفطران ويطعمان لكل يوم مسكيناً ، وكذلك الحامل والمرضع ، فتفطران وتقضيان ، وهكذا تبقى الآية محكمة لا نسخ فيها ، ولا تقدير لكلمة زائدة أو حذف ، أو تكلف شديد ، وقد ذهب الى ذلك بعض كبار الصحابة من الراسخين في العلم ، يخرج بذلك هذا الدول عن الشذوذ والنكارة ، وتفسير القرآن بالرأي ؛ وقد انصف العلامة الآلوسي ، اذ قال في روح المعاني ، والحق أن كلامنا القراءات يمكن حملها على ما يحتمل النسخ وعلى ما لا يحتمله ، ولكل ذهب بعض... (ج ١ - ص ٣٧٠) .

أما قول بعض كبار الصحابة رضي الله عنهم بنسخ هذه الآية ، وقد ذهب الى ذلك اكثر المتقدمين ، وكان هو المذهب المشهور في كتب التفسير والحديث . فقد نشأ ذلك عن قياس تعبيرات الصحابة ومناهج كلامهم على المصطلحات الاصولية المحررة في الأزمان المتأخرة ، وحملها عليها حملاً كلياً . فقد كان الصحابة والمتقدمون يتوسعون في اطلاق هذه الكلمات ، وقد يريدون بها معنى من معانيها اللغوية ، وينطقون بها بأدنى مناسبة أو وجه من الوجوه ، ويحسن ان فنقل هنا كلام شيخ الإسلام الدهلوي في هذا الموضوع ، قال رحمه الله : « ومن المواضع الصعبة في فن التفسير التي ساحتها واسعة جداً ، ←

كان مريضاً ، أو على سفر ، فعدةٌ من أيامٍ آخر، يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ، ولتكمّلوا العدة ، ولتكبّرُوا الله على ما هداكم ، ولعلمكم تشكرون» (١)

ليست هذه الآيات التي تضمنت وجوب الصوم ، تشريماً جافاً مجرداً ، كالقوانين والمراسيم العادية ، التي لا تعتمد إلاً على الرابطة السياسية أو الإجتماعية ، التي تقوم بين الفرد والحكومة ، إن هذه الآيات تخاطب الإيمان والعقيدة ، والعقل والضمير ، والقلب وال عاطفة في وقت واحد ، وتثير كل ذلك وتفغّذه ، وهكذا تهيبّ الجوّة لقبول هذا التشريع وإساعته بل للترحيب به ، واستقباله بنشاط وحماس ، إنها آية في الإعجاز ، وفي فقه الدعوة ، وعلم النفس ، والتشريع الحكيم ، «تنزيل من حكيم حميد (٢)» .

→ الاختلاف فيها كثير ، معرفة النسخ والمنسوخ ، وأقوى الوجوه الصعبة اختلاف اصطلاح المتقدمين والمتأخرين.

وما علم في هذا الباب من استقراء كلام الصحابة والتابعين ، انهم كانوا يستعملون النسخ بإزاء المعنى اللغوي الذي هو إزالة شيء بشيء ، لا بإزاء مصطلح الأصوليين ، فعنى النسخ عندم إزالة بعض الأرصاف من الآية بآية أخرى ، إما بانتهاء مدة العمل ، أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غير المتبادر ، أو بيان كون قيد من القيود اتفاقياً ، أو تخصيص عام ، أو بيان الفارق بين النصوص ، وما قيس عليه ظاهراً ، أو إزالة عادة الجاهلية أو الشريعة السابقة « فاتسع باب النسخ عندم ، وكثر جولان العقل هنالك واتسعت دائرة الإختلاف » (الفوز الكبير في أصول التفسير ص ١٨) .

وقد آثر هذا القول ، واختاره بعض كبار العلماء في عصرنا ، والمتضلعين من علوم الدين ، كالعلامة المحقق الشيخ انور شاه الكشميري ، والعلامة المحدث الشيخ شمس الحق الديابوتي ، والأستاذ العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله ، عدا العلامة انفي محمد عبده الذي اشتهر عنه هذا القول ، بعدما سجله تلميذه النقيب العلامة السيد رشيد رضا في « تفسير المنار » .

(١) سورة البقرة : ١٨٣ - ١٨٥ .

(٢) سورة حم السجدة : ٤٢ .

خاطب الله المكلفين بهذا التشريع بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » ، وهكذا هيئاً مخاطبين لقبول كل ما يكلفون به ويطلب منهم مها كان شاقاً وعسيراً ، لأن صفة الإيمان تقتضي ذلك ، وتوجيهه ، فمن آمن بالله ، كإله وربٍّ ، وسيّد ومطاع ، وصاحب الأمر والنهي ، وخضع له بقلبه وقلبه ، واستسلم له وأحبّه من أعماق نفسه ، كان جديراً بإجابة كل ما يصدر عنه من أمر ، وكل ما يوجّه إليه من طلب : « إنما كان قولُ المؤمنين ، إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا (١) » « ما كان المؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم (٢) » « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم (٣) » ، والشريعة كلها - بما فيها من فرائض وعبادات وأحكام - حياة للنفوس .

ثم ذكر الله أنه كتب عليهم الصيام ، ولكنه لم يكتبه عليهم لأول مرة في تاريخ الأديان : وليس هو بدعاً في التشريع ، فقد كتبه على من سبقهم من أهل الكتاب ، وأهل الشرائع والأديان ، وهكذا يخفف الله وطأة هذا التشريع على النفوس ، ويهون خطبه عليها ، فالإنسان ، إذا عرف أنه لم يكلف بشيء جديد ، وإنما هو شيء سبق وتقدّم ، وقامت به الطوائف والأمم ، هان عليه الأمر ، وتشجع عليه .

ثم ذكر أنه ليس امتحاناً فقط ، ولا مشقّة ليس من ورائها قصد ، بل هو رياضة وتربية ، وإصلاح وتزكية ، ومدرسة خلقية ، يتخرج فيها الإنسان فاضلاً كاملاً ، زمامه بيده ، يملك نفسه وشهواته ، ولا تملكه ، لقد استطاع الإضراب عن المباحات والطيبات ، فهو أقوى على ترك المنوعات والمحرمات ، ومن يترك

(١) سورة النور : ٥١ .

(٢) سورة الأحزاب : ٣٦ .

(٣) سورة الأنفال : ٢٤ .

الماء الزلال الحلال ، والطعام الزكي الهنيء لأمر ربه ، كيف يقرب السُّحْتِ الحرام ، والرَّجْسِ النجس من المطاعم والمشارب والمعاش ؟ لذلك قال : « لعلكم تتقون » .

ثم قال لا تمولنكم عدة الشهر ، ولا تثقلن عليكم ، فإنما هي « أياماً معدودات » تصام تبعاً ، وتنقضي سراعاً ، وما نسبة هذا الشهر - الذي لا يصام إلا نهاره - إلى العام الكامل ، الذي ينقضي في لذّة مباحة ، ومتمعة وراحة ؟

ثم إنه يستثنى من هذا التكليف المريض والمسافر ، ومن يعجز عن الصوم ، أو يخاف عليه منه .

ثم ذكر فضل الشهر الذي شرع صومه ، إنه شهر ، نزل فيه القرآن ، الذي كان بعثاً جديداً للجيل الإنساني ، ومبدأ حياة جديدة للنوع البشري ، فخلق بالمسلم أن يستمد من هذا الشهر المبارك ، بصيامه وقيامه ، حياة جديدة وإيماناً جديداً ، وقوة جديدة .

هذا هو الصوم الإسلامي ، أو الشحن الروحاني ، الزاخر بالحياة والمنافع والبركات ، بعيد عن الإرهاق والإجهاد والمشقات ، التي لا تطيقها النفوس ، « يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ، ولتكبّروا الله على ما هداكم ، ولعلكم تشكرون (١) » .

خصائص التشريع الإسلامي في

الصوم وفضله واحكامه :

وهكذا جاء التشريع الإسلامي للصوم أكمل تشريع وأوفاه بالمقصد ،

(١) سورة البقرة : ١٨٥ .

وأضمنه بالفائدة ، وقد تجلّت فيه حكمة العزيز العليم الحكيم الخبير ، الذي خلق الإنسان « ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير » (١) .

فخصّ شهراً كاملاً - وهو شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن - بصيام أيام متتابعات متواليات ، يصام نهارها ويفطر ليلها ، وهو العُرف عند العرب في الصوم وهو الميزان في التشريع العالمي الإسلامي ، يقول شيخ الإسلام احمد بن عبد الرحيم الدهلوي :

« ويضبط اليوم بطلوع الفجر إلى غروب الشمس ، لأنه هو حساب العرب ومقدار يومهم ، والمشهور عندهم في صوم عاشوراء ، والشهر برؤية الهلال إلى رؤية الهلال ، لأنه هو شهر العرب ، وليس حسابهم على الشهور الشمسيّة » (٢) .

لماذا خص رمضان بالصوم ؟

وجعل الله الصوم في رمضان ، فجعل أحدهما مقروناً بالآخر ، مرتبطاً به .
فذلك قران السعدين ، والتقاء السعادتين في حكمة التشريع ، وذلك لأن رمضان قد أنزل فيه القرآن ، فكان مطلع الصبح الصادق في ليل الإنسانية الفاسق ، فحسُن أن يُقرن هذا الشهر بالصوم ، كما يقترن طلوع الصبح الصادق بالصوم كل يوم ، وكان أحقّ شهور الله - بما خصّه الله من يُمن وسعادة وبركة ورحمة ، وبما بينه وبين القلوب الإنسانية السليمة من صلة خفيّة روحية - بأن يصام نهاره ، ويقام ليله (٣) .

(١) سورة الملك : ١٤ .

(٢) حجة الله البالغة - ج ٢ - ص ٣٧ .

(٣) يقول شيخ الإسلام احمد بن عبد الرحيم الدهلوي « إذا وجب تعيين ذلك الشهر ، فلا أحق من شهر نزل فيه القرآن ، وارتسخت فيه الملة المصطفوية ، وهو مظنة ليلة القدر » (حجة الله البالغة - ج ٢ - ص ٣٧) .

وبين الصوم والقرآن صلة متينة عميقة ، ولذلك كان رسول الله ﷺ يكثُر من القرآن في رمضان ، يقول ابن عباس رضي الله عنه : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل ، أجود بالخير من الريح المرسلة (١) » .

يقول العارف بالله ، العالم الربّاني الشيخ أحمد بن عبدالأحد السرهندي (م ١٠٣٤هـ) في بعض رسائله :

« إن لهذا الشهر مناسبة تامة بالقرآن ، وبهذه المناسبة ، كان نزوله فيه ، وكان هذا الشهر جامعاً لجميع الخيرات والبركات ، وكل خير وبركة تصل إلى الناس في طول العام ، قطرة من هذا البحر ، وإن جمعية هذا الشهر سبب لجمعية العام كله . وتشتتت البال فيه سبب للتشتت في بقية الأيام ، وفي طول العام ، فطوبى لمن مضى عليه هذا الشهر المبارك ، ورضي عنه ، وويل لمن سخط عليه ، فتنع من البركات ، وحُرم من الخيرات (٢) » .

ويقول في رسالة أخرى :

« إذا وفتق الإنسان للخيرات ، والأعمال الصالحة في هذا الشهر ، حاله التوفيق في طول السنة ، وإذا مضى هذا الشهر في توزع بال وتشتت حال ، مضى العام كله في تشتت وتشويش (٣) » .

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ ، قال : « إذا دخل

(١) حديث متفق عليه .

(٢) رسائل الإمام الرباني ، الشيخ أحمد بن عبد الأحمد السرهندي ، ج ١ - ص ٨ .

(٣) رسالة (٥) : ايضاً .

رمضان فتحت أبواب الجنّة ، وأغلقت أبواب جهنم ، وسُلست الشياطين ،
والأحاديث في الباب كثيرة .

موسم عالمي ، ومهرجان

عام ، للعبادات ، والخيرات :

وهكذا أصبح رمضان موسماً عالمياً ، للعبادة والذكر والتلاوة والورع
والزهادة ، يلتقي على صعيده المسلم الشرقي مع المسلم الغربي ، والجاهل مع العالم ،
والفقير مع الغني ، والمقصر مع المجاهد ، ففي كل بلد رمضان ، وفي كل قرية
وبادية رمضان ، وفي كل قصر وكوخ رمضان ، فلا افتيات في الرأي ، ولا
فوضى في اختيار أيام الصوم ، فكل ذي عينين ، يستشعر جلاله وجماله ، أينما
حلّ ورحل في العالم الإسلامي ، المترامي الأطراف ، تغشى سحابته النورانية
المجتمع الإسلامي كله ، فيحجم المفطر المتهاون بالصوم عن الإنشاق عن جماعة
المسلمين ، فلا يأت كل إلا متوارياً أو خجلاً ، إلا إذا كان وقحاً مستهتراً من
الملاحدة ، أو الماجنين ، أو كان من المرضى والمسافرين ، الذين أذن الله لهم في
الإفطار ، فهو صوم إجتماعي عالمي ، له جوٌّ خاص ، يسهل فيه الصوم ، وترقّ
فيه القلوب ، وتحشع فيه النفوس ، وتميل فيه إلى أنواع العبادات والطاعات ،
والبرّ والمواساة .

الجو العالمي ، وما له من تأثير في النفوس والمجتمع :

وقد لاحظ ذلك شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، بنظره الدقيق
العميق ، فقال وهو يشرح حديث : « إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة ، الخ :

« الصوم إذا جعل رسماً مشهوراً ، نفع عن غوائل الرسوم ، وإذا التزمته أمة

من الأمم ، سلسلت شياطينها ، وفتحت أبواب جناتها ، وغلقت أبواب النيران عنها (١) .

ويقول في موضع آخر :

« وأيضاً فإن اجتماع طوائف عظيمة من المسلمين على شيء واحد ، في زمان واحد ، يرى بعضهم بعضاً معونة لهم على الفعل ، ميسر عليهم ومشجع إياهم . »

« وأيضاً فإن اجتماعهم هذا لنزول البركات الملكية على خاصتهم وعامتهم ، وأدنى أن ينعكس أنوار كُملهم على من دونهم ، وتحيط دعوتهم من وراءهم (٢) »

الفضائل ، وما لها من تأثير وقوة :

إن الحياة في صراع دائم بين الشهوات الحبيبة الى النفس ، والمنافع المقررة عند العقل ، وليست الشهوات هي التي تنتصر دائماً في هذه المعركة ، كما يعتقد بعض الناس ، فذلك سوء ظن بالطبيعة البشرية ، وإنكار للواقع .

إن القوة التي تدير عجلة الحياة بسرعة ، وتفيض على هذا العالم الحياة والنشاط هي الإيمان بالنفع ، ذلك الإيمان هو الذي يوقظ الفلاح في يوم شاتٍ ، شديد البرد ، فيجرم عليه الدفء ، ويبكتر به الى الحقل ، وفي يوم صائف شديد الحر يهوت عليه وهج الشمس ولفح السموم ، ويفصل بين التاجر وأهله ، ويتوجه به إلى متجره ، ذلك الإيمان ، هو الذي يزين للجندي الموت في ساحة القتال ، وفراق الأحبة والعيال ، فلا يعدل به راحة ولا ثروة ولا نعيماً ، إن كل ذلك إيمان بالمنافع وحرص على الخير ، وهو القطب الذي تدور حوله الحياة .

(١) حجة الله البالغة - ج ١ - ص ٥٩ .

(٢) حجة الله البالغة - ج ٢ - ص ٣٧ .

وهناك إيمان أعظم سلطاناً على النفوس ، وأعمق أثراً من الإيمان الذي ضربنا له بعض الأمثال ، ذلك الإيمان بمنافع أخبر بها الأنبياء والرسل ، ونزل بها الوحي ، ونطقت بها الصحف ، وهي تنحصر في رضا الله وثوابه ، وجزائه في الدنيا والآخرة .

لقد علم الجميع ، أن الإمساك عن الطعام في بعض الأيام مفيد للصحة ، وخير للمرء أن يصوم مراراً في كل عام ، وقد أسرف الناس في الأكل والشرب ، واتَّخَمُوا بأنواع من الطعام والشراب ، فأصيبوا بأمراض جسدية وخلقية ، كل ذلك معروف ومشاهد ، وآمن الناس بفوائد الصوم الطيبة ، وآمنوا بأنه ضرورة صحية ، وآمنوا كذلك بفوائد الصوم الإقتصادية .

ولكن اذا سأل سائل ما عدد الصائمين في هذه السنة لفوائد طيبة، ومصالح إقتصادية ؟ وما عدد الأيام التي صاموها طمعا في الاعتدال في الصحة أو الإقتصاد في المعيشة ؟ كان الجواب المقرر ، انه عدد ضئيل جداً ، ضئيل حتى في الشتاء مع أن الصوم فيه سهل هين ، ورغم أن الصوم الطيب ، أو الإقتصادي أسهل بكثير من الصوم الشرعي .

ثم ننظر في عدد الصائمين الذين يصومون ، لأنهم يعتقدون أن الصوم فريضة دينية ، قد وعد الله عليه بثوابه ورضاه ، وتكفَّلَ بجزائه ، فنرى أن هذا العدد - مها طفت المادية ، وضعف الدافع الديني - عدد ضخم لا يقل عن ملايين ، وان هؤلاء الملايين من النفوس لا يمنعهم الحر الشديد في الأقاليم الحارة من أن يصوموا في النهار ، ويقوموا في الليل ، لأن الإيمان بالمنافع الدينية التي أخبر بها الأنبياء ، عند أهل الإيمان أقوى من الإيمان بالمنافع الطيبة التي أخبر بها الأطباء ، ومن الإيمان بالمنافع الإقتصادية التي لهج بها الإقتصاديون .

ذلك لأن المؤمنين سمعوا في الصوم ، ما هوّن عليهم متاعب الصوم ، وشجعهم

على احتمال الحرّ والجوع والمعطش ، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال :

« كل عمل ابن آدم يُضاعف ، الحسنة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف ، قال الله تعالى : « إلا الصوم ، فإنه لي ، وأنا أجزي به ، يدع شهوته وطعامه من أجلي ، للصائم فرحتان فرحة عند فطوره وفرحة عند لقاء ربه ، ولخلاف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ^(١) » وروى سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال : « في الجنة باب يدعى الريان ، يدعى له الصائمون ، فمن كان من الصائمين دخله ، ومن دخله لم يظمأ أبداً ^(٢) » ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً ، غفر له ما تقدم من ذنبه ^(٣) » .

العناية بروح الصوم ، وحقيقته ، ومقاصده ،

والجمع بين « السلب » و « الايجاب » :

إن صوم رمضان لهيئته الإجتماعية وشيوعه في المجتمع الإسلامي ، عرضة لأن يتغلب عليه التقليد واتّباع العادة ، وأن لا يصومه كثير من الناس ، إلا مسaire للمجتمع والبيئة ، وتقادياً من الطعن والملام ، وأن يُشار إليهم بالبنان ، ولا يرافقه الإيمان والتقصد ، والتفكير في عظم شأنه وموقعه من الله ، وأجره وثوابه ، أو يصومه بعض الناس لغايات مادية ، أو مقاصد صحية واقتصادية ، فكان من حكمة النبوة الباهرة ، وفقه الرسالة العميق ، أن اشترط النبي ﷺ للصوم المقبول عند الله الإيمان والإحتساب ، فقال : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له

(١) رواه الستة .

(٢) للشيخين .

(٣) رواه البخاري .

ما تقدم من ذنبه^(١). وقد يتساءل الرجل الذي لم يعرف دخائل النفس الإنسانية والأنماط البشرية المختلفة ، إن رمضان لا يصومه إلا المسلمون ، ولا يدعوهم إلى ذلك إلا الإيمان والإحتساب ، فلماذا قيده لسان النبوة بصفة الإيمان والإحتساب ، فهو من قبيل تحصيل الحاصل ؟ ولكن الذي توسعت دراسته للحياة ، وتعمقت معرفته للدوافع النفسية ، والعوامل الخلقية والاجتماعية ، وقف خاشعاً أمام هذه الحكمة ، والعلم الدقيق العميق ، وشهد بأنه « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى^(٢) » .

وقد جاء تفسير الإيمان والإحتساب في حديث آخر ، بأن يكون الإنسان راجياً للشواب ، مصداقاً لما وعد الله على هذا العمل بالمغفرة والرضا ، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنها ، قال : « قال رسول الله ﷺ : أربعون خصلة ، أعلاها منيحة العنز ، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها ، وتصديق موعودها ، إلا أدخله الله بها الجنة^(٣) » .

ثم إن التشريع الإسلامي لم يكتف بصورة الصوم ، بل اعتنى بحقيقته وروحه كذلك ، فلم يحرم الأكل والشرب ، والصلوات الجنسية في الصوم فحسب ، بل حرم كل ما ينافي مقاصد الصوم وغاياته ، وكل ما يضيع حكمته وفوائده الروحية والخلقية ، فأحاط الصوم بسياج من التقوى والأدب وعفة اللسان والنفس ، فقال النبي ﷺ : « إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ، ولا يصخب ، وإن سابه أحد ، أو قاتله ، فليقل إني صائم^(٤) » وقال : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه^(٥) » ، وذكر أن

(١) حديث متفق عليه .

(٢) سورة النجم : ٣ - ٤ .

(٣) رواه البخاري .

(٤) متفق عليه .

(٥) للبخاري ، وابي داود ، والترمذي .

الصوم الذي يخلو من روح التقوى والعفاف صورة مجردة من الحقيقة ، وجسم بلا روح ، فقال : « كم من صائم ليس له من صيامه الا الظمأ ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا الصهر (١) » ، وعن ابي عبيدة رفعه ، قال : « الصوم جنسة ما لم يخرقها (٢) » .

وليس الصوم الإسلامي مجموعة من أمور سلبية فقط ، فلا أكل ولا شرب ، ولا غيبة ولا نومة ، ولا رفث ولا فسوق ولا جدال ، بل هو مجموع أمور إيجابية كذلك ، فهو زمن العبادة والتلاوة والذكر والتسبيح ، والبرّ والمواساة ، وقد قال النبي ﷺ : « من تقرّب فيه بخصلة من الخير ، كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدى فريضة فيه ، كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ، وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة ، وشهر المواساة (٣) » . وعن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « من فطّر صائماً كان له مثل أجره ، غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيء (٤) » .

وأهم الله الأمة المحافظة على صلاة التراويح ، التي ثبت أصلها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد تركها بعد ثلاثة أيام ، لثلاثا تفرض على أمته فرضاً فتشقق عليها ، فقد زوى ابن شهاب ، قال : أخبرني عروة أن عائشة رضي الله عنها أخبرته : « أن رسول الله ﷺ ، خرج ليلة من جوف الليل فصلى في المسجد ، وصلى رجالٌ بصلاته ، فأصبح الناس فتحدثوا فاجتمع أكثر منهم فصلى فصلتوا معه فأصبح الناس فتحدثوا ، فكثرت أهل المسجد من الليلة

(١) رواه الدارمي في سننه ، عن ابي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه النسائي ، وزاد في الأوسط « قيل بم يخرقها ؟ قال : بكذب أو غيبة .

(٣) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » عن سلمان الفارسي رضي الله عنه (في حديث

طويل) .

(٤) رواه الترمذي .

الثالثة ، فخرج رسول الله ﷺ فصلي فصلوا بصلاته ، فلما كانت الليلة الرابعة ، عجز المسجد عن أهله ، حتى خرج لصلاة الصبح ، فلما قضى الفجر أقبل على الناس ، فتشهد ، ثم قال : أما بعد ، فإنه لم يخف عليّ مكانكم ، ولكنني خشيت أن تُفرض عليكم فتعجزوا عنها ، فتوفي رسول الله ﷺ ، والأمر على ذلك (١) .

وقد قام بها الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وعضت عليها الأمة بالنواجذ في أعصارها وأمصارها ، حتى أصبحت شعاراً لأهل السنة ، والصالحين من الأمة ، وكان للتراويح فضل كبير في شيوع حفظ القرآن في الأمة (٢) ، ومحافظتها عليه ، وبقائه في الصدور ، وفضل كبير في توفيق العامة والجمهير لقيام الليل والعبادة .

وبذلك كثر أصبح شهر رمضان (مهرجاناً) للعبادة ، وموسماً للتلاوة ، وربيع الأبرار والمتقين ، وعيد العبّاد والصالحين ، تتجلى فيه عناية هذه الأمة بإقامة أحكام دينها وغرامها بالعبادة (٣) ، وإخباتها إلى الله ، ورقة القلوب ،

(١) رواه البخاري ، في « باب فضل من قام رمضان » .

(٢) وقد أكرم الله بعض الأقطار الإسلامية البعيدة عن مهد الاسلام « كالفند وباكستان » بالناية الزائدة بهذه الصلاة وختم القرآن فيها ، يهتم بها العامة والخاصة ، ويحرصون عليها كل الحرص ، فما من مسجد صغير شامل في كل حي من الأحياء ، الا وتقام فيه صلاة التراويح ، وتختم فيها على الأقل ختمة ، أما المساجد الكبيرة ، والأحياء المدنية ، فتختم فيها عدة ختمات ، ولا شك ان هذه السنة قد افادت انتشار حفظ القرآن في الشعب ، فكثرت عدد الحفاظ كثرة تستدعي العجب ، وحملت على الاحتفاظ بحفظ القرآن ، ومدارسته طول السنة ، حتى كان حفاظ فحول ، برعوا رفاقوا في حفظه وإتقانه .

(٣) ان مما توارثته الأجيال الاسلامية في مختلف عصورها، هو الإكثار من العبادة، وأنواع ←

والتنافس في البرّ والمواصلة في أروع مظاهره ، لا تبلغه ، ولا تبلغ عشر معشاره
أمة من الأمم ، أو طائفة من طوائف بني آدم ، ذلك فضل الله يؤتيه من
يشاء والله ذو الفضل العظيم (١) .

تفريط المسلمين في مقاصد الصوم ، وجناية العادات على العبادات :

ولكن المسلمين قد جنوا في كثير من الأحيان على أنفسهم ، وعلى مقاصد الصوم
وفوائده بالعادات التي يبتدعونها ، ويجهلهم وإسرافهم في الإفطار والطعام ،
الإسراف الذي يُفقد الصوم الشيء الكثير من فائدته وقوته الإصلاحية
والتربوية ، وقد لاحظ ذلك بدقة حجة الإسلام الغزالي وتحدث عنها ببلاغة ،
يقول رحمه الله :

« الأدب الخامس » ، أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار ، بحيث
يمتلئ جوفه ، فما من وعاء ، أبغض إلى الله عز وجل من بطن مليء من حلال ،
وكيف يستفاد من الصوم ، قهر عدو الله ، وكسر الشهوة ، إذا تدارك الصائم

→ البر ، والتقرب الى الله في رمضان ، والإكثار من التلاوة ، وتدارس القرآن وختمه ،
والتنافس فيه والجهاد ، الى حد لا يكاد يصدق من لم يعرف قوة إرادة أهل الإيمان
والصدق ، وما تصنع الروحانية القوية من عجائب وخوارق ، وعلى ذلك ، أدركنا
العلماء الربانيين ، والدعاة المخلصين في بلادنا ، وشاهدنا حالهم ، فإن بعضهم يختم كل يوم
ختمه ، ولا تكتحل عينه بنوم في الليل ، هذا مع تقليل زائد من الطعام ، فيفتنمون
كل لحظة من اللحظات في هذا الشهر المبارك ، وكل نفس من الأنفاس ، فلا ينفقونه إلا
فيا يقربهم الى الله ، ويزيد في قيمة رمضان ، ووزنه في الميزان ، وإذا رآهم الإنسان ،
عرف قيمة رمضان وكرامته ، وعرف قيمة الحياة ، وصدق ما روي في كتب التاريخ
والتراجم عن عبادة السلف ، والمتقدمين ، وعلو همتهم وقوة إرادتهم .
(١) سورة الجمعة : ٤ .

عند فطره ، ما فاته ضحوة نهاره، وربما يزيد عليه في ألوان الطعام، حتى استمرت العادات ، بأن تدخر جميع الأطعمة لرمضان ، فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل في عدة أشهر ، ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء ، وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى ، وإذا دفعت المعدة من ضحوة نهار الى العشاء ، حتى هاجت شهوتها ، وقويت رغبتها ، ثم أطعمت من اللذات ، وأشبع ، زادت لذتها ، وتضاعفت قوتها ، وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راکدة ، لو تركت على عادتها ، فروح الصوم وسرّه ، تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود الى الشرور ، ولن يحصل ذلك الا بالتقليل ، وهو أن يأكل أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم ، فأما اذا جمع ما كان يأكل ضحوة الى ما كان يأكل ليلا فلم ينتفع بصومه .

بل من الآداب أن لا يكثر النوم بالنهار ، حتى يحس بالجوع والعطش ، ويستشعر ضعف القوى ، فيصفو عند ذلك قلبه ، وليستدبر كل ليلة قدراً من الضعف ، حتى يخف عليه تهجده وأوراده ، فعسى الشيطان أن لا يحوم على قلبه فينظر الى ملكوت السماء (١) .

الصيانة من التجريف والغلو :

كان رمضان مظنة للغلو ، والتعمق في الدين ، فقد يفهم كثير من الناس أن موضوعه وغايته قهر النفس ، وترويضها على ترك الشهوات والرغبات ، وإجهادها الى أقصى حد ممكن ، فكلمها أمعن الإنسان في إجهادها وقهرها، وكلما طالت الفترة في الأكل والشرب والتمتع ، وطالت مدة الجوع والظم ، وكلما أظهر الصبر والإحتمال، كان أقرب الى الله وأحب اليه ، وأبعد عن المترفين المترفين والمتنعمين المتمتعين ، وأدخل في غمار المتقين الصابرين .

(١) احياء العلوم - ص ٢١١ .

وهذا الفهم الخاطيء السطحي، هو الذي زين لكثير من المتدينين والمتقشفين في الأمم السابقة، والديانات القديمة، الغلو في العبادات عامة، وفي الصوم خاصة، فأطالوا مدة الإمساك عن الطعام والشراب، وأخروا الفطور، وعجلوا السحور، أو تخرجوا عن التسحر مطلقاً، ورأوه عجزاً في الدين، وضعفاً في الصائمين، أو وصلوا الصوم بالصوم، والليل بالنهار، وقلّدهم في ذلك غلاة المسلمين، والطوائف المبتدعة المتشددة، فكان كل ذلك تحريفاً في الدين، وجهاداً في غير جهاد، ورهبانية ابتدعوها، وباباً واسعاً لفساد شامل، وتحدياً لقول الله تعالى: «يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ»^(١) وقوله: «وما جعل عليكم في الدين من حرج»^(٢) وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الدين يسر، ولن يشاد هذا الدين أحد الا غلبه فسددوا وقاربوا»^(٣).

لذلك كله سدّت الشريعة الإلهية الأخيرة الخالدة هذا الباب، فحسّت على السحور أولاً، ورغب فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واستحبه، وجعله سنة للمسلمين، فقد روى أنس بن مالك عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «تسحروا فإن في السحور بركة»^(٤) وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه، ان رسول الله ﷺ، قال: «فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر»^(٥) وحذّر عن تأخير الفطر، وجعل التأخير فيه آية للفساد، والوقوع في الفتن، وشعاراً لغلاة أهل الكتاب، فعن سهل بن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر»^(٦) وعن أبي هريرة رضي الله عنه

(١) سورة البقرة: ١٨٥.

(٢) سورة الحج: ٨٧.

(٣) رواه البخاري «في كتاب الإيمان» عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) للشيخين والترمذي والنسائي.

(٥) رواه مسلم.

(٦) للشيخين، والموطأ، والترمذي.

رفعه ، قال : « لا يزال الدين ظاهراً ما عجّل الناس الفطر ، لأن اليهود والنصارى يؤخرون (١) » ، وكذلك كان من سنته وسنة أصحابه تأخير السحور . فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه ، قال : « تسحرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قمنا إلى الصلاة ، قيل : كم كان بينهما ؟ قال ! خمسون آية (٢) » وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : كان لرسول الله ﷺ مؤذنان : بلال ، وابن أم مكتوم ، فقال رسول الله ﷺ : « إن بلالاً يؤذن بابل فكلوا واشربوا ، حتى يؤذن ابن أم مكتوم » ، قال : ولم يكن بينهما ، إلا أن ينزل هذا ، ويرقى هذا (٣) .

وقد بسط شيخ الإسلام احمد بن عبد الرحيم الدهلوي الكلام في هذا الموضوع فذكر عناية الشريعة الإسلامية ، والسنة النبوية ، بهذا الجانب الإصلاحي في علم جم ، وفقه دقيق ، فقال :

« إن من المقاصد المهمة في باب الصوم سد ذرائع التعمق ، ورد ما أحدثه فيه المتعمقون ، فإن هذه الطاعة كانت شائعة في اليهود والنصارى ومتحشني العرب ، ولما رأوا أن أصل الصوم هو قهر النفس تعمقوا ، وابتدعوا أشياء فيها زيادة القهر ، وفي ذلك تحريف دين الله .

وهو إما بزيادة السم أو الكيف ، فمن السم ، قوله ﷺ : « لا يتقدم أحدكم رمضان بصوم يوم أو يومين ، إلا أن يكون رجل كان يصوم يوماً ، فليصم ذلك اليوم ، ونهيه عن صوم يوم الفطر ويوم الشك ، وذلك لأنه ليس بين هذه وبين رمضان فصل ، فلعله إن أخذ ذلك المتعمقون سنة ، فيدركه منهم الطبقة الأخرى ، وهلم جراً ، يكون تحريفاً ، وأصل التعمق أن يؤخذ موضع الإحتياط لازماً ، ومنه يوم الشك .

(١) لأبي داود .

(٢) متفق عليه .

(٣) حديث متفق عليه .

ومن الكيف : النهي عن الوصال ، والترغيب في السحور ، والأمر بتأخيرهِ وتقديم الفطر ، فكل ذلك تشدّد وتممّق من صنع الجاهلية (١) .

والصوم كله خضوع للأمر الإلهي ، فلا أكل ولا شرب ، ولا متعة بما حُظر على الصائم بعد تبيّث الحيط الأبيض من الحيط الأسود من الفجر الى غروب الشمس ، مها جمحت النفس ، وطفّت شهوة الطعام والشراب ، ولا إمساك عن الطعام والشراب وما حُظر في النهار ، بعد غروب الشمس ، مها جمحت طينعة الزهد والنسك ، فليس الحكم للنفس والشهوة والعادة ، إنما الحكم لله ، ولا تجلد مع الله ، ولا مصارعة مع الدين ، وكلّما كان الصائم متجرّداً عن هواه ، منقاداً للحكم ، مستسلماً لقضاء الله تعالى وشريعته ، كان أصدق في العبودية ، وأبعد عن الأنانية ، وقد أحسن العارف الكبير ، والمصلح العظيم ، الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي ، في الإشارة إلى هذه النكتة ، إذ قال في إحدى رسائله :

« يتجلّى في تأخير التسحّر ، وتعجيل الإفطار ، عجز الصائم وحاجته ، وهو ملائم للعبودية محقّق لغرضها (٢) » .

الاعتكاف :

والإعتكاف في رمضان متمّم لفوائده ومقاصده ، متدارك لما فات الصائم ، من جمعية القلب ، وهدوء النفس ، واجتماع الهمم ، والإنقطاع الى الله تعالى بالقلب والقالب ، وحقيقته الفرار الى الله ، والإطراح على عتبة عبوديته ، والإرتقاء في أحضان رحمته ، يقول العلامة ابن القيم رحمه الله :

« شرع لهم الإعتكاف الذي مقصوده وروحه ، عكوف القلب على الله »

(١) حجة الله البالغة - ج ٢ - ص ٣٩ .
(٢) الرسالة الخامسة والأربعون « مجموع الرسائل » .

تعالى ، وجميته عليه ، والخلو به ، والإنقطاع عن الإشتغال بالخلق ، والإشتغال به وحده سبحانه ، بحيث يصير ذكره وجهه ، والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته ، فيستولي عليه بدلها ، ويصير أهم به كله والخطرات كلها بذكره ، والفكرة في تحصيل مرضيه ، وما يقرب منه ، فيصير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلق ، فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور ، حين لا أنيس له ، ولا ما يفرح به سواه ، فهذا مقصود الإعتكاف في أفضل أيام الصوم ، وهو العشر الأخير من رمضان (١) .

ويقول شيخ الإسلام الدهلوي رحمة الله عليه :

« ولما كان الإعتكاف في المسجد سبباً لجمع الخاطر ، وصفاء القلب ، والتفرغ للطاعة ، والتشبه بالملائكة ، والتعرض لوجدان ليلة القدر ، اختاره النبي ﷺ في العشر الأواخر ، و سنته للمحسنين من أمته (٢) . »

لذلك داوم عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، وحافظ عليه المسلمون في كل جيل ، وفي كل عصر ومصر (٣) وأصبح من السنن المأثورة ومن شعائر رمضان ، فمن عائشة رضي الله تعالى عنها : « أن النبي ﷺ ، كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى ، ثم اعتكف أزواجه ، من بعده (٤) . » وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : « كان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوماً (٥) . »

(١) زاد المعاد - ص ١٦٨ .

(٢) حجة الله البالغة - ج ٢ - ص ٤٢ .

(٣) الإعتكاف في أكثر المذاهب سنة ، وليس بواجب إجماعاً . وعند الحنفية سنة مؤكدة في العشر الأخير من رمضان ، سنة كفاية كما في البرهان وغيره .

(٤) حديث متفق عليه .

(٥) رواء البخاري .

ليلة القدر :

ونوره القرآن والسنة - في قوة وتكرار - بفضل ليلة القدر ، فقال الله تعالى : « إننا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام ، هي حتى مطلع الفجر (١) » ، وقال النبي ﷺ : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً ، غُفر له ما تقدم من ذنبه (٢) » .

وكان من حكمة الله تعالى ، ورحمته بعباده ، أن جعلها غامضة مُبهمة في العشر الأواخر من رمضان ، ليتحرّرها المسلمون ، وتعلو هممتهم ، ويشتدّ طلبهم ، ويُخَيِّبُوا الليالي الأخيرة كلّها بقيام وعبادة ودعاء ، كما كان شأن النبي ﷺ ، فقد روت عنه عائشة رضي الله عنها ، قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان ، أحيى الليل كله وأيقظ أهله ، وجدّ وشدّ المنزراً (٣) » ، وعنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره ، وفي العشر الأواخر منه ما لا يجتهد في غيره (٤) » .

وقد تضافرت الأحاديث والأخبار ، على أنها في العشر الأواخر ، والسبع الأواخر من رمضان ، وأنها في الوتر من الليالي ، فمن ابن عمر رضي الله عنهما : « أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر ، فقال رسول الله ﷺ : « أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر ، فمن كان متحرّجاً فليتحرّجها في السبع الأواخر (٥) » . وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت :

- (١) سورة القدر .
- (٢) حديث متفق عليه .
- (٣) حديث متفق عليه .
- (٤) رواه مسلم .
- (٥) حديث متفق عليه .

« كان رسول الله ﷺ ، يجاور في العشر الأواخر من رمضان ، ويقول : تحرّوا ليلة القدر في العشر الأواخر في رمضان (١) » وعنهما رضي الله عنها : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تحرّوا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان (٢) » .

وقد بحث في ليلة القدر شيخ الاسلام الدهلوي في كتابه « حجة الله البالغة » بحثاً مزوجاً بعلمٍ بالكتاب والسنة ، وبوجدان وتجربة ، فقال :

« واعلم أن ليلة القدر ليلتان ، إحداهما ، ليلة فيها يُفترق كل أمر حكيم ، وفيها نزل القرآن جملة واحدة ، ثم نزل بعد ذلك نجماً نجماً ، وهي ليلة في السنة ، ولا يجب أن تكون في رمضان ، نعم ، رمضان مظنة غالبية لها ، واتفق أنها كانت في رمضان عند نزول القرآن .

والثانية ، يكون فيها نوع من انتشار الروحانية ، وجميئة الملائكة إلى الأرض ، فيتفق المسلمون فيها على الطاعات ، فتعكس أنوارهم فيما بينهم ، ويتقرب منهم الملائكة ، ويتباعد منهم الشياطين ، ويستجاب منهم أديعتهم وطاعاتهم ، وهي ليلة في كل رمضان في أوتار العشر الأواخر تتقدم وتتأخر فيها ، ولا تخرج منها ، فمن قصد الأولى ، قال ، هي في كل السنة ، ومن قصد الثانية ، قال هي في العشر الأواخر من رمضان . وقال رسول الله ﷺ : أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر ، فمن كان متحرّياً فليتحرّها في السبع الأواخر . وقال : أريت هذه الليلة ، ثم أنسيتها ، وقد رأيتني أسجد في ماء وطين ، فكان ذلك في ليلة إحدى وعشرين ، واختلاف الصحابة (رضوان الله

(٦) حديث متفق عليه .

(٧) رواه البخاري .

عليهم) فيها مبني على اختلافهم في وجدانها (١) .

دور الإسلام الاصلاحى

في تشريع الصوم :

قام الإسلام بنفس الدور الإصلاحي ، الذي قام به في جميع العبادات والفرائض ، والمناسك ، وكان إصلاحاً جذرياً ، في مفهوم الصوم وآدابه وأحكامه ، ووضعه ، جعله أعظم يسراً وسهولة ، وقرباً الى الفطرة السليمة ، وأضمن بالفوائد الروحية والإجتماعية ، وأعمق تأثيراً في النفس والمجتمع .

فمن إصلاحاته الكثيرة المتنوعة ، هو التحويل في مفهوم الصوم ، فقد كان رمزاً للحداد والحزن ، وتذكيراً للكوارث والمآسي ، في الديانة اليهودية ، كما أسلفنا ، فحوّله الإسلام من هذا المفهوم القاتم ، الذي يغلب عليه التشاؤم ، الى مفهوم منشط مشرق تغلب عليه روح التفاؤل ، وجعله عبادة عامة ، يتمتع فيها الصائم بالنشاط والفرح ، ويستبشر بما وعده الله تعالى ، وثوابه الجزيل ، ورضاه ، ووردت الآيات والأحاديث المبشرة بالثواب ، المتضمنة بالفرح الطبيعي ، تأثير في الصائم هذا الشعور وهذه الثقة ، فقد جاء في حديث قدسي : « إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به (٢) » وورد في هذا الحديث : « للصائم فرحتان : فرحة عند فطوره ، وفرحة عند لقاء ربه (٣) » . وقد أحاط الصائم بجو من السمو ، والحظوة ، والمكانة عند الله تعالى ، فقال : « لخلوف فيه أطيب عند الله من ربح المسك (٤) » وذلك جو يخالف جو الحداد والمآتم والحزن والتشاؤم .

(١) حجة الله البالغة - ج ٢ - ص ٤١ - ٤٢ .

(٢) رواه الستة .

(٣) رواه الستة عن ابي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم .

(٤) ايضاً .

وقد كان الصوم عند اليهود مرادفاً لتذليل النفس والمعقوبة ، وقد شاع هذا التعبير في أسفارهم وصحفهم ، فقد جاء في اللاويين أو سفر الأحبار :

« ويكون لكم فريضة دهرية أنكم في الشهر السابع في عاشر الشهر ، تذللون نفوسكم وكل عمل لا تعملون ، الوطني والغريب النازل في وسطكم ، لأنه في هذا اليوم يكفّر عنكم لتطهيركم من جميع خطاياكم ، أمام الرب تطهرون^(١) . وجاء في موضع آخر :

« وكلم الرب موسى قائلاً ، أما العاشر من هذا الشهر السابع ، فهو يوم الكفارة ، محفلاً مقدساً ، يكون لكم ، تذللون نفوسكم وتقرّبون وقوداً للرب ، عملاً ما لا تعملوا في هذا اليوم عينه . لأنه يوم كفارة للتكفير عنكم امام الرب إلهكم^(٢) . »

وجاء في سفر العدد :

« وفي عاشر هذا الشهر السابع ، يكون لكم محفل مقدس ، وتذللون أنفسكم ، عملاً ما لا تعملوا^(٣) . »

أمّا الشريعة الإسلامية ، فلم تعتبر الصوم إيلاًماً للنفس ، ولا عقوبة من الله ، ولم ترد في القرآن ، ولا في السنة كلمة تدل على ذلك ، بل اعتبرته عبادة ، يتقرب بها العبد الى الله ، ولم تشرع من الأحكام الغليظة المحجفة ، ومن القيود القاسية العنيفة ، ما تجعله مرادفاً لتعذيب النفس وإرهاقها ، وحملها على ما لا طاقة لها به ، بل سنتت التسحر ، واستحببت تأخيره : الى أن يتبين الخيط الأبيض

(١) اللاويين - الاصحاح السادس عشر (٢٩ - ٣٠ - ٣١) الكتاب المقدس ، اي كتب

العهد القديم ، والعهد الجديد « ترجمة مرسي الجمعية الامريكانية » « طبع نيويورك » .

(٢) اللاويين - الاصحاح الثالث والعشرون (٢٦ - ٢٧ - ٢٨) .

(٣) سفر العدد - الاصحاح التاسع والعشرون (٧) .

من الخيط الأسود من الفجر ، وسنّت تمجيل الفطور ، وأباحّت النوم والراحة في الليل والنهار ، والإشتغال بالصناعة والتجارة ، والأعمال المفيدة المباحة ، خلافاً لليهودية ، التي فرضت الإضراب عن العمل ، والإنقطاع الى العبادة .

وكانت الصوم في كثير من الديانات القديمة - ولا يزال - مختصاً بطبقة دون طبقة ، فكان في الديانة البرهمية ، فريضة على البراهمة في أكثر الأحيان ، وعند الجوس على العلماء والكهنوت (دستور) ، وعند اليونان بالإناث دون الذكور .

أما الاسلام ، فقد عمّم وأطلق . فنزل : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه (١) » ، ويحانب هذا التخصيص ، الذي عُرِفَت به الديانات القديمة ، لم تستثنِ المعدورين ، أما الاسلام فقد استثنى اصحاب العذر ، وقال الله تعالى : « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر (٢) » ، وقال : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين (٣) » .

وقد كان في بعض الديانات جوع أربعين يوماً ، لا يتناول فيها الصائم غذاءً ، وبالعكس من ذلك توسّعت بعض الديانات توسعاً زائداً ، فاقترنت على تحريم تناول اللحوم ، وأباحت الفواكه والمشروبات ، أما الاسلام ، فقد جاء تشريعه وسطاً بين الشدة والرقّة ، وبين الإرهاق والاطلاق ، فجاء صومه صوماً متزناً عادلاً ، ليس فيه تعذيب أبدان ، ولا إزهاق ارواح ، وليس فيه كذلك إرخاء عنان ، ولا تسريح في روح وريحان .

وكان اليهود يقتصرون على ما يأكلونه عند الفطر ، ثم لا يعودون الى أكل

-
- (١) سورة البقرة : ١٨٥ .
 - (٢) سورة البقرة : ١٨٤ .
 - (٣) سورة البقرة : ١٨٤ .

او تمتع . اما العرب فكلوا لا يأكلون ولا يتمتعون بالمباحات ، اذا ناموا . أما الاسلام فقد النعى هذه القيود كلها ، ونزل القرآن : « واكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر (١) » ، وكذلك عُنِي عن الخطأ والنسيان (٢) ، وكذلك لا يُفسد الصوم افعال اضطرارية : كالقيء والرّعاف ، والإحتلام (٣) خلافاً لبعض الديانات .

وكان الصوم في اكثر الديانات القديمة مضبوطاً بالشهور الشمسية ، وكان ذلك يحتاج الى العلوم الرياضية والفلكية ، والى وضع التقاويم ، ثم كانت تلك الأيام مستقرة دائماً في فصول خاصة ، لا تدور ولا تنتقل .

أما الصوم الاسلامي فهو مضبوط بالشهور القمرية ، ومربوط بالهلال (٤) فقد جاء في القرآن : « يسألونك عن الأهلة : قل هي مواقيت للناس والحج (٥) » وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تصوموا قبل رمضان ، صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فان حالت دونه غيابة ، فأكملوا ثلاثين يوماً (٦) » . وجاء في حديث آخر : « لا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه ، فإن غمّ

(١) سورة البقرة : ١٨٧ .

(٢) عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . من أكل وشرب ناسياً فلا يفطر ، فانما هو رزق رزقه الله » (رواه الترمذي) ورواه الشيخان ولفظها : « من نسي وهو صائم فأكل وشرب فليتم صومه فانما اطعمه الله وسقاه » .

(٣) عن ابي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث لا يفطرن الصائم الحجامة ، والقيء ، والإحتلام (رواه الترمذي) .

(٤) والمعتبر في الشريعة الاسلامية ، شهود الهلال ، لا وجوده . فلا يحتاج الى تكلفات رياضية وصناعية يهتدى بها الى وجوده . كما يلجأ الى ذلك بهض البلاد والحكومات الاسلامية . وعلى ذلك يدل الحديث الصحيح « صوموا لرؤيته ، وافطروا لرؤيته . وفي المسئلة بحث علمي طويل .

(٥) سورة البقرة : ١٨٩ .

(٦) رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه .

عليكم فاقدروا له (١) ، فاستطاع المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، وفي البوادي وقلل الجبال وفي الدور الميمن في البداوة والأمية ، وفي أمكنة منقطعة موعلة في الغابات والأجام ، أن يبدأوا الصوم ويحتموه من غير مشقة ، وتكلف ، وبمجت علمي عميق ، وكانت فائدته كذلك ، أن رمضان يدور في فصول مختلفة ، من شتاء وصيف ، فلا يكلف المسلمون بالصوم في حر لافح ، وفي قبيظ شديد ، ولا في برد قارس وشتاء كالح ، دائماً وفي كل سنة ، فيتمتعون بتغيير الفصول واختلاف الطقوس ، ويتعودون كل ذلك ، وهم في كل ذلك صابرون محتسبون ، أو شاكرون حامدون (٢) .

ومن عرف أوضاع الصوم ، ومناهجه ، في الأمم القديمة ، والديانات المعاصرة ، ودرس تاريخها وفلسفتها ، وشاهد أحوال الصائمين فيها - على قلتهم وتشتت أحوالهم - وقارن ذلك بالصوم الاسلامي ، ووضعه ومنهجه ، وفقهه وآدابه ، وأكرمه الله بالدخول في هذه الأمة المسلمة ، والعمل بالشريعة الاسلامية السمحة ، نطق لسانه بالحمد والثناء ، والشكر على نعمة الاسلام ، وكان حقيقياً بأن يقول وهو صائم :

« الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق (٣) » .

-
- (١) رواه الستة الا الترمذي .
(٢) استندنا في هذا الفصل من كتاب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، للاستاذ العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله (المجلد الخامس) .
(٣) سورة الأعراف : ٤٣ .

ج

الحج

« وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً ، وعلى كل ضامر
يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم
الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ،
فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا نفوسهم
وليوفوا نذرهم وليطوفوا بالبيت العتيق (١) » .

الاسلام دين توحيد وتجريد ،
لا وساطة فيه ، ولا تمثيل :

الاسلام دين توحيد خالص ، دين لا يؤمن بالوساطة بين العبد وربّه (٢) ، ولا
بمشهود محسوس يركز عليه الإنسان تفكيره ، ويصرف اليه همه ، ليتخيل به
الإله الذي لا تدركه الأبصار ، ويرتبط به في خياله ، ويتمسك بأذياله ، فلا
وسائط ولا مظاهر ، ولا صور ولا أصنام ، ولا هياكل ولا طبقة كهات ولا
سدنة ، « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداع إذا
دعان ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون (٣) » ، فاعبد الله مخلصاً له

(١) سورة الحج : آية : (٢٧ - ٢٨ - ٢٩) .

(٢) الا الرسل والأنبياء ، بمعنى انهم واسطة بين الخالق والخلق في تبليغ الرسالة ، والتعريف
بالله وصفاته ، وما يليق به ، وما لا يليق ، والارشاد الى الطريق المستقيم .

(٣) سورة البقرة آية : ١٨٦ .

الدين ، ألا الله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ، ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى (١) .

إذا فالإسلام دين يطلب تجرّداً في الخيال ، وسمواً في الفكر ، ونقاءً في الإرادة والنية ، وإخلاصاً في العمل والتطبيق ، وانقطاعاً عن الغير ، لا يتصور فوقه وأكثر منه ، ومستوى في الفكر والمعقيدة ، لم تبلغ الإنسانية ولا الأديان والفلسفات ، والنظم الدينية أو العقلية الى مثله او قريب منه ، وقد وصف الله نفسه بما لا مزيد عليه في الدقّة والسمو ، فقال : « ليس كمثل شيء ، وهو السميع البصير (٢) » .

حاجة الانسان الى « مشاهد » يوجه اليه

أشواقه ، ويحقق رغبته من التعظيم والدنو :

ولكن الفطرة البشرية ، هي الفطرة البشرية ، فالإنسان ما زال - ولا يزال - باحثاً عن شيء يراه بعينه ، فيوجهه إليه أشواقه ، ويقضي به حنينه ، ويشبع به رغبته الملحة ، في التعظيم والدنو .

شعائر الله وحكمتها :

وقد اختار الله أموراً ظاهرة محسوسة ، اختصت به ، ونسبت اليه ، وتجلت عليها رحمته ، وحفتها عنايته بحيث إذا رؤيت ذكر الله ، وارتبطت بها وقائع وحوادث ، وأفعال وأحوال تذكر بأيام الله وآلائه ، ودينه وتوحيده ، وحسن بلاء أنبيائه ، وسمّاها « شعائر الله » (٣) التي جعل تعظيمها تعظيمه ، والتفريط في

(١) سورة الزمر آية : ٢ - ٣ .

(٢) سورة الشورى آية : ١١ .

(٣) اقرأ البحث اللطيف في ذلك ، في حجة الله البالغة ، لحكيم الاسلام احمد بن عبدالرحيم

الدهلوي (ج ١ - ص ٥٥) .

جنبها تفريطاً في جنبه ، وسمح للناس أن يقضوا بها حنينهم الكامن في نفوسهم ، ورغبتهم الفطرية في الدنو والمشاهدة ، بل حتّى على ذلك ، ودعا اليه فقال : « ذلك ، ومن يعظّم شعائر الله ، فإنها من تقوى القلوب »^(١) ، وقال : « ذلك ، ومن يعظّم حرّامات الله فهو خير له عند ربه »^(٢) .

عنصر الهيام والحنان ، في طبيعة الانسان ،
أثرهما في الحياة ، ومنزلتها من الدين :

ثم إن الإنسان ، ليس عقلاً مجرداً ، ولا كائناً جامداً يخضع لقانون ، أو إرادة قاسرة ، ولا جهازاً حديدياً يتحرك ويسير تحت قانون معلوم ، أو على خط مرسوم ، إن الإنسان عقل وقلب ، وإيمان وعاطفة ، وطاعة وخضوع ، وهيام وولع ، وحب وحنان ، وفي ذلك سرّ عظمته وشرفه وكرامته ، وفي ذلك سرّ قوته وعبقريته وإبداعه ، وسرّ تفانيه وتضحيته ، وبذلك استطاع أن يتغلب على كل معضلة ومشكلة ، وأن يصنع المعجائب والخوارق ، واستحقّ أن يحمل أمانة الله التي اعتذرت عنها السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها وحملها الإنسان ، ووصل الى ما لم يصل اليه ملك مقرب ، ولا حيوان ولا نبات ولا جماد .

إن صلة هذا الإنسان بربه ، ليست صلة قانونية ، عقلية فحسب ، يقوم بواجباته ويدفع ضرائبه ، ويخضع أمامه ، ويطيع أوامره وأحكامه ، إنما هي صلة حبّ وعاطفة كذلك ، صلة لا بد أن يرافقها ، ويقترن بها ، ويتحكّم فيها حنان وشوق ، وهيام ولوعة ، وتفان وتهالك ، والدين لا يمنع من ذلك ، بل يدعو اليه ، ويغذيه ويقويه ، فتارة يقول القرآن : « والذين آمنوا أشدّ حبّاً

(١) سورة الحج : ٣٢ .

(٢) سورة الحج : ٣٠ .

الله^(١) ، وتارة يقول : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فترفصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين^(٢) » ، ويذكر أنبياء رسله ، وينوّه بحبهم وحنانهم ، ويحدث عن أشواقهم وتفانيهم في هذا الحب^(٣) ، فيقول عن يحيى (عليه السلام) : « وآتيناه الحكم صبياً ، وحناناً من لدنا وزكاة ، وكان تقياً^(٤) » ، ويحكي قصة خليله ابراهيم كيف آثر حب الله وطاعته على حب ولده ، وفلذة كبده ، وكيف وضع السكين على حلقومه ، وحاول ذبحه حتى شهد ربّه بصدقه وحسن بلائه ، وقال : « يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا ، إننا كذلك نجزي المحسنين إن هذا هو البلاء المبين^(٥) » ولذلك قال في وصف ابراهيم : « إن ابراهيم لحليم أواه منيب^(٦) » .

« الصفات » هي التي تثير الحب ، وتبعث الحنان ،

لذلك أطال وأكثر من ذكرها القرآن :

وذلك سر إطالة القرآن في ذكر صفات الله وأفعاله ، وآلائه ونعمائه ، وإشادته بها ، والعودة إليها مرة بعد مرة ، فإن الصفات ، هي التي تثير الحب وتبعث الحنان ، وتوجد الأشواق ، وذلك سر تفصيل القرآن الذي يعبر عنه بعض علماء الكلام وأئمة الإسلام ، « بالنفي الجمل والإثبات المفصل^(٦) » فإن الإثبات هو الذي ينبع منه الحب ، ويفيض منه الحنان ، وتبعث به الأشواق ،

(١) سورة البقرة : ١٦٥ .

(٢) سورة التوبة : ٢٤ .

(٣) سورة مريم : ١٢ - ١٣ .

(٤) سورة الصافات : ١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٦ .

(٥) سورة هود : ٧٥ .

(٦) التعبير لشيخ الاسلام ابن تيمية .

وتتغذى به العاطفة ، فإذا كان النفي رائد العقل ، كان الإثبات رائد القلب ، ولولا هذه الصفات العليسا وأسماء الله الحسنى ، التي نطق بها القرآن ، ووردت بها السنة ، وهام بها الهائمون ، وتغنسى بها العارفون ، وسبّح بها المسبّحون ، وسبح في بحارها ، ونزل في أعماقها الغوّاصون ، لكان هذا الدين خشيباً جامداً ، لا يملك على أتباعه قلباً ، ولا يثير فيهم عاطفة ، ولا يبعث فيهم حماسة ، ولا يحدث في القلب رقة ، ولا في الصلاة خشوعاً ، ولا في العين دموعاً ، ولا في الدعاء ابتهالاً ، ولا في الجهاد تفاعلاً ، وكانت علاقة العبد بربه علاقة محدودة ميتة لا حياة فيها ولا روح ، ولا مرونة ولا سعة ، وكانت الحياة كلها حياة رتيبة خشبية ، لا عاطفة فيها ولا أشواق ، ولا حنان فيها ولا هيام ، وإذا : أي فرق بين الحياة والموت ، وبين الإنسان والجماد ؟!

ما قيمة كأس لا تطفح ولا تفيض ؟:

لقد كان المسلم في حاجة الى غذاء للقلب ، والى زاد للعاطفة ، والى ان يقضي شوقه ، ويروي غلته مرة بعد مرة ، وعلى فترة بعد فترة ، وكان في حاجة الى ان تطفح كأسه ، فما قيمة كأس تمتلئ ولا تطفح ؟. وكان في حاجة الى ان تفيض هذا الكأس ، فما قيمة كأس تطفح ولا تفيض ؟.

تسليمة البيت والحج لحنان المسلم وهيامه :

وقد تفتطن حجة الإسلام الغزالي بذكائه النادر ، وفقهه الدقيق لأسرار التشريع لهذه النكتة ، وعرف ان الشوق غريزة في الإنسان الحي السليم ، وحاجة من حاجاته ، فيبحث له عما يقضي به حاجته ، ويروي غلته ، وكان البيت العتيق وما حوله من شعائر الله ، والحج وما فيه من مناسك ، خير ما يحقق رغبته ، ويسلي حنانه وعاطفته ، وقد قال الله تعالى : « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً ، وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع

السجود . وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق (١) .

يقول الغزالي :

« فالشوق الى لقاء الله عز وجل يشوقه الى أسباب اللقاء لا محالة ، هذا مع ان الحبّ مشتاق الى كل ما له الى محبوبه إضافة ، والبيت مضاف الى الله عز وجل ، فبالحري ان يشتاق اليه لمجرد هذه الإضافة ، فضلاً عن الطلب لنيل ما وُعد عليه من الثواب الجزيل (٢) . »

ويردّفه شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، فيشير الى نفس النكته ، ويجعلها حكمة الحج الأساسية ، فيقول :

« وربما يشتاق الإنسان الى ربه أشد شوق ، فيحتاج الى شيء يقضي به شوقه فلا يجده إلا الحج (٣) . »

لقد كان للمسلم ان يقضي هذا الشوق ، وان يبرز هذا الحنان ، وان تفيض كأسه في الصلوات التي يصلّيها كل يوم ، فيسلي بها قلبه ، ويطفيء بها غلته ، ويهدئ بها تأثرته ، ويخفف بها حرارة شوقه ، ووهج نفسه ، ولكنها قطرات محدودة تتكون خشوعاً ، او تسقط دموعاً ، إنها قطرات قد لا تفي بما يجيش في الصدر من حنان وولوع ، وهي قطرات قليلة في بعض الأحيان لا تسمن ولا تغني من جوع .

(١) الحج - آية - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ .

(٢) إحياء علوم الدين - ج ١ - ص ٢٤ .

(٣) حجة الله البالغة - ج ١ - ص ٥٩ .

طفرة ، أو قفزة واسعة من سجن ضيق الى عالم فسيح :

وكان للمسلم ان يروي ظمأ روحه ، ويقضي حاجة حنانه ، ويكسر سورة نفسه ، ويثور على « وثنية » عاداته ومألوفه ، وأن يقضي روحه بتخلية معدته في شهر رمضان ، ولكنها ساعات محدودة كذلك ، محفوفة بما يخفف أثرها ، ويضعف سلطانها ، من أكلة متخمة وريّ مسرف ، وراحة منعمة ومجتمع نائث ، ومدنية قد أحاطت بالصائم ، كما تهيئ البجار المتلاطمة بجذيرة صغيرة ، فكان المسلم - بكل ذلك - في حاجة الى طفرة ، او قفزة واسعة يفك بها أغلاله وسلاسله ، وينسلخ بها من سجنه الضيق القديم ، العتيق الخالق ، وينتقل من عالم ، كله قديم مألوف ، ومقيد محدود ، ومخطوط مرسوم ، ومصنوع معمول ، الى عالم ، كله جديد وطريف ، وحر منطلق ، وناثر فارد ، كله حب وغرام ، وشوق وهيام ، قد تحرر من كل رق ، وثار على كل وثن ، وكفر باختلاف الجنس واللون والوطن ، وآمن بوحدة الإلهية ، وبوحدة المنعم والوهاب ، وبوحدة الإنسانية ، وبوحدة العقيدة ، وبوحدة المطلوب ، وهتف الناس جميعاً بصوت واحد : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » .

لقد كان المسلم في حاجة - بعد هذه الصلوات ، التي يصلحها كل يوم ، وبعد شهر رمضان ، الذي يصومه كل عام ، وبعد الزكاة ، التي يقوم بها اذا تم النصاب وحال الحال - الى أن يشهد موسماً هو ربيع الحب والحنان ، وملتقى المحبين والمخلصين ، ومشهد العشاق والهائمين .

تحديد لعباد العقل والمادة ، ودعوة الى
الايان بالغيب ، واتباع الأمر المجرد :

وكان المسلم في حاجة الى ان يثور على عقله ، الرزين الوقور ، المقلد المطبق ،

وما لذة حياة لا ثورة فيها ولا تمرد ؟ . وكان في حاجة الى ان يتخطى الدائرة المرسومة من عادات ومألوفات ، وقوانين وضعية ، وحضارة مصطنعة ومجتمع قاس ، ويفك قيوده وأغلاله ، وينتزع الزمام من يد عقله ، الذي استبد به زماناً طويلاً ، ويعطيه لقلبه وعاطفته ، فيتحرر كما فعل العشاق المتيمون ، وجهه كما هام الهائمون ، وينذهب في الحب كل مذهب كما فعل العشاق المتيمون ، فلا حرية لمن ملكه المجتمع ، وسيطرت عليه الحضارة ، وتسلطت عليه آلهة التقاليد ، ولا توحيد لمن أسرته العادات ، والمألوفات والشهوات ، ولا يعتبر مطيعاً منقاداً ، مسلماً مستسلماً ، من اعتمد دائماً على عقله ، لا ينشط لعمل ، ولا يسرع لامتثال أمر ، حتى يزنه في ميزان عقله المخلوق ، ويعرف فوائده المادية المحسوسة . والحج بوضعه الدقيق الغامض ، المنافي للمألوف المعروف ، لعباد العقل والمادة ، وأسارى النظم والترتيبات ، ودعوة الى الإيمان بالغيب ، واتباع الأمر المجرد ، وعزل العقل عن وظيفته لمدة محدودة ، وفي مكان محدود ، وصرفه عن طلب الدليل والحكمة ، والمنطق والفلسفة في كل حين وأوان ، وفي كل زمان ومكان .

وقد أبدع حجة الإسلام الغرالي كل الإبداع في بيان روح الحج وحقيقته ، وهي الإيمان بالغيب ، والإمتثال المطلق - وصورٌ بقلمه البليغ ، وريشته البارعة ، صورة الحج الرائعة ، وبلغ الى لب الدين وجوهره ، وروح الإسلام وحقيقته في شرح هذا الركن العظيم ، وقد غفل عن ذلك أكثر العلماء والكتّاب في القديم والحديث ، يقول رحمه الله :

« ووضعه (أي البيت) على مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فج عميق ، ومن كل أوب سحيق شعناً غبراً ، متواضعين لرب البيت ، ومستكينين له ، خضوعاً لجلاله واستكانة لعزته مع الاعتراف بتزنيه عن أن يحويه بيت ، أو يكتنفه بلد ، ليكون ذلك أبلغ في رهم وعبوديتهم ، وآتم في إذعانهم وانقيادهم .

ولذلك وظّف عليهم فيها أعمالاً لا تأنس بها النفوس ولا تهتدي الى معانيها العقول ، كرمي الجمار بالأحجار ، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار ، وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية ، فإبان الزكاة إرفاق ، ووجهه مفهوم ، وللعقل إليه ميل ، والصوم كسر للشهوة ، التي هي آلة عدو الله ، وتفريغ للعبادة بالكف عن الشواغل . والركوع والسجود في الصلاة تواضع لله عز وجل بأفعال ، هي هيئة التواضع ، وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل ، فأما ترددات السعي ورمي الجمار ، وأمثال هذه الأعمال ، فلا حظ للنفوس ، ولا أنس للطبع فيها ، ولا اهتداء للعقل الى معانيها ، فلا يكون في الاقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد ، وقصد الإمتثال للأمر من حيث أنه أمر واجب الاتباع فقط .

وفيه عزل للعقل عن تصرفه ، وصرف النفس والطبع عن محل أنسه ، فإن كل ما أدرك العقل معناه ، مال الطبع اليه ميلاً ما ، فيكون ذلك الميل معيناً للأمر وبعثاً معه على الفعل ، فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد ، ولذلك قال ﷺ في الحج على الخصوص: «لبيك بحجة حقاً ، تعبداً ورقاً» ، ولم يقل ذلك في صلاة ولا غيرها .

وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ، ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على سنن الانقياد ، وعلى مقتضى الاستعداد ، كان ما لا يهتدى الى معانيه أبلغ أنواع التبعيدات في تزكية النفوس ، وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق الى مقتضى الاسترقاق ، وإذا تفتنت لهذا ، فهمت ان تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة ، مصدره الذهول عن أسرار التبعيدات ، وهذا القدر كاف في تفهم أصل الحج إن شاء الله تعالى (١) .

ويقول في الرمي ، ويذكر أن العمدة فيه الانقياد والأمر المجرد :

(١) إحياء علوم الدين - المجلد الأول - ص ٢٤٠ .

« فاقصد به الانقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية ، وانتهاضاً للمجرد الامتثال ، من غير حظ للعقل والنفس فيه . ثم اقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له ابليس لعنه الله تعالى ، في ذلك الموضع ، ليدخل على حجته شبهة ، او يفتنه بمعصية . فأمر الله عز وجل ، ان يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأمله ، فإن خطر لك ان الشيطان عرض له وشاهده ، فلذلك رماه ، وأما أنا ، فليس يعرض لي الشيطان ، فاعلم ان هذا الخاطر من الشيطان ، وانه الذي ألقاه في قلبك ليفتر عزلك في الرمي فيه برغم أنف الشيطان .

واعلم انك في الظاهر ترمي الحصى الى العقبة ، وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان ، وتقسم به ظهره ، إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيماً له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه (١) .

ويقول في الذبح :

« فاعلم أنه تقرب الى الله تعالى بحكم الامتثال ، فأكمل الهدى ، وارج ان يعتقد الله بكل جزء منه جزءاً منك من النار ، فمكذا ورد الوعد ، فكلماً كان الهدى أكبر ، وأجزاؤه أوفر ، كان فداؤك من النار أعم (٢) . »

« الحاج » طوع إشارة ، ورهين أمر :

والحج بمناسكه وأركانه وأعماله ، كله تمرين وتمثيل للإطاعة المطلقة ، وامتثال للأمر المجرد ، وسمي وراء الأمر ، وتلبية وإجابة للطلب ، فالحاج يتقلب بين مكة ومنى ، وعرفات والمزدلفة ، ثم منى ومكة : يقيم ويرحل ، ويمكث وينتقل ، ويخيم ويقلع ، إنما هو طوع إشارة ورهين أمر ، ليست له

(١) احياء علوم الدين ج ١ - ص ٢٤٣ .

(٢) احياء علوم الدين ج ١ - ص ٢٤٣ .

إرادة ولا حكم ، وليس له اختيار ولا حرية ، ينزل بمنى فلا يلبث ان يؤمر بالانتقال الى عرفات ، من غير أن يقف بالمزدلفة ، ويقف بعرفات ، ويظل سحابة النهار مشتغلاً بالدعاء والعبادة ، وتحديثه نفسه بالمكث بعد الغروب ، ليستجم ويستريح ، فلا يسمح له بذلك ، ويؤمر بالانتقال إلى المزدلفة ، ويقضي حياته محافظاً على الصلوات في وقتها ، ويؤمر بترك صلاة المغرب في عرفة لأنه عبد لربه ، ليس عبداً لصلاته وعاداته ، فلا يصلحها إلا بالمزدلفة جمعاً مع العشاء ، وتطيب له الإقامة في المزدلفة ، فيريد أن يطيلها ، فلا يسمح له بذلك ، ويؤمر بالانتقال الى منى .

وهكذا كانت حياة ابراهيم وحياة الأنبياء ، وحياة العشاق المؤمنين والمحبين والتمسّمين ، نزول وارتحال ، ومكث وانتقال ، وعقد وحل ، ونقض وإبرام ، ووصل وهجر ، ولا خضوع لعادة ، ولا إجابة لشهوة ولا اندفاع للهوى .

فضل المكان والزمان وموسم الحب والحنان :

وكان ينبغي أن يكون ذلك في مكان ، قد قام فيه أكبر المحبين وإمام المخلصين ، وأشد الناس حباً لله ، وأحبهم الى الله في عصره ، وأسرته الصغيرة ، الطيبة المباركة ، بأكبر دور في الحب والولاء ، والاخلاص والوفاء ، والإيثار والفداء ، وقاموا بأروع رواية وأجملها ، في تاريخ الحب السامي والولاء الطاهر ، والاخلاص المعجز ، وجاء من بعدهم الأنبياء والمرسلون ، والموحدون المخلصون ، والمحبون المتفانون في كل عصر ، فنسكوا مناسكهم وشهدوا مشاهدهم ، واحتذوا حذوهم ، وترسموا خطاهم ، وحكوا هذه الرواية وأعادوها ، فطافوا حول البيت ، وسعوا بين الصفا والمروة ، ووقفوا بعرفات ، وباتوا في المزدلفة ، ورموا الجمرات ، ونسكوا في منى .

وكان في المكان والزمان ، وفصول الرواية التي يعيدونها ، والأعمال التي يقلدونها ، ونسائم الحب التي ينشقونها ، والجو الفائض بالايان والحنان الذي يعيشون فيه ، وطبقات الأمة ، التي يتصلون بها ويعاشرونها ، وفي هذا الالتقاء الديني الروحي ، الذي لانظير له على وجه الأرض ، وفي هذا الضجيج من الدعاء ، والذكر والتلبية والاستغفار ، ما يعيد الحياة الى القلوب الميتة ، ويجرك الهمم الفاترة ، وينبه النفوس الخاملة ، ويشعل شرارة الحب والطموح التي انطفأت ، او كادت تنطفئ ، ويجلب رحمة الله .

وقد أشار العلماء العارفون الى ما في اجتماع المسلمين العظيم ، واجتماع مهمهم ودعواتهم وقلوبهم الصادقة من تحريك لرحمة الله تعالى ، ومن تحريك للقلوب القاسية ، وإثارة للأشواق .

يقول حجة الاسلام الغزالي :

« فإذا اجتمعت مهمهم ، وتجردت للضراعة والابتهال قلوبهم ، وارتفعت الى الله سبحانه أيديهم ، وامتدت اليه أعناقهم ، وشخصت نحو السماء أبصارهم ، مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة ، فلا تظن انه يخيب أملمهم ويضيع سعيهم ، ويدخر عنهم رحمة تغفرهم (١) » .

ويقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي :

« أعلم ان حقيقة الحج اجتماع جماعة عظيمة من الصالحين في زمان ، يذكر حال المنعم عليهم من الأنبياء والصدّيقين ، والشهداء والصالحين ، ومكان فيه آيات بينات ، قد قصده جماعات من أئمة الدين ، معظمين لشعائر الله ، متضرعين راغبين وراجين من الله الخير ، وتكفير الخطايا ، فإن الهمم اذا اجتمعت بهذه الكيفية لا يتخلف عنها نزول الرحمة والمغفرة ، وهو قوله ﷺ : « مارؤي

(١) إحياء علوم الدين - ج ١ - ص ٢٤٣ .

الشیطان يوماً ، هو فيه أصفر ولا أدر ، ولا أحقر ولا أغیظ منه في يوم
عرفة (الحديث) (١) .

وقال :

« ومن باب الطهارة النفسانية ، الحلول بموضع لم يزل الصالحون يعظمونه
ويجلون فيه ، ويعمرونه بذكر الله ، فإن ذلك يجلب تعلق هم الملائكة السفلية ،
ويعطف عليه دعوة الملائكة لأهل الخير ، فإذا حل به غلب ألوانهم
على نفسه (٢) . »

تجديد الصلة بإمام الملة الحنيفية « ابراهيم » من أعظم مقاصد الحج :

ومن مقاصد الحج الرئيسية تجديد الصلة بإمام الملة الحنيفية ومؤسسها ابراهيم
الخليل ، والتشبع بروحه ، والمحافظة على إرثه ، والمقارنة بين حياتنا وحياته ،
وعرضها عليها ، واستعراض ما يعيش فيه المسلمون في العالم ، وتصحيح ما وقع
في حياتهم من أخطاء او فساد ، او تحريف ، وإعادة ذلك كله الى أصله ومنبعه ،
فالحج عرضة سنوية للملة تضبط أعمال المسلمين وحياتهم ، ويتخلصون بها من
نفوذ الأمم والمجتمعات التي يعيشون فيها .

قال شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي :

« (ومن مقاصد الحج) موافقة ما توارث الناس عن سيدنا ابراهيم واسماعيل
عليهما السلام ، فإنها إماما الملة الحنيفية ، ومشرعاها للعرب ، والنبي ﷺ بعث
لتظهر به الملة الحنيفية ، وتعلوبه كلمتها ، وهو قوله تعالى : « ملة أبيكم

(١) حجة الله البالغة - ج ١ - ص ٥٩ .

(٢) حجة الله البالغة - ج ١ - ص ٥٩ .

ابراهيم (١) .
فمن الواجب المحافظة على ما استفاض عن إمامها كخصال الفطرة (٢) ،
ومناسك الحج ، وهو قوله ﷺ : « قفوا على مشاعركم ، فإنكم على إرث من
إرث أبيكم (٣) » .

إعادة قصة ابراهيم ، وتمثيلها في الحج :

فمن أوضح ملامح الحج ، والروح المسيطرة على جميع أعماله ومناسكه ،
هو الحب والهيام والتفاني ، وإعطاء زمام الجسم والفكر للقلب والعاطفة ،
وتقليد العشاق والمحبين ، وإمامهم وزعيمهم ابراهيم الخليل ، فحينما طواف
الحب والهيام حول البيت الحرام ، وحينما تقبيل الحجر الأسود والإستلام ،
وحينما سمي بين غايتين ، وتقليد ومحاسبة للأم الحنون ، حتى في تؤدتها ووقارها ،
وفي جريها وهرولتها ، ثم قصد (منى) في يوم معين هو يوم التروية ، ثم قصد الى
(عرفات) ووقوف بساحتها وعرضاتها ، ودعاء وابتهال ، ثم بيتوته في
المزدلفة ، وعودة الى (منى) وحلق ونحر ، اقتداء لسنة ابراهيم ومحمد
عليها السلام .

وأوضح ملامح هذا الحب والتقليد رمي الجمرات ، الذي ليس إلا تمثيلاً لما
صدر عن الخليل ، وفي تقليد أعمال المحبين تأثير غريب في انتقال عدوى الحب ،
واتصال بالمركز الكهربائي ، الذي يجري منه التيار ، ووسيلة الى جلب رحمة
الله وشمول عنايته ، وليس لمن ذاق حلاوة الحب منظر ، الذئ من هذا المنظر ،
الذي يجتمع فيه المحبون الطائعون لتمثيل هذه القصة التي حدثت قبل آلاف من
السنين ، ولكن الله أفاض عليها الخلود ، وطلب من جميع المحبين المحلصين اعادةها

(١) سورة الحج : آية : ٧٨ .

(٢) قال النبي صلى الله عليه وسلم : « عشر من الفطرة ، قص الشارب ، وإعفاء اللحية
والسواك ، والاستنشاق بالماء ، وقص الأظفار ، وغسل البراجم ، وتنف الإبط ، وحلق العانة ،
وانتقاص الماء - يعني الاستنجاء ، قال الراوي ونسيت العاشرة ، إلا أن تكون المضمضة » .
(رواه أبو داؤد والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، ورواه أحمد في المسند . عن عائشة رضي
الله عنها) .

(٣) حجة الله البالغة : ج ٢ ص ٤٢ .

وتمثيلها ، إخزاءً للشيطان ، وتقوية للإيمان ، واقتداءً بخليل الرحمن .

قصة ابراهيم في القرآن ،

وصلتها بالبلد الأمين :

ولد ابراهيم في بيت سادن من أعظم سدة البلد ، ينحت الأصنام ويبيعها ، ويقوم على الهيكل الكبير ، ويتصل به عن طريق العقيدة ، وعن طريق الحرفة ، وما أعظم المشكلة ، وما أعقد العقدة ، اذا التقت العقيدة بالحرفة ، واجتمعت العاطفة الدينية مع المصلحة المالية ، ولا شيء في هذا الجو القاتم يثير الإيمان والحنان ، ويبعث على الثورة على هذه الخرافة الوثنية ، ولكنه قلب سليم هَيَّئَ للنبوة ، وأعد لتكوين العالم الجديد ، « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنتنا به عالمين (١) » ، إنه يبدأ ثورته بمرحلة ربما لا تصل اليها ، ولا تتناولها أعظم ثورة ، إنها مرحلة الحياة المنزلية ، ومرحلة البيت الذي ولد فيه الإنسان ، وفرض عليه ان يعيش فيه ، ويقع كل ما يحكيه القرآن في أسلوبه المعجز المبين من تحطيم ابراهيم للأصنام ، وغضب عابدها وحيرتهم وعيهم ، وانتقامهم من الفتى الثائر ، واشتعال النار وتحولها برداً وسلاماً على ابراهيم ، ومناظرته البليغة ، أمام الملك الجبار (٢) .

وتنتهي هذه الثورة الى ان يضيق عليه البلد ، ويفضض عليه المجتمع ، وتطارده الحكومة ، فلا يحفل بكل ذلك ولا يحسب له حساباً ، كأنه شيء كان منه على ميعاد ، وكأنه نتيجة طبيعية قد توقعها ، فيخرج من بلده قরিير العين ، رضي النفس ، إذ نجا برأس ماله ، وهو الإيمان ، فيسبح في أرض الله ، وهو فريد لا يعرف له ثانياً ، والبلاد كلها نسخة واحدة من الوثنية والخرافة ، وعبادة الأوثان والشهوات ، حتى يهبط مصر ، فيكون هدف الامتحان ، والامتحان ، وينجو بصاحبته ، التي يطمع فيها الملك ، فيفلتان من يده ،

(١) سورة الأنبياء : آية : ٥١ .

(٢) اقرأ الآيات - ٥١ الى ٧٠ - من سورة الأنبياء .

ويأويان الى أرض الشام ، فيغرس فيها الغرس الكريم ، ويلقي فيها عصا التسيار ، ويقوم فيها بدعوته الى رفض الأوثان ، والى عبادة الله وحده .

وتطيب له الإقامة في الشام حيث يتوفر الخصب ويتسع الرزق ، ويتجلى جمال الطبيعة ، فلا يلبث ، ان يؤمر بالتوجه الى أرض تقابل الشام في الخصب والماء ، وابراهيم لا يعرف لنفسه حقاً ، ولا يرتبط بأرض او وطن ، إنما هو طوع إشارة ورهن أمر ، يعتبر العالم بلده والسلالة البشرية أسرته ، يؤمر بأن ينتقل مع زوجته (هاجر) ومولودها الصغير الرضيع .

وهنا في واد ضيق ، أحاطت به الجبال الجرداء من كل جانب ، وقسافيه الجو ، وفقد الماء ، وغاب الأنيس ، وأوحش المكان ، يؤمر بترك زوجته المرأة الضعيفة العاجزة ، والمولود الصغير ، توكتلاً على الله وامتنالاً لأمره ، واستسلاماً لقضائه ، فلا جزع ولا فزع ، ولا إشفاق ولا حذر ، ولا سامة ولا ضجر ، ولا خور في العزيمة ولا ريبة في الوعد ، تمرد على التجارب ، ومعاكسة للطبيعة ، وانقطاع عن الأسباب ، وإيمان بالغيب ، وثقة بالله ، حين تسوء الظنون وتزل الأقدام .

ويعرض المحذور والأمر الواقع ، فيغلب على الطفل المعطش ، ويشدد بالأم الظماً ، ولا مطمع هناك في ثماد^(١) تروي غلتها ، وهنا تجيش في المرأة عاطفة الأمومة والحنان ، والاشفاق على المولود الصغير ، فتخرج باحثة عن الماء ، او عن سيارة تحمل الماء ، وتعدو مضطربة والهة بين جبلين ، يغلب عليها الحنين والإشفاق على الولد ، فترجع لتطمئن الى وجوده وحياته ، ويغلب عليها الخوف على الحياة ، فتعدو مسرعة تبحث عن ماء ، او عن أثر إنسان ، وهي بين اضطراب توحيه الطبيعة ، وسكينة يوحياها الإيمان والثقة ، وتعرف - وهي زوج نبيٍّ وأم نبيٍّ - ان البحث عن الأسباب لا ينافي الإيمان والثقة بالله ، فهي

(١) الثمد : الماء القليل يتجمع في الشتاء ، وينضب في الصيف ، او الحفرة يجتمع فيها ماء المطر ، جمعه ، ثماد .

مضطربة في غير يأس ، ومؤمنة في غير تعطل وتواكل ، منظر لم تشهد السماء مثله ، وجاشت الرحمة الإلهية ، وتفجّر الماء بطريق معجز ، فكان ماء خالداً مباركاً لا ينضب ولا يفيض ، قد وسع الخلق ، ووسع الأجيال ، وكان ماء لكل عصر ، ولكل أمة ، فيه غذاء وشفاء ، وفيه بركة وأجر .

وخلد الله هذه الحركة الاضطرارية ، التي ظهرت من امرأة مؤمنة مخلصه ، فجعلها حركة اختيارية ، يكلف بها أعظم العقلاء ، وأعظم الفلاسفة والنبغاء ، وأعظم الملوك والعظماء ، في كل عصر ، وفي كل جيل ، فلا يتم نساكهم إلا بالسعي بين هذين الجبلين اللذين هما ميقات كل محب ، وغاية كل مطيع ، والسعي خير ممثل لموقف المسلم في هذا العالم ، فهو يجمع بين العقل والعاطفة ، وبين الحس والعقيدة ، إنه يستعين بالعقل ، ويستخدمه في مصالح حياته ، ولكنه ينقاد أحياناً للعاطفة ، التي هي أعمق من العقل ، انه يعيش في عالم قد حفت بالشهوات ، وملىء بالزخارف والمظاهر ، لكنه يمر بينها ، كالساعي بين الصفا والمروة ، لا يُعرج على شيء ، ولا يتقيد بشيء ، إنما غايته وهمه ما يستقبله ، يعتبر حياته أشواطاً محدودة ، يقطعها إطاعة لربه ، واقتداءً بسلفه ، لا يمنعه إيمانه عن البحث والسعي ، ولا يمنعه سعيه عن التوكل على الله والثقة به ، حركة قيمتها وروحها ورسالتها « الحب » و « الانقياد » .

ويكبر الولد ، ويبلغ السن التي تقوى فيها عاطفة الأبوة ، فيرافق والده ويسعى معه ، ويشعر الوالد العظيم الذي قويت فيه العاطفة الإنسانية ، وطبع على الحب والحنان يميل شديد الى ولده وفلذة كبده ، وهنا المشكلة ، فإن قلبه هو القلب السليم الذي خص بالحببة الإلهية ، إنه ليس كقلب كل انسان ، انه قلب « خليل الرحمن » ، والحببة لا تعرف شريكاً ، ولا تحتل عديلاً ، فكيف وهي الحببة الإلهية ، وهنا يتلقى ابراهيم اشارة بذبح الولد الحبيب ، ورؤيا الأنبياء وحي ، وتتكرر الاشارة ، فعرف انه أمر يراد ، وانه جد ، فيختبر ولده ، لأنه شيء لا يتم الا بموافقة وجلادته ، فيجد عنده غاية البر ، وغاية

النجابة ، وغاية التضحية والتسليم للأمر الإلهي ، وهو نبي ابن نبي ، وجد نبي ، « قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين (١) » .

وهنا يقع ما لا يصدق العقل ، فيخرج الوالد مع ولده النجيب الحبيب ، ذلك ليذبح ولده ، وهذا يطيع ربه ووالده ، وكلاهما مطيع للرب مستسلم لأمره ، وعرض لهما الشيطان - ذلك الذي تكفل بالضلال ، ومنع الإنسان من السعادة - فحاول صرفهما عن التنفيذ ، وزين لهما العصيان ، ورغَّبها في الحياة ، فاستعصيا عليه ، وأبياً إلا ان ينفذا أمر الله ، وهنا يقع ما تضطرب له الملائكة ، ويفزع له الإنس والجن ، فينتصب الولد للذبح ، ويضع الوالد السكين على حلقومه يحاول جهده الذبح ، ووقع ما أراده الله . فلم يكن المقصود ذبح اسماعيل ، إنما كان المقصود ذبح الحب الذي ينازع الحب الإلهي ويقاسمه ، وقد ذبح بوضع السكين على الحلقوم ، إنما ولد اسماعيل ليعيش ويزدهر وينسل ، ويولد في ذريته آخر الأنبياء وسيدهم ، فكيف يُذبح وكيف يموت ، قبل أن يتحقق ما أراده الله ؟ ، وفدى الله اسماعيل بكبش من الجنة يُذبح مكانه ، وجعلها سنة باقية في عقبه وأتباعه ، يذبحون أيام النحر ويمجدون ذكرى هذ الذبح العظيم ، ويضحون في سبيل الله ما يشترونه بجر أموالهم :

« فلما أسلما وتلّاه للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا هو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه في الآخرين ، سلام على إبراهيم (٢) »

وخلد الله تمثيل قصة الشيطان مع إبراهيم ، وجعل رجحه بالخصى في الأمكنة

(١) سورة الصافات ، آية : ١٠٣ .

(٢) الصافات ، آية : من ١٠٤ إلى ١٠٩ .

التي اعترض فيها لإبراهيم ينهائه ويصرفه ، عملاً يتكرر كل عام ، وقصة تُتمثل في أفضل الأيام ، إثارة لبغض الشيطان ، وإظهاراً للتمرد عليه والعصيان ، وهي حركة يشعر فيها المؤمن بلذة وحياة وعاطفة ، إذا صح فيه الإيمان ، واستقام فيه الفهم ، وكمل الإنقياد للأوامر ، ويعرف انه في صراع دائم مع قوى الشر ، ومعركة مع إبليس وجنوده ، وأتته ليس له نصيب منه إلا الرّجم والهوان .

ويدور الزمان دورته ، واسماعيل الصغير شاب قوي ، أكرمه الله بالنبوة والسيادة ، وقد أثمرت دعوة إبراهيم وتوسّعت وانتشرت ، وكان لا بد لها من مركز تأوي إليه ، وتعتمد عليه ، وكثرت القصور للملوك ، والمعابد للطاغوت يطاع فيها الهوى ، ويعبد فيها الشيطان ، وليس لله على أرضه مسجد يخلص لعبادته ، ويظهر لقاصديه وعابديه ، فيؤمر إبراهيم بعد ما قام الدين على قدمه وساقه ، وظهرت نواة الأمة المسلمة الحنيئة ، لبناء بيت الله تعالى ، يكون مثابة للناس وأمنأ ، ومعبدأ لله وحده ، فيتعاون الوالد والولد في بناء هذا البيت البسيط المتواضع في مظهره ، العميق الرفيع في عظمته ، فينقلان الحجارة ، ويرفمان البناء ، « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربّنا تقبّل منّا ، إنّك أنت السميع العليم ، ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيتنا أمة مسلمة لك ، وأرّنا مناسكنا ، وتب علينا ، إنّك أنت التّواب الرحيم » (١) ،

وقام البيت على أساس من إيمان وإخلاص ، ليس لها نظير في الدنيا ، وتقبّله الله بقبول حسن ، وقضى ببقائه ، وكساه الجمال والجلال ، وعطف إليه القلوب والنفوس ، وجعله مهوى الأفتدة ومغناطيس القلوب ، يودّ الناس لو يسمعون إليه على رؤوسهم ، ويصلون إليه ببذل مهجهم ونفوسهم ، مع تجرده عن كل ما يستهوي القلوب ، ويستلفت الأنظار ، ووقوعه في بلد بعيد عن جمال الطبيعة وبهرج المدنية . ولما كان ذلك نودي إبراهيم : « وأذّن في الناس بالحجّ

(١) سورة البقرة ، آية : ١٣٧ - ١٣٨ .

يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم
ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ، على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها
وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقتضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت
العتيق (١) ،

كان العالم في عصر ابراهيم عليه السلام خاضعاً للأسباب ، واعتمد الناس
عليها اعتماداً زائداً ، حتى أصبحوا يعتقدون أنها مؤثرة مستقلة قائمة بذاتها ، وحتى
أصبحت أرباباً من دون الله ، وأصبح هذا الخضوع للأسباب وتقديسها والإعتماد
عليها وثنية أخرى غير الوثنية التي أغرقوا فيها وغلغلوا ، من عبادة الأصنام
والأوثان ، وكانت حياة ابراهيم ثورة على الوثنيين ، ودعوة الى التوحيد النقي
الحالص ، وتحقيقاً لقدرة الله الواسعة المحيطة بكل شيء ، وأنه يخلق الأشياء من
عدم ، وأنه يخلق الأسباب ويملكها ، ويفصل الأسباب عن المسببات ، وينتزع
عن الأشياء خواصها ، وطبيعتها ، ويستخرج منها أضرارها ، ويستخرجها لما
يشاء ومتى يشاء ، أشعل الناس له النيران ، وقالوا ، « حرّ قوه وانصروا آلهتكم
إن كنتم فاعلين (٢) » ، وكان ابراهيم يؤمن بأن النار خاضعة لإرادة الله تعالى ،
ليس الإحراق لها طبيعة دائمة ، لا تنفك عنها ، إنما هي طبيعة مودعة أمانة فيها ،
إذا أراد أطلاق لها العنان ، وإذا أراد أمسك الزمام ، وحوّلها إلى برد وسلام ،
فخاضها مؤمناً مطمئناً واثقاً ، وهكذا كان ؛ « قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على
إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخرسين (٣) »

واعتقد الناس أنه لأحياء إلا بالخشب والميرة والماء الغزير ، فكانوا يرتادون
الأسهم وأبنائهم ويختارون لسكنهم ووطنهم أراضي مخصبة تكثر فيها المياه ،

(١) سورة الحج - ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ .

(٢) سورة الأنبياء - ٦٨ .

(٣) سورة الأنبياء - ٦٩ - ٧٠ .

ويتوفر فيها الخصب ، وتسهل فيها التجارة والصناعة ، وقد ثار ابراهيم على هذه العادة المتبعة والمعرف الشائع ، والإعتماد على الأسباب ، فاختر لأسرته الصغيرة - المكونة من أم وابن - وادياً غير ذي زرع ، لا زراعة فيه ولا تجارة ، منقطعاً عن العالم ومراكزه التجارية ، ومواضع الرخاء والثراء ، ودعا الله تعالى أن يوسع لهم الرزق ويعطف إليهم القلوب ، ويحيي إليهم الثمرات من غير سبب وطريق معروف ، فقال : ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون (١) .

وأجاب الله دعاءه ، فضمن لهم الرزق والأمن ، وجعل بلدهم محطاً للخيرات والثمرات : « أولم نمكّن لهم حرماً آمناً يجيى إليه ثمرات كل شيء ، رزقاً من لدنا ، ولكن أكثرهم لا يعلمون (٢) » فليعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (٣) . تركهم في أرض لا أثر فيها لماء يروي الغلّة ، ويبل الحلقوم ، فإذا بناء يفور من الرمال ، ويفيض من غير انقطاع يشربه الناس في سخاء ، ويحملونه الى بلدهم . ويترك أهله في بلد قفر لا أنيس فيه ، فإذا به يُصبح مكاناً يؤمه الناس من كل صوب ، ويأتون إليه من كل فج عميق . وهكذا كانت حياة ابراهيم تحدياً للمادية المسرفة الشائعة في عصره ، وعبادة الأسباب واتخاذها أرباباً من دون الله ، ومثالاً للإيمان بالله وقدرته المطلقة ، وأن إرادته فوق كل شيء ، وهكذا كانت سنة الله معه ، يخضع له الأسباب ويخلق له ما تحار فيه الألباب .

الحج ، تخليد لخصائص ابراهيم ومآثره ،
وتجديد لدعوته وتعاليمه :

والحج ومناسكه وما يحيط به من ذكريات ، وحوادث ، وما يتلبس به

(١) سورة ابراهيم - ٣٧ .

(٢) سورة القصص - ٥٧ .

(٣) سورة قريش - ٣ - ٤ .

الحاجّ من التجرّد عن المظاهر ، وما يأتي به من عمل ونسك - من إحرام ووقوف ، وإفاضة ، ورجم وسعي وطواف - تحليد لما اختص به ابراهيم عليه السلام من التوحيد ونفي الأسباب ، والتوكل على الله والتفاني في سبيله ، وإيثار لطاعته ومراضاته ، وتمرّد على العادات والأعراف ، والمعايير الزائفة والمثل المصطنعة ، وتجديد لذلك الإيمان القوي ، والحب العميق والتضحية الفائقة والإيثار الرفيع ، والحج ضامن لبقاء هذه المعاني السامية كلّها ، وهذه القيم الربانية كلّها ، وبقاء الجامعة الإسلامية الإنسانية التي هي فوق القوميات والعنصريّات والوطنيات المحدودة المصطنعة ، ودعوة للناس إلى أن يسيروا على نهج ابراهيم ويتشبّعوا بروحه ، ويقوموا بدعوته في كل عصر وفي كل مكان ، « ملة أبيكم ابراهيم ، هو سمّاكم المسلمين من قبل ، وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله ، هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير (١) »

عنوان جديد ، وخط فاصل في كتاب الانسانية :

إن ابراهيم ودعوته وجهاده عنوان جديد ، نبيّ مشرق في كتاب الإنسانية وامتدادها ، ينفصل به التاريخ عن التاريخ ، وتتوزّع به الإنسانية بين المعسكرين يخلدان مع الزمن ، ويبتدئ به عهد وينتهي به عهد ، وقد جعل الله لإبراهيم الإمامة الخالدة والكلمة الباقية ، وجعل في ذريته النبوة والولاية ، والوصاية الدينية على العالم للأبد ، وكتب لأسرته ومن دخل داره ، الجهاد للحق ، والوقوف في وجه الباطل إلى آخر الأبد ، والدعوة إلى الله ، وتجديف سفينة البشرية في عواصف هوجاء ، وأمواج عاتية ، والحفاظة على هذا السراج من أن ينطفئ ، وهو العامل البنّاء الوحيد الذي استعمله الله في إسعاد البشرية

(٢) سورة الحج : ٧٨ .

وعصمها من تخريب العالم وتدمير الإنسانية ، وسوقها إلى الجحيم .

عماد الانسانية ، وقيام للناس :

والحج وشهود الموسم ، والتقاء أبناء ملّة ابراهيم في مكة كل عام ، هو كاف لبقاء هذه الصلة ، بين ابراهيم وأتباعه ، وأبنائه الروحيين ، وتجديد هذه المعاني والعقائد والأهداف التي فيها بقاء لهذه الملة والإنسانية كلها ، لذلك قال الله تعالى : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ، ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم (١) »

مركز دائم للهداية والارشاد ، والاصلاح والجهاد :

وجاء عهد الإسلام ودور الرسالة المحمدية الخالدة ، فأصبح هذا البيت مركزاً للهداية والإرشاد ، والإشعاع الروحي ، والغذاء العاطفي ، تقام حوله المناسك ، وتغذّى به العاطفة ، وتشعل به مجامر القلوب ، وتشحن به « بطايرتها » الفارغة ، ويتلقى منه الرسالة الدينية ، ويجتمع حوله العالم الإسلامي كل عام ، يؤدي خواجه من الطاعة ، وضريبتة من الحب والإنقياد ، ويثبت تمسكه بهذا الجبل المتين ، ولجوئه إلى هذا الركن الركين ، يطوف حوله أعظم العلماء والعقلاء ، والزعماء والعظماء ، والملوك والأمراء ، والأغنياء والفقراء ، في وله وهيام ، وفقه وحكمة ، يثبتون أنهم مجتمعون على تفرق ، متوحدون على تعدد ، متركرون على انتشار ، أغنياء على الفقر ، أقوياء على الضعف ، ينتشرون في العالم ويسعون في أرزاقهم ومصالحهم ، وينتسبون إلى أمم وسلالات ، ويختلفون في الحضارات والثقافات ، ويلتقون على نقطة واحدة وحول نقطة

(١) سورة المائدة : ٩٧ .

واحدة ، وحياتهم كلها طواف وسعي ، ونسك وعبادة ، وإيمان وعقيدة ، ومقاماتهم كلها منى وعرفات ، وأسفار ووقفات ، وإنما هم في رحلة دائمة ، وتقدم مستمر ، وتعارف متكرر ، حتى يقضوا نحبهم ويلقوا ربهم .

إلى مدينة الرسول ﷺ ، ومسجده العظيم :

وكان من الطبيعي بعد ذلك كله ، أن يحنّ المسلم ، لاسيا الوافد من مكان بعيد ، إذا قضى حجه ، وأدّى مناسكه الى مهجر خاتم المرسلين ومثواه الأخير ، ومآرز الإسلام ، الى المسجد الذي انبثق منه النور ، وانطلقت منه موجة الهداية والعلم ، وقوة الإسلام في العالم ، الى المدينة ، التي آوى إليها الإسلام ، وتمثّلت فيها فصول التاريخ الإسلامي الأول ، وابتتل ترابها بدموع الصحابة رضي الله تعالى عنهم ودمائهم ، فيصلي في المسجد الذي تُعادل ركعة فيه ألف ركعة في غيره (١) ، ويقف في مواقف ، وقف فيها الشهداء والصدّيقون ، والسابقون الأولون ، فيستمد منها الصدق والإيمان ، والحب والحنان ، والبطولة والشهادة في سبيل الإسلام ، ويصلي ويسلم على هذا النبي الذي خرج بدعوته وجهاده من الظلمات الى النور ، ومن عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، وذائق لأول مرة حلاوة الإيمان ، وعرف قيمة الإنسان .

عرضة سنوية تحفظ على الأمة نقاها وأصالتها ،

وتعصم الدين عن التحريف والفساد الشامل :

والحج عرضة سنوية للملّة ، يرجع إليها الفضل في نقاها وأصالتها ، وفي بقاء هذا الدين ، بعيداً عن التحريف والغموض والإلتباس ، وفي بقاء هذه الأمة ، بعيدة عن الإقتطاع عن الأصل ، والمصدر والأساس ، ومحفوظة من المؤامرات والمغالطات التي وقعت أمم كثيرة فريستها في الزمن الماضي ، وعن طريق هذه المؤسسة العظيمة الحكيمة ، تبقى هذه الأمة العظيمة الخالدة محتفظة بطبيعتها

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة في

مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه ، إلا المسجد الحرام » (متفق عليه) .

الإبراهيمية الولوع الحنون ، العطوف الرؤوف ، الثائرة القويّة الحنيفة السمحة ،
وتتوارثها جيلاً بعد جيل ، فكأنها القلب الحي القوي الفياض الذي يوزع الدم
الى عروق الجسم وشرايينه ، وبها تستعرض هذه الأمة مجموعها في صعيد واحد ،
فينفي بذلك علماءها وزعمائها تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل
الجاهلين ، وخرافة المخرفين ، ويردونها الى الأصل الإبراهيمي الحنفي ، وإلى
الشرعة المحمدية (الصافية) والى الدين الخالص ، وبها تستطيع هذه الأمة أن
تحافظ على وحدتها الدينية والعقلية والثقافية ، وتعتم من أن تؤثر فيها
الاقليمية والمحلية تأثيراً يفقدها الوحدة الحنيفة الإبراهيمية ، والصبغة
الإسلامية المحمدية ، كما كان شأن الديانات السابقة الكثيرة ، والأمم
الدينية العديدة .

لقد قدر الله لهذه الأمة الخالدة أن تعيش في بيئات مختلفة ، وفي أقاليم
عديدة ، وتجتاز أدواراً كثيرة جداً ، مختلفة جداً ، من حرارة وقوة وجود
وخمود ، وعنف وقسوة ، ومصارعة ومقاومة ، وإغراءات مادية وسياسية ،
وتقدم في الحضارة والمدنية ، وتوسّع في المال والمادة ، وضيق وضمك ، وبدخ
وترف ، وعسر ويسر ، وشدة ورخاء ، وتسلّط وعدو قاهر وملك جائر ،
وكانت الأمة في حاجة دائمة إلى إشعال جذوة الإيمان ، وإثارة عاطفة الحب
والحنان ، وإعادة الوفاء والولاء في سائر الأجزاء والأعضاء ، فجعل الحج ربيعاً
تورق فيه أغصان هذه الشجرة الخالدة كل عام ، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ،
وتكتسى فيه هذه الشجرة العالمية لباساً جديداً قشيباً ، غصاً طرياً .

وقد سبق شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، بما أكرمه الله من فقه
دقيق ، وفهم عميق لأسرار التشريع ومقاصد الإسلام ، فأشار الى هذه النكته
في كتابه « حجة الله البالغة » فقال :

« وكأ أن الدولة تحتاج الى عرضة بعد كل مدة ليتميّز الناصح من الغاش ،

والمنقاد من المتمرد ، ليرتفع الصيِّت ، وتعلو الكلمة ، ويتعارف أهلها فيما بينهم ،
فكذلك الملة تحتاج الى حج ، لتمييز الموفق من المناق ، وليظهر دخول الناس
في دين الله أفواجاً ، وليرى بعضهم بعضاً ، فيستفيد كل واحد ما ليس عنده ،
إذ الرغائب إنما تكتسب بالمصاحبة والتراخي (١) »

وقال :

« وإذا جعل الحج رسماً مشهوداً نفع عن غوائل الرسوم ، ولا شيء مثله في
تذكر الحالة التي كان فيها أئمة الملة والتحضيض على الأخذ بها (٢) »

وقال :

« ومنها تحقيق معنى العرصة ، فإن لكل دولة أو ملة اجتماعاً يتوارده
الأقاصي والأداني ، ليعرف فيه بعضهم بعضاً ، ويستفيدوا أحكام الملة ،
ويعظموا شعائرها .

والحج عرصة المسلمين وظهور شوكتهم واجتماع جنودهم وتنويه ملتهم ، وهو
قوله تعالى :

« وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً (٣) »

مركز الاشعاع العالمي الخالد :

وقضى الله أن لا يخلو « الحج » في أشد أيام هذه الأمة وأحلكها ، من

(١) حجة الله البالغة - ج ١ ص ٥٩ - ٦٠ .

(٢) ايضاً - ج ١ - ص ٥٩ - ٦٠ .

(٣) ايضاً ج ٢ - ص ٤٢ .

الربانيين المخلصين ، ومن الصالحين المقبولين ، ومن الدعاة المرشدين ، ومن الداعين
 المبتهلين ، ومن الخاشعين المنيبين ، ومن العلماء الراسخين الذين يملأون الجو
 روحانية وخشوعاً ، فترق القلوب القاسية ، وتحشع النفوس العاصية ، وتفيض
 العيون الجامدة ، وتلتهب الجواهر الخامدة ، وتنزل رحمة الله وتغشى السكينة ،
 ويخزي الشيطان ، لذلك جاء في الحديث ، أن رسول الله ﷺ قال : « مارؤي
 الشيطان يوماً هو فيه أصفر ولا أدحر ولا أحقر ولا أعظم منه في يوم عرفه ،
 وما ذاك إلا بما يرى من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب العظام (١) »
 ويتكهرب الجو فيشحن المسلمون الذين جاءوا من كل صوب بعيد وفج عميق ،
 (بطارية) قلوبهم الفارغة ، يأخذون زاداً من إيمان وحب وحماسة ، وعلم
 وفقه ، يعيشون عليه في حياتهم الباقية ، ويقاومون به كل ما يواجهونه من
 إغراء وتسويل ، وتخويف وتزيين ، ويشركون في هذا الزاد إخوانهم المسلمين
 الذين قعد بهم الفقر أو الضعف ، أو المرض أو العدو ، وهكذا يجري هذا التيار
 الكهربائي الإيماني في جسم هذه الأمة المنتشرة في الآفاق ، فيتعلم الجاهل ،
 ويقوى الضعيف ويتحمس الخامل ، وتكتسب الأمة بذلك قوة جديدة على
 تأدية رسالتها ، وتستأنف كفاحها من جديد .

مظهر الجامعة الانسانية الاسلامية :

والحج انتصار للقومية الإسلامية على القوميات الوطنية والعنصرية واللسانية
 التي قد يصبح بعض الشعوب الإسلامية فريستها تحت ضغط عوامل كثيرة ، وهو
 إظهار لشعار هذه القومية ، فتتجرد جميع الشعوب الإسلامية عن جميع ملابسها
 وأزيائها الإقليمية التي تميز بعضها عن بعض ويتعصب لها أقوام ؛ وتظهر كلها في
 مظهر واحد يسمى (الإحرام) في لغة الدين والفقهاء وفي مصطلح الحج والعمرة ،

(١) رواه مالك رملاً .

حاسرة رؤوسها ما بين رئيس ومرؤوس ، وصغير وكبير ، وغني وفقير ، وتهتف كلها في لغة واحدة ، ونعمة واحدة ، « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ لَشَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمَلِكُ ، لَشَرِيكَ لَكَ » ، وهكذا تتجلى القومية الإسلامية في اللباس والهتاف ، وهما من أوضح ما تجلّت فيه قومية ، وفي وحدة المناسك والغايات التي يقوم بها جميع الأفراد والشعوب ، ويسعى إليها العرب والعجم ، ويلتقي عليها القاضي والداني ، فكلهم يطوفون حول بيت واحد ، ويسعون بين غايتين مشتركتين (الصفاء والمروة) ، وكلّهم يقصدون (منى) ، وكلّهم يؤمّون (عرفات) ويَقِفُونَ في موقف واحد ، وكلّهم يبيتون في مبيت واحد ، « فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضّالّين (١) » ، ويفيضون إفاضة واحدة ، « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم (٢) » ، وكلّهم يقفون أيّاماً في (منى) تجمع بينهم أشغال واحدة من نحر وحلق ورمي .

وما دام الحج - والحج فريضة باقية الى يوم القيامة ، ومؤسسة خالدة خلود هذه الأمة - فالمسلمون لا يتعلمهم القوميات ، كما ابتلعت أمماً كثيرة ، ولا يصبغون ضحيتها ، ولا تكون بلادهم التي يحبونها بسائق الفطرة والعاطفة والعصبية ، قبله يتوجهون إليها ، وكعبة يحجون إليها ، إنما هي قبله واحدة يتوجه إليها الشرقي والغربي ، والعجمي والعربي ، وإنما هي كعبة واحدة يحجّ إليها الهندي والأفغاني ، والمسلم الأوروبي والأمريكي ، « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى (٣) » ، ويحجّ إليها المسلم في أقصى الأرض ، وينذر لهذه الرحلة النذور ويسعى إليها على الرأس والعين ، ويعتبر ذلك غاية الأوطار وأقصى

(١) سورة البقرة : ١٩٨ .

(٢) سورة البقرة : ١٩٩ .

(٣) سورة البقرة : ١٢٥ .

الأماني وأعظم السعادات .

ليشهدوا منافع لهم :

وشرع الحج لجميع هذه الفوائد والمنافع التي نعلم منها الكثير ، ونجهل منها الكثير ، وربما كان ما نجهله ونتمتع به أكثر مما نعرفه ، وبما فوه به حكماء الإسلام ، وأشادوا به في مؤلفاتهم ، فقد قال الله تعالى : (ليشهدوا منافع لهم ^(١)) ، فأطلق المنافع ، ونكرها وأبهما ، ودل هذا التعبير البليغ على كثرتها وتنوعها وتجددها ، في كل زمان وإنما أكثر من أن يأتي عليها الإحصاء والاستقصاء ^(٢) .

(١) سورة الحج : ٢٨ .

(٢) إن الحج لا شك موسم ، يشهده المسلمون من آفاق الأرض ولواحي العالم الإسلامي . ليشهدوا منافع لهم ، فيستطيعون أن يتبادلوا الرأي السديد والفكر الحصيف ، ويتعرف بعضهم ببعض ، ويمتصروا على كلمة واحدة ومصلة واحدة راجحة راشدة . ولكن ليست هذه حكمة الحج الوحيدة . كما اعتاد الكتاب المصريون أن ينهروا بها . وليس الحج مؤتمراً سياسياً فعصب ، كما يصوره كثير من حملة الأقلام . ورجال السياسة والاجتماع في هذا العصر ، فلو كانت هذه هي الحكمة التي شرع لها الحج ، لكان في الحج استقرار وسادة جو من الهدوء يساعد على ذلك ، ولكنه اضطراب وانتقال من مكان إلى مكان ومن نكسك إلى نكسك ، وكانت دعوة مقصورة على العلماء والزعماء ، والأذكياء والنبهاء ، وعلى الخاصة من المسامين ، إنها لا شك ثمرة من ثمرات الحج ، ولكن ليست هي الغاية التي شرعت لها هذه الفريضة العظيمة ، وقد فرضت على المسلمين ، فقال تعالى : « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ملك زاداً وراحلة تلبغه إلى بيت الله ولم يحج ، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً » ، ولحسان له وضع غير هذا الوضع ، ومكان غير هذا المكان القاحل النائي .

يجب أن يُمثّل البلد الأمين الحياة الإسلامية ،
والاجتماع الاسلامي المثالي ، في كل زمان :

ولما كان الحج عرضة سنوية للملّة ، يلتقي فيها المسلمون على صعيد واحد من العقيدة والعاطفة والغاية ، في جوٍ دينيٍ ربّانيٍ ، وفي محيطٍ روحيٍ إيمانيٍ ، يستمدون منه قوة جديدة وروحاً جديدة ، ويُصحّحون ما وقع في عقيدتهم من انحراف ، وفي عاداتهم وشعاراتهم من فساد ، وما اعترام من زيغ أو وهن بتأثير الحضارات والفلسفات العجمية الأجنبية ، وتقليد الشعوب والأمم التي تجاورهم ، أو يعيشون فيها ، ويستطيعون أن يردّوا كل شيء الى أصله ، وأن يستقوا الدين من منابعه الصافية الأصيلة ، وجب بحكم العقل والمنطق ، وبحكم روح الاسلام وحكمة الحج ، أن يظلّ البلد الأمين الذي يقع فيه الحج ، ويدور حوله ، أميناً للحياة الإسلامية ، الصافية الأصيلة (يصور الحياة الإسلامية) بجميع جوانبها ومزاياها ومظاهرها ، حتى يلمسها ويتذوّقها كل وارد إليه مها قصرت إقامته وقلّت معرفته ، لأن الله قد قضى أن يكون هذا البلد مركز الحج الى آخر الزمان ، ومثابة للمسلمين من جميع أنحاء العالم في كل سنة ، يَفِدون إليه ، وهم مؤمنون بحق بأنهم يقصدون بلداً هو معدن الطهر ، ومولد الدين وعاصمة الاسلام الروحية ، وكل ما يشاهد ويسمع في جوانبه هو حجة للمسلم الغريب الذي يعيش بعيداً عن مهد الاسلام ، وليس بعد عمل أهل مكة والمدينة حجة عند عامة المسلمين « وما وراء عبّادان قرية » .

وهذه الطبيعة البشرية التي لا نستطيع أن نتغلّب عليها بمنطق أو دليل ، أو خطابة أو بلاغة ، وهو الاحتجاج بعمل أهل المركز زعيم لدين أو حضارة ، وهو العرف الذي جرى في مجال اللغة والآداب ، والحضارة والفقّه ، فكانت لغة قريش ، ثم لغة البادية العربية ، هي الحجة في اللغة العربية ، ومناهج كلامها ولهجتها ، وكان عمل أهل المدينة حجة في مذهب كبيرٍ من المذاهب الفقهية

الاسلامية (١) ، وظلّ عمل أهل قرطبة حجة عند كثير من فقهاء المغرب عندما كانت في أوجها العلمي الثقافي ، وكانت مجمع العلماء والقضاة ، واحتجّ الناس قديماً وحديثاً بعمادات عاصمة البلاد ومركزها الحضاري ، وتنافس الناس في تقليدها ، ورأوا فيها المثل الكامل ، والقدوة في الحضارة والأناقة والظرف ، ودعاة الاسلام وزعماء الاصلاح يلقون صعوبة ومحنة ، اذا احتجّ الحجاج بما قد يشاهدونه ويسمعونه في مركز الاسلام ومهبط الوحي مما لا يتفق مع أحكام الشريعة الاسلامية ، أو آدابها ويصعب ازالتهن عن ذلك (٢) »

يجب أن يبقى « البلد الأمين » محتفظاً بطراز خاص ، والحج بروح الجهاد والتكشف :

وجانب أدق من هذا ، وهو أن يبقى هذا البلد الأمين - على مرّ العصور والأجيال ، ورغم تطورات المدنية ومرافق الحياة في العالم - محافظاً على شيء من البساطة والطبيعية ، وعلى شيء من التكشف ، ويتذكر فيه الواقدون من أنحاء العالم ، الجوّ الذي كان المسلمون الأولون يقضون فيه مناسكهم ، ويشعرون بشعورهم ، أو قريب من شعورهم ، ويشعرون بانتقال من عالم إلى عالم ، ومن جوّ إلى جوّ ، ومن حياة إلى حياة ، فإنّ هذا الشعور يحدث في النفوس تخليطاً عن الماضي ، واستعداداً لتلقي شيء جديد ، وفرحة روحية لا يشعرون بها في مكانهم ، أما إذا بقي البيت وحده ، والحرم وحده على قديمها ، وتغير كل شيء حولها ، وأصبح البلد الأمين وما جاوره من البقاع قطعة من أوروبا أو أمريكا ، وحلّت المدينة الغربية بحيراتها وشرورها ، وبأصولها وفضولها ، وأصبح الحاج الذي وصفه لسان الشرع « بالشمع التفل » يتقلّب في أعطاف

(١) كالذهب المالكي .

(٢) مقتبس من حديث ألقاه المؤلف في المؤتمر الاسلامي الذي عقده رابطة العالم الاسلامي في مكة ، سنة ١٣٨٤ هـ .

المدنية والنعمية ، وينتقل من راحة الى راحة ، ومن تنعم الى تنعم ، ومن حديث الى أحدث ، فإنه لا يشعر بشيء جديد قوي يحدث في مشاعره انقلاباً ، ويشحنه شحناً روحياً .

ولذلك اعتبر الحج صنو الجهاد ، وقد روى البخاري عن عائشة مرفوعاً : « أفضل الجهاد وأجمله حج مبرور » ، وعنها ، قالت ، « قلت يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد ؟ فقال : لكن أفضل الجهاد حج مبرور » ، وكان عمر رضي الله تعالى عنه يقول : « شدوا الرحال في الحج ، فإنّه أحد الجهادين » . وإذا تطورت مكة تطوراً جذرياً ، واقتبست من الحضارة الغربية جميع مرافقها ووسائلها ، وتوفرت للحج جميع أسباب الراحة والتنعم التي لا توجد إلاّ في العواصم الغربية الكبرى ، شعر الحاج بشيء من الفراغ الروحي ، وبشيء من الجفاف ، وبانحطاط ملموس في فوائد الحج ، وآثاره في النفس والحياة .

**التشريعات الحكيمة لزيادة فائدة الحج ،
وتقوية أثره في النفس والحياة :**

وقد هيأ الوحي الإلهي والتشريع السماوي للحج جواً ، يثير الجذب والقصد ، وينبّه النفس والفكر ، ويمحوه بسياج من العبادة والروحانية والقدسية ، فإنّه كان في أكثر الأحيان رحلة طويلة ، وانتقالاً من بلد الى بلد يمرّ فيه الحاج ببقاع مختلفة ، وأجواء متنوعة ، وملاذٍ ومكاهٍ ، وشواغل وصوارف قد تقصر فيها المدة وقد تطول ، ويدخل في بلد جديد ، ويختلط بأقوام وطبقات كثيرة ، ويخرج النساء مع الرجال ، وفيهم الشيوخ والشباب ، وقد تجتمع أفراد الأسرة أحياناً ، ويكون الرجل مع زوجته وأهل بيته ، وكل ذلك خليق بأن يفقد الحج روعته ومهابته وقدسه ، وروح العبادة والجهاد فيه ، وتصبح هذه

الرحلة كأى رحلة عادية طبيعية ، أو الإقامة في مكة ، والتنقل في مواضع المناسك كأى إقامة في أي بلد .

لذلك أضحى التشريع على الحج لونا لا يزول ، لونا من الجدية والقدس ، وحاطه بأسوار وخنادق عديدة ، جعلته بعيداً عن الغفلة والذهول ، والعبث والفضول ، وله في ذلك تشريعات دقيقة حكيمة ، كانت كفيلاً بأن يبقى الحج عبادة عميقة الأثر ، في النفس والحياة ، وركناً من أركان الإصلاح والتربية ، ووسيلة قوية للتقرب الى الله .

منها ، أنه جعل ركناً من أركان الإسلام الأربعة ، وفريضة على من استوفى شروطها ، لا يقبل الله عنها صرفاً ولا عدلاً ، فقال تعالى : « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين » (١) ، وقد روى الترمذي عن علي رضي الله تعالى عنه رفعه : « من ملك راحلةً وزاد أيلعه الى بيت الله الحرام ولم يحج ، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً ، وذلك أن الله تعالى يقول : « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً » ، وقال النبي ﷺ : « بُني الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت ، من استطاع إليه سبيلاً » (٢) ،

وقد نوه لسان النبوة بفضل الحج ومكانته عند الله ، وأكثر من بيان فضائله ، لأنها هي التي تثير في النفس الشوق والرغبة ، وتبعث الإيمان والاحتساب ، فلا قيمة لعمل أو عبادة حتى تقترن بهما ويكونان هما الباعثين على إتيانها ، فقد روى الستة عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً : « الحج

(١) سورة آل عمران : ٩٧ .
(٢) متفق عليه .

المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنة» «وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه : قال ، قال رسول الله ﷺ : « من حجّ لله فلم يرفث ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أمه »^(١) وروى عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، قال ، « قال رسول الله ﷺ : تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة ، وليس لحجة مبرورة ثواب إلاّ الجنة ، وما من مؤمن يظل يومه محرماً إلاّ غابت الشمس بذنوبه»^(٢) ، وعن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ قال : « ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفه »^(٣) « وسئل النبي ﷺ ، « أيّ العمل أفضل ؟ قال إيمان بالله ورسوله ، قيل ، ثم ماذا ؟ قال الجهاد في سبيل الله ، قيل ، ثم ماذا ؟ قال حج مبرور »^(٤) .

ومن هذه التشريعات الدقيقة الحكيمة ، « المواقيت » التي تُنتبه في الحاج شعوراً جديداً ، وديقظة فكرية روحية ، فيعرف أنّه دنا من الحضرة الملوكية ، ودخل في حدودها المحمية المقدسة ، فلولا المواقيت لاقتحم الحجاج الحضرة المقدسة ، وهجموا عليها كما يهجم الجهال الأجلاف على حضرة الملوك وعتبة السلاطين ، فيقابلون باستنكار وجفاء ، وطرد وإهانة ، وقد أحسن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي بيان حكمة المواقيت ، وسرّ تشريعها وتعيينها للقاصدين من جهات مختلفة ، قال :

« الأصل في المواقيت ، أنه لما كان الإتيان الى مكة شعناً قفلاً ، تاركاً لغلواء نفسه مطلوباً ، وكان في تكليف الإنسان ، ان يحرم من بلده حرج ظاهر ، فإن منهم من يكون قطره على مسيرة شهر وشهرين وأكثر ، وجب ان يُخصّص أمكنة معلومة حول مكة يحرمون منها ، ولا يؤخرون الإحرام بعدها ، ولا

(١) للسته ، إلاّ أبا داود .

(٢) للنسائي ، والترمذي بلغظه .

(٣) رواه مسلم .

(٤) متفق عليه .

بد أن تكون تلك المواضع ظاهرة مشهورة ؛ ولا تخفى على أحد ، وعليها مرور أهل الآفاق ، فاستقرأ ذلك ، وحكم بهذه المواضع ، واختار لأهل المدينة أبعد المواقيت ، لأنها مهبط الوحي ومأرز الإيمان ودار الهجرة ، وأول قرية آمنت بالله ورسوله ، فأهلها أحق بأن يببالغوا في إعلاء كلمة الله ، وان يخصوا بزيادة طاعة الله ، وأيضاً فهي أقرب الأقطار التي آمنت في زمان رسول الله ﷺ ، وأخلصت إيمانها بخلاف جوثاى والطائف واليمامة وغيرها ، فلا حرج عليها (١) .

ومنها « الإحرام » الذي ينبه في الحاج الشعور والانتباه ، ويكون حارساً له عن الغفلة والذهول ، وينبهه الى أنه مقبل على أمر عظيم ، وأنه قاصد للحضرة الملوكية ، والى أنه تجرد مما كان فيه من مظاهر جوفاء وشعارات زائفة ، وأبهة مصطنعة ، فيصير هذا الإحرام كالتحرية للصلاة تنقلو من جو الى جو ، ومن حرية وانطلاق الى تقييد وارتباط ، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي رحمة الله عليه :

« إعلم أن الإحرام في الحج والعمرة بمنزلة التكبير في الصلاة ، فيه تصوير الاخلاص والتعظيم وضبط عزيمة الحج بفعل ظاهر ، وفيه جعل النفس متذلة خاشعة لله بترك الملاذ والعادات المألوفة وأنواع التجمل ، وفيه تحقيق معاناة التعب والتشعث والتغير لله (٢) » .

وكذلك شرع للخروج من الإحرام والتحرر من قيوده وأحكامه طريقة ظاهرة تنبه في النفس الشعور ، ولا يصعب إتقانها ، فلا يخرج الحاج من إحرامه فلتة او مفاجأة ، ويتمتع بالمباحات ، إلا بعمل ظاهر ، وقصد وإرادة ، كما لا يخرج من صلاته إلا بالتسليم ، وهو الحلق ، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي :

(١) حجة الله البالغة - ج ٢ - ص ٤٤ .

(٢) حجة الله البالغة - ج ٢ - ص ٤٤ .

« السر في الخلق أنه تمييز طريق للخروج من الإحرام بفعل لا ينافي الوقار ، فلو تركهم وأنفسهم ، لذهب كل مذهباً ، وأيضاً ففيه تحقيق انقضاء التشمع والتفبر بالوجه الأتم ، ومثله كمثل السلام من الصلاة (١) . »

ومنها « التلبية » التي حث الشرع على الإكثار منها ، واستحسن النبي ﷺ رفع الصوت بها وتكثيرها ، وقد سئل أي الحج أفضل ، قال : « المعج والشيء (٢) » ، وفي التلبية تأثير غريب في تنبيه النفس وإيقاظها لمقاصد الحج ، وشحنها بالإيمان والحنان ، والاطراح على عتبة الرحمن ، وبها يسري التيار الإيماني الروحي في جسم الحاج ومشاعره وأعصابه ، كما يسري التيار الكهربائي في الأسلاك ، ويُمدد الحاج للإستفادة من هذا الركن العظيم ، الذي قد يكون ، قد هجم عليه من غير استعداد ، أو من غير تفقه ووعي ، فإذا قال : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » ، تمثل له الحج ومقاصده العظيمة وروحه ، وثار فيه الأشواق ، وقاضت كأس الحب والحنان ، والتهدت شعلة التوحيد في عروقه ودمه ، واتصل بإبراهيم الخليل ، الموحد الخنيف ، واتصل بمحمد ﷺ ، والداعين بدعوته اتصالاً فكرياً روحياً ، واندمج في حزبهم .

وقد جمع الله للحج حرمتين ، حرمة الزمان والمكان ، ليقوى الشعور بجرمة هذا الركن العظيم ، وجلاله وروعته ، والشعور بالمسؤولية ، وليكون الحاج في جميع تنقلاته وحركاته وسكناته مرهف الحس حاضر الفكر ، لا يذهل لحظة عن الجو الروحاني الذي يحيط به .

فقال تعالى : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله ، يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن

(١) حجة الله البالغة - ج ٢ - ص ٤٥ .

(٢) رواه ابن ماجه في سننه ، عن ابن عمر رضي الله عنه .

أنفسكم^(١)». وقال: «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير^(٢)»، وقد روى مسلم عن النبي ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، ذو الحجة، المحرم - ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان». وأما حرمة المكان، فقد جاء في القرآن: «إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها، وله كل شيء، وأمرت أن أكون من المسلمين^(٣)»، «وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح (فتح مكة): لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا، وقال يوم الفتح - فتح مكة -: إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بجرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل فيه القتال لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بجرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكة، ولا ينفّر صيده، ولا يلتقط لقطته، إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها، وقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر، فإنه لقينهم وليبوتهم، فقال: إلا الإذخر».

وقد كانت المعصية في الحرم أغلظ وأشد، وقد استدل بعض العلماء على أن إرادة المعصية فيه معصية، بخلاف غيره من البقاع، بقوله تعالى: «ومن يُرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم^(٤)». قال ابن كثير، وهذا من خصوصية الحرم، أنه يعاقب البادي فيه الشر إذا كان عازماً عليه، وإن لم يوقعه.

وقد ضم إلى ذلك كله حرمة الإحرام، وشرع له أحكاماً وآداباً خاصة،

(١) سورة التوبة: آية: ٣٦.

(٢) سورة البقرة: آية: ٢١٧.

(٣) سورة النمل: آية: ٩١.

(٤) سورة الحج: آية: ٢٥.

منها: حرمة الصيد في حالة الإحرام ، فقد قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم (١) » وقال . « أحلّ لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة ، وحرّم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً واتقوا الله الذي إليه تحشرون (٢) » .

يقول شيخ الإسلام الدهلوي رحمه الله عليه :

« وإنما شرع ان يجتنب المحرم هذه الأشياء تحقيقاً للتذلل وترك الزينة والتشعث ، وتنوياً لاستشعار خوف الله وتعظيمه ، ومواخذة نفسه ، ان لا تسترسل في هواها ، وإنما الصيد تليّه وتوسع (٣) » .

ولما كان الحج سफراً طويلاً في غالب الأحيان ، وقد قال الله تعالى : « وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فجٍ عميق (٤) » ، وانتقال من حال الى حال ، ويكثر فيه الاختلاط ، وتطول الزمالة ، وتتنوع المعاملات ، كان ذلك مشاراً لكثير من المحظورات والمغريات والمناقشات ، وكثيراً ما تثور النفس ويضيق الصدر ، وينفد الصبر ، فيلجأ الحاج الى ما يتحاشى عنه في الوطن والإقامة ، والأحوال العادية ، ويتورط في بعض المعاصي والأخلاق القبيحة ، وما ينافي روح الحج ومقاصده ، فجاء النهي عن ذلك بصفة خاصة في الحج ، لأن الحج مظنة قوية له ، فقال تعالى : « الحج أشهر معلومات (٥) »

(١) سورة المائدة : آية : ٩٥ .

(٢) سورة المائدة : آية : ٩٦ - إقرأ تفسير الآيتين والأحكام الفقهية المتفرعة منها ، وما في ذلك من خلاف ، وتفصيل في كتب التفسير وأحكام القرآن .

(٣) حجة الله البالغة - ج ٢ - ص ٤٤ .

(٤) سورة الحج : آية : ٢٧ .

(٥) هي شوال ، وذو القعدة وعشر من ذي الحجة ، علقه البخاري بصيغة الجزم ، ورواه ابن جرير موصولاً ، وهو مروى عن أكثر الصحابة وفضلاء التابعين ، وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة ، وأحمد بن حنبل ، (راجع تفسير ابن كثير) .

فمن فرّضَ فبين الحج فلا رفت ولا فسوق، ولا جدال في الحج (١) وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، واثقون يا أولي الألباب (٢) .

وقد أسبغت هذه التشريعات ، وهذه الأحكام التي تتصل بالقلب والجوارح ، والقصد والعمل ، والزمان والمكان ، على الحج لباساً من القدس ، والطهر ، والتورع والتكشف ، والمراقبة لله تعالى ، والحسبة للنفس والجهاد ، لا يشاركه فيه ما يماثله ، أو يدخل في موضوعه في الديانات الأخرى وطوائف الأمم ، وكانت لها آثار عميقة في النفس والأخلاق والحياة ، يتحقق معها قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « من حجّ الله فلم يرفث ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أمه (٣) » .

حجة الوداع وقيمتها التربوية والبلاغية :

حج رسول الله ﷺ سنة عشر من الهجرة ، وكانت حجة الإسلام ، وشهد معه هذا الحج أكثر من مئة ألف إنسان ، وهي حجة الوداع (٤) .

وقد دلت كل القرائن على أن هذه الحجة كانت مقصودة من الله بهذا التفصيل ، ولم تكن فلتة من الفلتات ، بل جاءت في وقتها المناسب ، « وكل شيء عنده بمقدار » وكان في تأخيرها إلى هذا الوقت حكمة بالغة ، ومصلحة راجحة ، فقد انتشر الإسلام في جزيرة العرب ، وكثر المسلمون ، وقوي الإيمان ، وشبّ الحب ، واستعدت النفوس للتعلم والاستفادة ، وهفت القلوب ، ورنّت العيون إلى المشاهدة والمراقبة ، ودنت ساعة الفراق ، فألجأت الضرورة إلى وداع الأمة ، فخرج رسول الله ﷺ من المدينة المنورة ليحج البيت ، ويلقى المسلمين ،

(١) إقرأ تفسير الكلمات وأمثلتها في كتب التفسير والأحكام .

(٢) سورة البقرة : آية : ١٩٧ .

(٣) رواه السنة عن أبي هريرة ، إلا أبا داود .

(٤) وتسمى « حجة الإسلام » و« حجة البلاغ » و« حجة التمام » .

(البداية والنهاية والحيس)

ويعلمهم دينهم ومناسكهم ، ويؤدي الشهادة ، ويبلغ الأمانة ، ويوصي الوصايا الأخيرة ، يأخذ من المسلمين العهد الميثاق ، ويمحو آثار الجاهلية ويطمسها ، ويضعها تحت قدميه .

فكانت هذه الحجة تقوم مقام ألف خطبة ، وألف درس ، وكانت مدرسة متنقلة ، ومسجداً سياراً ، وثكنة جوالة ، يتعلم فيها الجاهل وينتبه الغافل ، وينشط فيها الكسلان ، ويقوى فيها الضعيف ، وكانت سحابة واحدة تغشاهم في الحل والترحال هي سحابة صحبة النبي ﷺ وحبه وعطفه ، وتربيته وإشرافه .

وقد كان من آثار نضج المسلمين العقلي ، وقوة حُبهم ، وشدة تعلقهم بكل ما يصدر عن هذه الشخصية الحبيبة المفداة ، أن سجلوا كل دقيقة من دقائق هذه الرحلة ، وكل حادث من حوادثها الصغيرة ، لا يحتفل بأمثالها في رحلات العظماء والرؤساء ، والملوك والأمراء ، والعلماء والنبغاء ، وذلك شأن الحب الوامق ، والماشق الصادق ، الذي يرى كل شيء محبوبه حسناً ، فليتلمذ بذكره ، ويسترسل في حديثه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها ولا دقيقة نادرة إلا يستقصيها .

يتطيب رسول الله عند إحرامه فيذكرون من باشر هذا التطيب ، ويذكرون نوع هذا الطيب ، فيقولون : « ثم طيبته عائشة بيدها بذريرة »^(١) وطيب فيه مسك ، حتى يرى وبيض المسك في مفارقه ولحيتيه ﷺ ويشعر رسول الله ﷺ هديه ، فيذكرون تفصيله وتحديدته ، هل كان في الجانب الأيمن أو الأيسر ، وكيف سالت عنها الدم ، ويذكرون احتجامه ، والاحتجام فعل طبي طبيعي لا صلة له بمناسك الحج ، فيحددون مكانه من الجسم ، وموضعه من

(١) وقد أفاض الشراح في وصف الذريرة وأنواعها ، راجع هذا الكتاب .

الطريق ، فيقولون : « واحتجم بمل » (وملل موضع بين مكة والمدينة على سبعة عشر ميلاً من المدينة) ويقولون : « واحتجم على رأسه بلحى جمل (وهو موضع في طريق مكة) وتهدى له قطعة لحم ، وهي حادثة عادية تتكرر ولا تسترعى الاهتمام في عامة الأحوال ، فيذكرونها بالتحديد والتفصيل ، فيقول الراوي « حتى إذا كانوا بالأبواء أهدى له الصعب بن جثامة عجز حمار وحشى » ويحددون المنازل بين ... المدينة ومكة ، ويعدون أيامه في السفر ، وذلك في زمان لم يعرف الناس فيه كتابسة اليوميات ، وتدوين المذكرات ، ولكن الحب يلهم ويخترع ، فيقول الراوي ثم نهض إلى أن نزل بندي طوى ، فبات بها ليلة الأحد لأربع خلون من ذى الحجة ، وصلى بها الصبح ، ثم اغتسل من يومه ونهض إلى مكة ، ولم تفتهم شاردة ولا نادرة في هذه الرحلة التي كثرت فيها الشواغل ، وتعددت فيها المنازل ، واشتد فيها الزحام ، فلم يفهم ان يقيدوا خروج حية في هذا المشهد الحافل ، وإفلاتها من القتل ، فيقول الراوي وهو يذكر ليلة منى : « وخرجت حية وأرادو قتلها ، فدخلت في جحرها ، ويذكرون كل من كان رديف^(١) رسول الله ﷺ في هذه الرحلة ، ويذكرون اسم الحلاق وكيف قسم شعره ومن خصهم بالشق الأيمن ، ومن خصهم بالشق الأيسر ، وهذه كلها تفاصيل ودقائق لم يكن مصدرها إلا الحب العميق .

ومن العبث وإضاعة الوقت أن يبحث عن نظائرها في رحلات القادة ، وتاريخ المشاهير ، وقد أخلت أمم كثيرة بحياة انبيائها وسيرهم وأخبارهم ، ومراحل حياتهم ، وضيعوا منها الشيء الكثير ، الذي لا تكمل حياتهم ولا يتم تاريخهم إلا به ، ولم يحافظوا إلا على النزر اليسير من أخبارهم وأحوالهم ، فجل

(١) وقد استوعب صاحب « نسيم الرياض » أسماء كل من أردفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته، فذكر نحو ثمانية وثلاثين رديفاً، وزاد ابن مندة على هذا العدد، راجع هذا الكتاب.

ما نعرف من حياة سيدنا المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، هو أخبار السنوات الثلاث الأخيرة من سيرته وأخباره^(١) ، وهناك أصحاب رسالات وديانات في بلاد متمدنة عريقة في العالم لم تبق إلا أسماؤهم ونتف من أخبارهم لا تشفي العليل ، ولا تروي الغليل ، ولا تقود الأجيال ولا تثير السبيل^(٢) .

« الحج والزيارة » في الديانات القديمة ، مساتها وفوارقها :

لم تُعرف أمة ولا ديانة من أمم البشر ودياناتهم ، إلا وعندها أمكنة مقدسة تشد إليها الرحال ، وتحت فيها المطي ، ولها طرق وعادات وتقاليد ، وآداب لهذا السفر الديني ، « والزيارة المقدسة » وذلك لأن هذا العمل إجابة لحاكم الطبيعة ، وتلبية لنداء الضمير ، فالإنسان كما قلنا لم يزل باحثاً عن شيء يراه بعينه ، ويوجه إليه أشواقه ، ويقضي به حنينه ، ويشبع به رغبته الملحة في التعظيم والدنو ، ولم يزل باحثاً كذلك عن عمل طويل شاق يكفّر به عن ذنوبه الجسام ، وسقطاته الفاضحة ، ليتغلب به على وخز الضمير وتأنيب الحس الديني ولائمة المجتمع ، ولم يزل في حاجة إلى مشهد ديني عظيم ، يلتقي فيه على الأخوة الدينية والعاطفة الروحية ، لذلك لم تخل أمة من الأمم ، ولا دور من أدوار المدنية من أسفار دينية ، ومناسك مشهورة ومشاهد مقدسة يجتمع فيها الناس ، ويذبحون الذبائح ، ويقربون القرابين لله تعالى ، أو لآلهتهم ومعبوداتهم ، وقد قال الله تعالى : « ولكل أمة جعلنا منسكاً ليدكروا اسم الله على ما رزقهم

(١) وقد توصل الباحثون والمؤرخون أخيراً إلى أن هذه المدة كانت أقل مما ذكر بكثير ، فهي لا تزيد على شهرين أو ثلاثة أشهر اقرأ المقالة الواردة في دائرة المعارف البريطانية .
(٢) مقتبس من تقديم لكتاب « حجة الوداع و عمرات النبي صلى الله عليه وسلم ، للعلامة الشيخ محمد ذكريا الكاندهلوى » بقلم أبي الحسن علي الندوي .

من بهيمة الأنعام فإلهم إله واحد ، فله أسلموا وبشر الخبتين ^(١) » وقال :
« لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازِعُنكَ في الأمر وادع الى ربك
انك لعلى هدى مستقيم ^(٢) » ، وقد اكتشفت الآثار وعملية الحفر عن هذه
المناسك والمشاهد في المدن البائدة ، والمدن المطمورة ، وتحديث التاريخ عن
وجودها ، وعن بعض أخبارها ، ولكن الاهتداء الى حقيقتها وتاريخها ،
والأحكام والآداب التي تتعلق بها صعب جداً ، فقد لا يرجع الباحث في ذلك ،
الابقياسات وأخبار متقطعة مبتورة ، لا يستطيع أن يكونَ بها فكرة
كاملة ، او صورة واضحة :

والديانة اليهودية ، ثم المسيحية من أقرب الديانات إلينا ، وقد عاشتا زمنًا
طويلاً في عصر التاريخ والعلم ، وعُني بها المؤرخون والمؤلفون ، ولا تزالان
ديانتين أمتين كبيرتين نشيطتين في الثقافة والتأليف والسياسة ، والبيت المقدس
وما حوله من آثار ومشاهد ملتقى هاتين الديانتين ، ومركزهما الروحي الأصيل ،
والحج إليه قديم وأصيل عندهما ، ولكن لا يزال هذا الركن الديني الكبير
يكتنفه الشيء الكثير من الغموض والاضطراب ، وقلة المعلومات ، (إذا قارنا
ذلك بالحج الإسلامي ، الذي تشغل مناسكه وأحكامه وتفصيله مكتبة واسعة
هائلة ، وهو مدوّن تدويناً لا يجد فيه الباحث عناء) . وهنا خلاصة ما جاء في
« دائرة المعارف اليهودية » المجلد العاشر ^(٣) :

« إن الحج الى بيت المقدس الذي كان يدعى بالزيارة (RE YIAH) يؤدي في

(١) سورة الحج : آية : ٣٤ .

(٢) سورة الحج : آية : ٦٧ .

(٣) جيويش انساكلوبيديا (Jewish Encyclopaedia - Vol - See Pilgrimage) .

زمن ثلاثة أعياد (وهي عيد الحصاد^(١) وعيد الفصح (اليهودي) وعيد المظال ، وكان الحج فريضة على جميع اليهود ، بإستثناء الصغار الذين لم يبلغوا الحلم ، والإناث ، والعميان ، والعرج ، والضعفاء والمصابين بأمراض بدنية او عقلية ، وكانت الشريعة الموسوية توجب على كل « حاج او زائر » ان يأخذ معه « مقدمة للرب » ، ولكنها لم تعين المقدار ، وكان رغم إعفاء الإناث والصغار عن الزيارة ، كان يؤمه عدد كبير منهم مع الأزواج والآباء كما هو الشأن في الأسواق العامة ، ولا تخلو الروايات التي وردت عن عدد الزائرين في أزمنة مختلفة من المبالغة^(٢) ، وكانت الحرفان تذبج في عدد كبير ، وكانت جلود الذبائح تقدم الى حراس الخانات الذين كانوا يقومون بخدمة الزوار وإيواءهم من غير مقابل .

ولم تنقطع عبادة الحج بعد تدمير « المعبد » أيضاً ، ولما فتح المسلمون بيت المقدس بقيادة صلاح الدين عام ١١٨٧ م ، تسنى لليهود القاطنين في المنطقة الشرقية ان يزوروا بيت المقدس ، وما عداه من الأماكن المقدسة (بين دمشق ، وبابل ، ومصر) وقد اعتاد اليهود في الشرق ولا سيما في بابل وكردستان من القرن الرابع عشر الميلادي ، ان يؤدوا فريضة الحج مرة في السنة ، على أقل تقدير ، وكان عدد منهم يقوم بهذا الحج مشياً على الأقدام ، وقد كانت الحروب الصليبية مشجعة لليهود في أوروبا على الحج والزيارة ، وفي عام ١٤٩٢ م عندما

(١) جاء في دائرة المعارف اليهودية تحت عنوان عيد الحصاد ، وهو من أعياد الحج الثلاثة التي كان جميع الذكور مكلفين فيه بالحضور في بيت المقدس ، إقرأ عنوات : (Pentecos) .

(٢) منها ، ما قيل أنه بلغ عدد الحرفان المذبوحة ، في عام بين ٦٣ - ٦٦ م الى ٢٥٦٥٠٠ ، فإذا فرض أن خروفاً كان يسام فيه عشرة رجال من الحجاج يبلغ عددهم الى أكثر من مليونين ونصف ، حاج او زائر ، ويذكر مصدر يهودي أنه بلغ عدد الحرفان الى ١٢٠٠٠٠ خروفاً ، وقد اعترف كاتب المقال في « دائرة المعارف » بأنه لا يتخار من المبالغة .

أجلى اليهود من اسبانيا ، وهاجر عدد كبير منهم الى مناطق المسلمين ، تضاعف عدد اليهود الزوار ، وربما كانوا يجتمعون على قبر النبي صموئيل في قرية الرامة (١) ، حيث كانت تقوم أسواق عيدهم السنوي ، وتقام التقاليد الدينية .

يعاتب اليهود إخوانهم القاطنين في بلدان أخرى ، الذين ضعفت فيهم رغبة الحج والزيارة ، وزهدوا فيها ، بينما ينتهز المسيحيون الفرص لزيارة الأرض المقدسة .

وللحج أيام معينة يسميها اليهود في الشرق وشمالى افريقيا أيام الزيارة ، وقد شاع فيهم ان يزوروا فيها قبور عظمائهم ، ومنهم من اشتهر كملك ، او كني ، او كصالح وولي ، وهم يحتفلون بهذه الأيام بالإكثار من الأدعية وإظهار الفرح والسرور ، شأنهم في الأعياد العامة ، ويجتمعون بين مساء اليوم السابع عشر من تموز الى اليوم التاسع من « آب » ثلاثة وعشرين يوماً متوالية ، مقابل الجدار الغربي لهيكل « سليمان » ، وتبتدىء هذه العبادة في اليوم التاسع من آب ، من نصف الليل .

وهناك مشاهد وضرائح وأمكنة محلية ، يُشد إليها الرحال في كل قطر وبلد (٢) .

أما الحج والزيارة عند المسيحيين ، فهنا خلاصة لما جاء في « دائرة معارف الأديان والأخلاق » :

(١) قرية في فلسطين (الجليل) .

(٢) راجع دائرة المعارف اليهودية . عنوان « Pilgrimage » .

« الحج اسم للرحلة التي يقوم بها الإنسان لزيارة المشاهد المقدسة ، مثل مشاهد الحياه الدنيوية لسيدنا عيسى عليه السلام في فلسطين ، او مراكز زعماء الدين المقدسة في « روما » ، او الأماكن المقدسة التي تنسب الى المقبولين من الزهاد والشهداء .

إن الجيل المسيحي الأول لم يشعر بضرورة زيارة مشاهد المسيح والتبرك بها ، بالنسبة الى المتأخرين الذين عنوا بذلك أكثر ، ولكن انتشرت هذه الزيارة من القرن الثالث المسيحي ، وقد شغف عدد كبير من المسيحيين بالبحث عن مشاهد المسيح وآثاره ، وزيارتها ، وعنوا بذلك أكثر مما عنوا بتتبع تعاليمه ووصاياه .

وقد شاعت زيارة مشاهد روما من القرن الثالث عشر على حساب زيارة الأرض المقدسة ، وان لم تنقطع زيارة الأرض المقدسة بتاتا ، وكانت « روما » المدينة التي تلي بيت المقدس في الأهمية ، يؤمها الناس للزيارة في عدد كبير وجم غفير .

إن الأسباب التي بلغت بها البابوية قمتها ، جعلت روما مركزاً للزيارة ، ولا سيما ، فإن ضريحي القديس بطرس ، والقديس بولس قد أضفتا عليها من العظمة والجلال ما جعلها مثابة للمسيحيين الكاثوليك في العالم كله ، وازدهروا فيها ازدهاماً كبيراً ، وقد كانت اقبال الزوار عظيماً على سراديب الأموات (Cata combs)^(١) التي تقدس لأجل عظام الشهداء ، إن الزوار لم يتوقفوا عن زيارة « روما » في أي فترة من فترات التاريخ ، وقد جعلتها كثرة الكنائس والآثار التاريخية المقدسة محط أنظار الناس في كل زمان .

(١) تقع أشهر هذه السراديب في الفاتيكان .

والقارىء يتختم بكثرة أسماء القبور والضرائح والمشاهد ، العامة في أرض فلسطين ، والمحلية المنتشرة في كل قطر او ولاية ، او بسلد يقطنه اليهود والمسيحيون من زمن بعيد ، وصاحب مقال « الحج والزيارة » في « دائرة المعارف اليهودية » وفي « دائرة الديانات والأخلاق » يسرد أسماء ضرائح ومشاهد للصالحين والمقبولين في أقطار أوروبية وآسوية مختلفة ، ويذكر الأيام والشهور التي تزار فيها ، وما لهذه الزيارات من آداب وتقاليد ، واذا تأمل القارىء في مدى اهتمام اليهود والمسيحيين بهذه المشاهد ، وتقديسهم لها ، وتجشم الأسفار والمتاعب في سبيلها ، وكيف شغلتهم واستحوذت على مشاعرهم في كل زمان ومكان ، وكيف أثارت فيهم الغلو في التقديس والتعظيم ، حتى وصلوا الى حد الشرك ، وعبادة غير الله ، عرف سر شدة إنكار النبي صلى الله عليه وآله وسلم على هذه العادة ، وإشفاقه من ان يتسرب ذلك الى المسلمين - حملة لواء التوحيد الى الأبد ، والأمة الأخيرة - وحرصه الشديد على ان يبقى ضريحه ومثواه الأخير بعيداً عن كل شرك وعبادة وغلو ، وكان ذلك هو الشغل الشاغل له في مرضه الأخير ، فقد روى البخاري عن عائشة وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، قالوا : « لما نزل برسول الله ﷺ طفق ي طرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه ، فقال ، وهو كذلك ، لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا » . وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه « ان رسول الله ﷺ قال : قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، وعن عائشة رضي الله عنها « ان أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية ، فذكرت له ما رأت فيها من الصور ، فقال رسول الله ﷺ : أولئك قوم اذا مات فيهم العبد الصالح او الرجل الصالح ، بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله (١) » ، وثبت عنه ﷺ أنه قال : « اللهم لا تجعل قبري وثناً

(١) الجامع الصحيح للبخاري ، كتاب الصلاة - « باب الصلاة في البيعة » .

يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد (١) .

وقد ضيق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم السبيل في وجه تجسّم السفر الطويل ، وشدّ الرّحل إلى المشاهد والضرائح ، والأمكنة المتبركة بقوله المأثور المشهور : « لا تشدّ الرّحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ، ومسجد الرسول ، والمسجد الأقصى (٢) » ، فوقى بذلك أمته من الوقوع في فتنة المشاهد والآثار ، كما وقع فيها اليهود والنصارى ، والأمم الجاهلية ، وكانت فريسة الشرك والوثنية السافرة أحياناً كثيرة .

ولكن طوائف من المسلمين في القديم والحديث لم تعمل بوصيته التي لم ينسها في آخر عهده بالدنيا ، ولم تلق لها بالاً ، وافتتنت بالمشاهد والآثار ، وشدّ الرّحل إليها من بلدان نائية ، والعكوف عليها تبرّكاً وتعبداً ، افتتاناً عظيماً ، فكان ذلك تصديقاً لقوله ، وتحقيقاً لإخباره : لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مِنْ قَبْلِكُمْ شَبْرًا بِشَبْرٍ وَذُرَاعًا بِذُرَاعٍ (٣) ، واغتصبت هذه المشاهد والضرائح ، - ومنها ما هو مكذوب ومزور - حظّ المساجد ، وحظّ المسجد الحرام في بعض الأحيان ، وقد جعلها الجهال في كثير من الأقطار « كعبة » يشدّون إليها الرّحال ، ويقصدونها من نواح بعيدة ، وقد اتخذوها عيداً يعودون إليه في كل سنة ، ويجتمعون في عدد كبير ، ويقيمون الأسواق .

وقد أجاد شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية في وصف هذه الطوائف

(١) رواه مالك في الموطأ .

(٢) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، مرفوعاً .

(٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبتموم ، قيل يا رسول الله ، اليهود والنصارى ، قال ، فمن » (متفق عليه) .

يجملته التاريخية البليغة ، « مشاهدهم معمورة ، ومساجدهم مهجورة (١) »
والسائح في الأقطار الإسلامية يواجه هذه المشاهد والضرائح ، ومساحاتها
الواسعة ، وأبنيتها الضخمة ، وقبائها الرفيعة في كل بلد يمرّ به ، ويرى هنالك من
أعمال شريكة كالسجود ، والنذور والذبائح ، وأدعية وسؤال من صاحب
الضريح ، ما يندى له جبين الإسلام .

أما الديانات الهندية - بما فيها من البوذية والجينية والبرهية - فقد
كثرت فيها المشاهد والمعابد ، والأمكنة « المقدسة » المقصودة من النواحي
والأطراف كثرة فاحشة بطبيعة الحال ، وهي الأمكنة التي يرون لها شرفاً
عظيماً ، وقُدساً خاصاً ، ويعتقدون فيها بركة لما حدث فيها من الوقائع العظيمة ،
وأكرم فيها بعض عظمائهم بالقرب أو الكلام ، أو الوصول والمعرفة ، أو تجلّت
فيها بعض آلهتهم - كما يزعمون - تجلياً خاصاً ، وكثرت فيها الأعياد الدينية ،
والمواسم والأسواق ، التي انصبغت بصبغة الدين .

وأكثر هذه المشاهد والأمكنة المقدسة على ساحل نهر « الكنج »
(GANGES) المقدس ، يجتمع فيها أهل البلاد في عدد هائل ، للإغتسال في النهر
المقدس ، ومنها ما يجتمعون فيها سنوياً ، أو عدة مرات في السنة ، ومنها ما
يجتمعون فيها بعد سنين ، كفسل KUMBH الذي يجتمعون له بعد اثني عشر
عاماً ، عند ملتقى نهر « الكنج وجنا » في بريك (PARAYAG) (٢) ومن
أشهرها مدينة « بنارس » في الولاية الشمالية ، على نهر « الكنج » ويُعدّون
الإغتسال فيه كفارةً للذنوب ، ومن أعظم الحسنات والقربات ، ويؤثرون
الموت في هذه المدينة ، وتُنقل إليها جثث الموتى من النواحي البعيدة ، لتُحرق

(١) راجع ما قاله شيخ الإسلام في هذا الموضوع في الجزء الأول من منهاج السنة -

ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٢) من ضواحي « إله آباد » المدينة المشهورة .

هناك ، أو تُترك في النهر على اختلاف المقائد والعادات والطوائف الهندية ، ومنها بلدة « أجودھيا » التي كانت مركزاً « لراما » (RAM CHANDER) و « متهرا » التي لها اتصال بتاريخ « كرشنا » (KRISHNA) ، ومنها « هردوار »^(١) وكلّهما في الولاية الشمالية الغربية ، وهناك مشاهد وشواطئ ، ومعابد هامة تُعدّ بالعشرات في شبه القارة الهندية ، تختلف فيها العادات والتقاليد باختلاف الأقاليم والمناطق ، وباختلاف الطوائف التي تدين بها .

ومن أعظم المراكز المحجوج إليها عند البوذيين مدينة « كيا » (GAYA) في ولاية « بنهار » التي قضى فيها مؤسس هذه الديانة المؤلّف « كوتّم بده » GOTAM BUDDHA مدةً طويلةً ، وتشرف بالشهود أو المعرفة ، التي يسمونها « نيروان » NIR VAN .

والأعياد والأسواق التي تُقام في هذه الأماكن المقدّسة ، وعلى الشواطئ ، مسرح الفوضى والجنائيات ، ويتجلّى فيها عدم النظام ، وعدم النظافة لكثرة الزوّار والقاصدين الذين قد يبلغ عددهم - خصوصاً في الأعياد والأسواق التي تُقام بعد مجموعة من السنين - الى ملايين من النفوس ، رغم حرص الحكومة على إقامة النظام وقوانين الصّحة ، والوقاية من الأمراض ، وتقترن بتقاليد جاهلية ، وأعمال شركية ، وأساطير الآلهة والإلهات القديمة ، ومن إعجاز القرآن ، أنه لما ذكر حج البيت الذي بناه ابراهيم وحث عليه ، نعى على الشرك الوثنية والزور الذي تلوّث به المناسك ، وأعمال الحج والزيارة في الديانات والأمم الأخرى ، فقال : « ذلك ، ومن يعظّم حرمات الله فهو خير له عند ربه ، وأحلّت لكم الأنعام إلاّ ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان ، واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به »^(٢)

(١) معناه باب المعبود ، أو باب الاله .

(٢) سورة الحج : ٣٠ - ٣١ .

هذه صورة مجملة لأساليب الحج والزيارة ، والرحلة الدينية في ديارنا العالم الرئيسية ، التي لا يزال لها أتباع ومؤمنون يُعدّون بالملايين ، وملايين الملايين ، وقد كان شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي رحمة الله عليه ، عميق النظر ، واسع الإطلاع ، غير بجانب للصواب والإنصاف ، إذ قال في كتابه « حجة الله البالغة » وهو يتكلّم في موضوع الحج :

وأصل الحج موجود في كل أمة ، لا بدّ لهم من موضع يتبركّون به ، لما رأوا من ظهور آيات الله فيه ، ومن قرابين وهيات مأثورة عن أسلافهم يلتزمونها ، لأنها تذكر المقربين وما كانوا فيه .

وأحقّ ما يحج إليه بيت الله ، فيه آيات بينات ، بناه إبراهيم صلوات الله عليه ، المشهود له بالخير على السنة أكثر الأمم ، بأمر الله ووحيه بعد أن كانت الأرض قفراً وعراً ، إذ ليس غيره محجوج ، إلاّ وفيه إشراك أو اختراع ما لا أصل له (١) .

ويستطيع القارئ في سهولة أن يُقارن بينها وبين الحج الإسلامي ، ويعرف مفارقات بينها وبين هذا الركن الرابع ، ويقرأ قوله تعالى ، ويحدّث بنعمة ربّه : « لكل أمة جعلنا منسكاً لهم ناسكوه ، فلا ينازُعتك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلّى هدى مستقيم (٢) »

دور الإسلام الاصلاحى في تشريع الحج :

وقام الإسلام - شأنه في الأركان الثلاثة الأخرى - بدوره الإصلاحي التجديدي في الحج ، وقد كان أهل الجاهلية قد أدخلوا في الحج عادات جاهليّة ،

(١) حجة الله البالغة ج ١ - ص ٥٩ .

(٢) سورة الحج - ٦٧ .

وأموراً ابتدعوها ، ما أنزل الله بها من سلطان ، واصطلحوا على أشياء ، وتواضعوا عليها من الزمن القديم ، فكان تحريفاً في الحج الذي شرعه الله على لسان إبراهيم ، وتوارثته قبائل العرب جيلاً بعد جيل جنى على كثير من مقاصده وفوائده ، وكانت الحمية الجاهلية ، والنخوة القبلية ، وما كانت عليه قريش من التفاخر والكبرياء ، وحرصهم على التمييز ، هو الباعث الأكبر على هذه الزيادات والتحريفات ، فجاء القرآن والتشريع الإسلامي بإزالة هذه البدعة والتحريفات ، وإبطالها ، وقد تصدى القرآن الحكيم لكل بدعة من هذه البدع ، ولكل موقف من مواقف الجاهلية الدخيلة ، فاجتثته واستأصل شافته ، وأبدله بخير منه .

فمن ذلك أن قريشاً لم يكونوا يدخلون عرفات مع الحجيج ، بل يقفون في الحرم ، ويقولون : نحن أهل الله في بلدته وقطان بيته ، ويقولون نحن المحس^(١) ، وما ذلك إلا لتميئزوا عن سائر الناس ، ويحافظوا على مركزهم الجاهلي ، وعلى ما كانوا يتخيئونه من سمو وامتياز ، فأبطل الله هذا الامتياز الجاهلي ، وأمرهم بأن يعملوا كما يعمل الناس ، ويقفوا بعرفات ، وقال : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس^(٢) » ، روى البخاري بإسناده عن عائشة رضي الله عنها : « كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون المحس ، وسائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام ، أمر الله نبيه ﷺ ، أن يأتي عرفات ثم يقف بها ، ثم يفيض منها ، فذلك قوله « من حيث أفاض الناس » قال ابن كثير ، وكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والسدي ، وغيرهم رضوان الله عليهم واختاره ابن جرير ، وحكى عليه الإجماع .

ومنها أن أهل الجاهلية ، كانوا قد اتخذوا الموسم سوقاً للتفاخر والمساجلة

(١) قال العلامة محمد طاهر الفتني في « مجمع بحار الأنوار » حس هو جمع أحس : وهم قريش ومن وليته وكنانة وجديلة قيس ، لأنهم تحمسوا في دينهم ، أي تشددوا .

(٢) سورة البقرة : ١٩٩ .

كما كان شأنهم في « عكاظ » و « مجنة » و « ذي الحجاز » ، وكانوا ينتهزون كل فرصة للإجتماع وتلاقي القبائل للتطاول بالأنساب ، وماثر الآباء وعدّ المفاخر ، وكان الاجتماع في « منى » خير مكان لإرضاء العاطفة الجاهلية ، فنهى الله عن ذلك ، وأبدلهم بما هو خير منه ، وهو ذكر الله ، فقال : « فإذا قضيتُم مناسككم ، فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً (١) » قال ابن عباس رضي الله عنه : كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم ، فيقول رجل منهم ، كان أبي يُطعم ويحمل الحملات ، ويحمل اللديات ، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم ، فأنزل الله على محمد ﷺ : « فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً (٢) »

ومنها أنّ الحج قد فقد على مرّ الأيام شيئاً كثيراً من قدسه وطهره ووزاهته ، وأصبح عيداً من أعياد الجاهلية ، ومكاناً للتّهو والخصام ، فدّم الله ذلك في القرآن ، وقال : (فلا رفث . ولا فسوق ولا جدال في الحج (٣)) قال ابن كثير ، قال عبدالله بن وهب ، قال مالك ، قال الله تعالى : (ولا جدال في الحج) فالجدال في الحج ، والله أعلم ، أنّ قريشاً كانت تقف عند المشعر الحرام بالمدلفة ، وكانوا يتجادلون ، يقول هؤلاء : نحن أصوب ، ويقول هؤلاء : نحن أصوب ، هذا فيما نرى ، والله أعلم ، وعن محمد بن كعب قال : كانت قريش إذا اجتمعت ببنى ، قال هؤلاء : حجّنا أتمّ من حجكم ، وقال هؤلاء : حجّنا أتمّ من حجكم .

ومنها أنّ العرب كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوا الهدايا والضحايا لأهلهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ، ونضحوا عليها من دماها ، فقال تعالى : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها (٤)) قال ابن كثير ، قال ابن أبي حاتم ، حدثنا

-
- (١) سورة البقرة : ٢٠٠ .
 - (٢) سورة البقرة : ٢٠٠ .
 - (٣) سورة البقرة : ١٩٧ .
 - (٤) سورة الحج : ٣٧ .

علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن ابي حماد ، حدثنا ابراهيم بن المختار عن ابن جريج ، قال : كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فنحن أحق أن ننضح ، فأنزل الله تعالى : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم (١)) .

ومنها أن العرب كانوا إذا نوا الحج تحرجوا من دخول البيوت من الابواب ، وكانوا يرون ذلك إثماً وتفريطاً في جنب الله وفي جانب الحج ، وكانوا يتسورون البيوت من ظهورها ما داموا محرمين ، فأبطل الله ذلك ، ونفى أن يكون من أنواع البر ، وقال : (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها (٢)) قال البخاري حدثنا عبيد الله بن موسى عن اسرائيل عن أبي اسحق عن البراء ، قال : كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره ، فأنزل الله : (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها (٣)) وكذا رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة عن أبي اسحاق عن البراء ، قال : كانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم ، لم يدخل الرجل من قبل بابه ، فنزلت هذه الآية .

ومنها أن أناساً من العرب كانوا يستحيون ويتأثمون من أن يخرجوا للحج مع زاد يبلغهم إلى البيت ويتجلدون ، ويتظاهرون بالتوكل ، ويقولون : نحن ضيوف الله ، ولا نتزود ولا نتبلغ ، وكانوا لا يتحرجون من التسؤل والشحاذة ، والاستجداء ، ويمعدون ذلك في سبيل الله ، فنهاهم الله عن ذلك ، وقال : (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى (٤)) قال ابن كثير ، قال العوفي عن ابن

(١) سورة الحج : ٣٧ .

(٢) سورة البقرة : ١٨٩ .

(٣) سورة البقرة : ١٨٩ .

(٤) سورة البقرة : ١٩٧ .

عباس : كان أناس يخرجون من أهلهم ليست معهم أزودة ؛ يقولون : نحج بيت الله ولا يُطعمنا ؟ ، فقال الله تعالى : (تزودوا) ما يكفّ وجوهكم عن الناس ، وأخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : كان أهل اليمن يحجّون ولا يتزودون ، ويقولون : نحن المتوكّلون ، فأنزل الله : (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) .

وكذلك كانوا يتأثّمون من التجارة في الموسم ، وذلك تحريم ما أحلّ الله ، روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كانت عكاظ ومجّنة وذو الهجاز أسواقاً في الجاهليّة ، فتأثّموا أن يتجروا في الموسم ، فنزلت : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربّكم ^(١)) في مواسم الحج ، وعن مجاهد رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم والحج ، يقولون أيام ذكر ، فأنزل الله : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربّكم) .

ومنها أنّ المشركين كانوا يطوفون بالبيت عراةً ، ويقولون : لا نطوف في ملابس عسيفيا ، فكان ذلك باباً لفساد عظيم ، وتشريعاً جاهلياً ، فأنزل الله تعالى : (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ^(٢)) رواه مسلم والنسائي ، وابن جرير ، واللفظ له : عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كانوا يطوفون بالبيت عراةً ، الرجال والنساء ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل ، وكانت المرأة تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله
وما بدا منه فلا أحلّه

(١) سورة البقرة : ١٩٨ .

(٢) سورة الأعراف : ٣١ .

فقال الله تعالى : « خذوا زينتكم عند كل مسجد ^(١) » وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله : « خذوا زينتكم عند كل مسجد » الآية ، قال : كان رجال يطوفون بالبيت عراة ، فأمرهم الله بالزينة ، والزينة اللباس ، وهو ما يوارى السوءة ، وما سوى ذلك من جيد البزّ والمتاع ، فأمرُوا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد ، وقال ابن كثير ، هكذا قال مجاهد وعطاء ، وإبراهيم النخعي ، وسعيد بن جبير ، وقتادة والسدثي ، والضحاك ومالك عن الزهري وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها ، أنها نزلت في طوائف المشركين بالبيت عراة .

وقد قرن ذلك بأمر وتنفيذ من رسول الله ﷺ ، فأرسل أبا بكر رضي الله عنه في العام التاسع ، وأمره بأن يعلن : لا يطوف بالبيت عريان ، وقد روى البخاري بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه : « أن أبا بكر الصديق بعث في الحجة التي أمره النبي ﷺ عليها قبل حجة الوداع يوم النحر في رهط يؤذّن في الناس لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوفنّ بالبيت عريان ^(٢) »

ومنها أن الطوائف من أهل العرب كانت تتحرج أن تطوف بالصفاء المروءة ، وكانوا يرون ذلك من أمر الجاهلية ، فأنزل الله : « إن الصفاء المروءة من شعائر الله ، فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوفّ بها ^(٣) » قال عروة عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قلت أرأيت قول الله تعالى « إن الصفاء المروءة من شعائر الله فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوفّ بها » قلت فوالله ما على أحد جناح أن لا يتطوفّ بها ، فقالت عائشة رضي الله عنها : بش ما قلت يا ابن أخي ، إنها لو كانت على ما أولتها عليه ، كانت

(١) سورة الأعراف : ٣١ .

(٢) الجامع الصحيح للبخاري - كتاب المغازي « باب حجّ أبي بكر رضي الله عنه بالناس »

(٣) سورة البقرة : ١٥٨ .

فلا جناح عليه أن يَطَّوْفَ بهما ، ولكنها إنما أنزلت ، ان الأنصار قبل أن يُسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل ، وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفاء والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ ، وقالوا : يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفاء والمروة في الجاهلية ، فأنزل الله عز وجل : (إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) (١) قالت عائشة رضي الله عنها : ثم قد سن رسول الله ﷺ الطواف بهما ، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما ، (أخرجه في الصحيحين) ، وقال البخاري رضي الله عنه : حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن عاصم بن سليمان ، قال سألت أنساً عن الصفا والمروة ، قال كنا نرى أنها من أمر الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ، أمسكنا عنها ، فأنزل الله عز وجل : (إن الصفا والمروة من شعائر الله) .

وبهذه الإصلاحات البعيدة الأثر رد التشريع الإسلامي هذا الركن العظيم ، إلى أصله الأبراهيمي ، ووضعه الأصيل النقي ، البعيد عن تأويل الجاهلين وتحريف الغالين وانتحال المبطلين (٢) .

وقد أحسن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، إذ قال :
« أعلم إنه ﷺ بحث بالملة الحنيفية الإسماعيلية لإقامة عوجها وإزالة تحريفها وإشاعة نورها ، وذلك قوله تعالى : « ملة أبيكم إبراهيم » ولما كان الأمر على ذلك ، وجب أن تكون أصول تلك الملة مسلمة ، وسنتها مقررمة ، إذ النبي إذا بعث إلى قوم فيهم بقية سنة راشدة ، فلا معنى لتغييرها وتبديلها ، بل الواجب تقريرها ، لأنه أطوع لنفوسهم ، وأثبت عند الاحتجاج عليهم » (٣)

(١) سورة البقرة : ١٥٨ .

(٢) استفدنا في هذا البحث من توجيهات استاذنا العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله

« في سيره النبي » المجلد الخامس .

(٣) حجة الله البالغة ج ٢ ص ٥٦

فهرس الموضوعات

<u>رقم الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٣	بين يدي الكتاب
٩	
١١	الصلاة
١١	الصلاة
١٣	الحاجة إلى فهم الصلة التي تقوم بين العبد والرب
١٣	الصلّاتُ تابعة للصفات ، تابعة منها
١٤	الصفات والأسماء ، ومكانتها في الدين والقرآن
١٥	الإنسان ، المخلوق الغامض المتناقض
١٦	مخلوق أليف حنون
١٦	خاضع خاشع بالغريزة
١٧	لابدّ من مثل أعلى
١٧	الصلة المعادلة المعقولة ، التي يجب أن تكون دائماً بين «الإنسان» وبين «الله»
١٨	الكون في خضوع دائم ، وعبادة مستمرة
	مركز الإنسان في هذا العالم وما يقتضيه ، وسبب تميزه عن سائر
٢٠	الكون في العبادة

- ٢١ عبادة مطابقة لوضعه الخاص ، ومركزه الدقيق
- ٢٢ لباس ، فصل على قامته
- ٢٢ حكمة التشريع في تخفيف عدد الصلوات المفروضة ، وفوائده النفسية
- ٢٣ نظيره في القرآن
- ٢٣ وجبات روحية ، وحقق صحية ، عين أعدادها وأوقاتها العليم الحكيم
- ٢٥ الحكمة في تكرار الصلوات وتعاقبها
- ٢٥ الصلاة ، ومكانتها في الإسلام
- ٢٧ دوام التكليف بالصلاة ، والخطر في تركها
- ٢٧ مثل تارك الصلاة لفضل يعتمد عليه
- ٢٨ سر المحافظة على الصلوات ، وعقوبة من أنكر ذلك ، أو ثار عليه
- ٢٩ الصلاة للمؤمن العارف ، كالماء للسمك
- ٢٩ معقل المسلم ، ومفرغه
- ٣٠ كل من الجسم والعقل والقلب يمثل في الصلاة
- ٣١ الإقتصار على تمثيل واحد من الثلاثة ، جهل وضلال
- ٣٢ وضع الصلاة الدقيق الحكيم ، ونظامها التربوي المعجز
- ٣٢ استقبال القبلة في الصلاة ، حكمته وتأثيره
- ٣٤ جلال كلمة التكبير ومعانيها ، وآفاقها
- ٣٥ طبيعة هذه الشهادة والمعقدة ، وأمثلة رائعة لها من التاريخ
- ٣٧ أذكار الإفتتاح ، وأدعيته

- ٣٨ سورة الفاتحة ، جاهها وجامعيتها وتأثيرها في الحياة
- ٤١ تلاوة ما تيسر من القرآن
- ٤١ الخضوع الطبيعي المتدرج
- ٤٢ السجدة الخاشعة الحنون ، التي يضطرب لها الكون
- ٤٣ الصلاة على النبي ، محلها في الصلاة وحكمتها
- ٤٥ ثقة المسلم بنفسه وتحديد جماعته وحزبه
- ٤٦ نهاية الصلاة ، وحسن خاتمتها
- تناقض الصلاة « الحقيقية » مع عبادة غير الله ، وعبودية الإنسان
والحياة الجاهلية
- ٤٧
- ٤٩ تأثير الصلاة في الأخلاق والميول
- ٤٩ التشريعات الحكيمة لتفخيم شأن الصلاة ، وخلق الجو المناسب لها
- ٥٠ الأذان نداء للصلاة ، ودعوة للإسلام.
- ٥١ التطهر وما يورثه من إهتمام
- ٥٢ المساجد ، فضلها ومركزها في حياة المسلمين
- ٥٣ الآداب المشروعة لتقوية الجو الإيماني الروحاني
- ٥٤ لجماعة ، أهميتها وفضلها
- ٥٥ بعض حكم الجماعة ومصلحتها ، وبعض آدابها
- ٥٦ الجمعة ، مكانتها وخصائصها.
- ٥٩ الجمعة ميزان الأسبوع
- ٦٠ صلاة العيدين ، وامتيازها الإسلامي

- فضل الجمعة والجماعة في عصمة الدين عن التحريف ، وحفظ المسلمين من
 البدع والفوضى في العبادة ٦١
- « الصلاة » في الديانات الأخرى ٦٢
- الصلاة عند اليهود ٦٣
- الصلاة عند المسيحيين الكاثوليك الرومان ٦٧
- الصلاة عند البروتستانت ٧٠
- « الصلاة » في الديانة الهندية ٧١
- السنن الرواتب ، وصلاة الوتر ٧٧
- تنوع الصلوات ، وتنوع أغراض المسلم منها ٧٩
- سيرة السلف في هذه الصلاة ونظرتهم إليها ٧٩
- قيام الليل ، فضله وتأثيره ، وشأن السلف فيه ، وحاجة العالمين ،
 والدعاة إليه ٨٠
- ثمرة النوافل والإكثار من الصلاة ، وآثارها ٨٤
- تفاوت الصلوات التفاوت الكبير ، وتفاضل أهلها التفاضل العظيم ٨٥
- فضل الصلاة والقرآن بعد وفاة الرسول ﷺ ؛ وختم النبوة ٨٧
- الصلاة ميراث النبوة بروحها وأحكامها ، متوارثة في الأمة بظاهرها وباطنها ٨٩
- واجب قادة الإصلاح ، ورجال التعليم والتربية ، والحركات الدينية ٩١
- ٩٣
- الزكاة
- صلة الرب والعبد ، وما توجهه من حب وإخلاص ، وبذل وإيثار ٩٥
- مظاهر الربوبية والعناية بالإنسان ٩٥

- ٩٦ الطبيعة البشرية ، وما لها من أثر في الحياة والمدنية .
الوضع والواقع يقتضيان أن لا يُقرَّر للإنسان ملك ، ولا يضاف إليه
- ٩٧ شيء ، وأن يكون الملك كله لله .
الفكرة الأساسية في النظام الإقتصادي والإسلامي ، تقرير الملكية
- ٩٨ الحقيقية لله تعالى .
سر إضافة الأموال والملكية إلى الإنسان ، وفائدتها
- ٩٨ كيف غرس القرآن فكرة الأمانة والخلافة في نفوس المسلمين ؟
- ١٠٠ كيف آمن المسلمون الأولون بفكرة الأمانة والخلافة ، وكيف خضعوا لها ؟
- ١٠١ الحث على إنفاق الفضل في سبيل الله ، وقيام المسلمين به في نشاط وحماس
- ١٠٣ الزكاة بمعنى الإنفاق والصدقات .
- ١٠٤ الحاجة إلى نظام معين للزكاة وتشريع يوافق الطبقات والعصور
- ١٠٤ فم تجب الزكاة ؟ وحكمة التفاوت بين النصب والمقادير .
- ١٠٦ حكمة مواضع الزكاة وتوقيتها
- ١٠٩ مصارف الزكاة ، وقيام نظامها الإجتماعي
- ١١٠ مصالح الزكاة الأساسية
- ١١١ سمات « الزكاة » البارزة
- ١١٥ التبشير والإنذار
- ١١٥ تؤخذ من أغنيائهم ، وترد على فقرائهم
- ١٢٠ روح التقوى والتواضع والإخلاص
- ١٢٢ الفرق بين الزكاة والربا
- ١٢٤

- الإصلاحات التي قام بها الإسلام في تشريع الزكاة
- « الصدقات » في الديانات الأخرى
- الصدقات في الديانات الهندوكية
- الصدقات في اليهودية
- الصدقات في الديانة المسيحية
- دور الإسلام الإصلاحي
- إلغاء الإحتكار الديني والطبقي
- إسقاط الوسائط في أداء الزكاة
- تمليك المستحقين ، وتحكيمهم فيما يأخذونه
- مكانة الزكاة في الإسلام ، ووضعها الشرعي الأصيل
- الأصل في الزكاة ، أن تكون بنظام
- تمسك أبي بكر الصديق رضي الله عنه لهذا الأصل ، ومحافظته عليه
- لماذا وقف ابو بكر هذا الموقف من مانعي الزكاة ؟
- فضل موقف أبي بكر ، وحسن أثره في الإسلام
- تفويض أداء زكاة الأموال الباطنة إلى أربابها
- إخلال حكومات المسلمين بنظام الزكاة ، وعقوبته في الدنيا
- الزكاة ، هي الحد الأدنى للبرِّ والمواساة
- إن في المال حقاً سوى الزكاة
- النظرة النبوية الخاصة إلى الحياة وإلى المال
- معيشة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته
- تحرُّجه من المال الفاضل ، وقلقه من بقاء مال الصدقة
- حثُّ وتحريرض على إنفاق الفاضل من الحاجة
- قيمة الإنسان وقيمة مواساته في نظر الدين الإسلامي
- تأثير أسوة الرسول وتعاليمه في حياة الصحابة رضي الله عنهم
- نماذج من سيرة الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة (رضي الله عنهم) وأهل البيت ١٦٣

- المواساة والإيثار في المجتمع الإسلامي الأول ١٦٤
- المواساة والإيثار في مختلف العصور والأجيال ١٦٥
- امتياز المجتمع الإسلامي في العصر الأخير ١٧٠
- مواساة طوعية شاملة ، أم مساواة إجبارية محدودة ؟ ١٧١

الصيام

- ١٧٧
- الصيام ١٧٧
- مخلوق وسط ، بين الملائكة والحيوانات ١٧٩
- مقتضى « الخلافة » ولوازمها ١٨٠
- تجاذب الروح والجسد ، إلى مركزهما وخصائصهما ١٨٠
- أثر انتصار كل من الروح والجسد ، في حياة الإنسان ، وفي تاريخ الأديان والأخلاق ١٨٣
- تأثير التخمة والنهامة ، في الأخلاق والأذواق ١٨٤
- إغاثة النبوة للإنسانية ، وتشريعها للصوم ، لتحقيق المثل العليا ، وغايات الحياة الإنسانية الحقيقية ١٨٤
- مقاصد الصوم ، وأثره في النفس والحياة ١٨٥
- الصوم في الديانات القديمة ١٨٧
- الصوم عند اليهود ١٨٩
- الصوم عند المسيحيين ١٩١

	جناية التخيير وعدم التحديد ، والحريّة الزائدة في الصوم على مقاصده ، وفوائده	١٩٣
	تقليل الغذاء وتحديدده ، أم إمساك مطلق ؟	١٩٥
	صيام مجموعة متتابعة ، أم متشتتة موزعة ؟	١٩٦
	صوم عاشوراء	١٩٧
	فرض الصوم ، وما نزل فيه من آيات	٢٠٥
	خصائص التشريع الإسلامي في الصوم وفضله وأحكامه	٢١١
	لماذا اُخص رمضان بالصوم	٢١٢
	موسم عالمي ، ومهرجان عام ، للعبادات والخيرات	٢١٤
	الجوّ العالمي ، وما له من تأثير في النفوس والمجتمع	٢١٤
	الفضائل ، وما لها من تأثير وقوة	٢١٥
	العناية بروح الصوم ، وحقيقته ومقاصده ، والجمع بين « السلب » و « الإيجاب »	٢١٧
	تفريط المسلمين في مقاصد الصوم ، وجناية العادات على العبادات	٢٢١
	الصيانة من التحريف والغلو	٢٢٢
	الإعتكاف	٢٢٥
	ليلة القدر	٢٢٧
	دور الإسلام الإصلاحي في تشريع الصوم	٢٢٩

٢٣٣

الحج

- ٢٣٥ الحج
- ٢٣٧ الإسلام دين توحيد وتجريد ، لا وساطة فيه ، ولا تمثيل
حاجة الإنسان إلى « مشاهد » يوجّه إليه أشواقه ، ويحقق رغبته من
- ٢٣٨ التعظيم والدنو .
- ٢٣٨ شعائر الله وحكمتها
- ٢٣٩ عنصر الهيام والحنان في طبيعة الإنسان ، أثرهما في الحياة ، ومنزلتهما من الدين
« الصفات » هي التي تثير الحب ، وتبعث الحنان ، لذلك أطال وأكثرت
- ٢٤٠ من ذكرها القرآن .
- ٢٤١ ما قيمة كأس لا تطفح ولا تفيض ؟
- ٢٤١ تسلية البيت والحج لحنان المسلم وهيامه
- ٢٤٣ طفرة ، أو قفزة واسعة من سجن ضيق الى عالم فسيح
- ٢٤٣ تحدّي لعباد العقل والمادة ، ودعوة إلى الإيمان بالغيب ، واتّباع الأمر المجرد
- ٢٤٦ « الحاج » طوع إشارة ، ورهين أمر .
فضل المكان والزمان ، وموسم الحب والحنان ، واجتماع أهل الصدق
- ٢٤٧ والطلب ، في جلب رحمة الله وتحريرك الهمم
- ٢٤٩ تجديد الصلة بإمام الملة الحنيفيّة « إبراهيم » عليه السلام من أعظم مقاصد الحج
- ٢٥٠ إعادة قصة ابراهيم (ع) ، وتمثيلها في الحج

- ٢٥١ . . . قصة ابراهيم (عليه السلام) في القرآن وصلتها بالبلد الأمين . . .
- ٢٥٧ الحج، تخليد لخصائص ابراهيم (عليه السلام) ومآثره ، وتجديد لدعوته وتعاليمه
- ٢٥٨ عنوان جديد ، وخط فاصل في كتاب الإنسانية
- ٢٥٩ عماد الإنسانية ، وقيام للناس
- ٢٤٣ مركز دائم الهداية والإرشاد والإصلاح والجهاد
- ٢٦٠ إلى مدينة الرسول ﷺ ، ومسجده العظيم
- عرضة سنوية تحفظ على الأمة نقاءها وأصالتها ، وتمصم الدين عن التحريف
- ٢٦٠ والفساد الشامل
- ٢٦٢ مركز الإشعاع العالمي الخالد
- ٢٦٣ مظهر الجامعة الإنسانية الإسلامية
- ٢٦٥ ليشهدوا منافع لهم
- يجب أن يمثل البلد الأمين الحياة الإسلامية ، والمجتمع الإسلامي المثالي
- ٢٦٦ في كل زمان
- يجب أن يبقى « البلد الأمين » محتفظاً بطراز خاص ، والحج بروح
- ٢٦٧ الجهاد والتكشف
- ٢٦٨ التشريعات الحكيمة لزيادة فائدة الحج ، وتقوية أثره في النفس والحياة
- ٢٧٨ . . . « الحج والزيارة » في الديانات القديمة ، سماتها وفوارقها
- ٢٨٧ دور الإسلام الإصلاحي في تشريع الحج
- ٢٧٥ حجة الوداع وقيمتها التربوية والبلاغية . . .